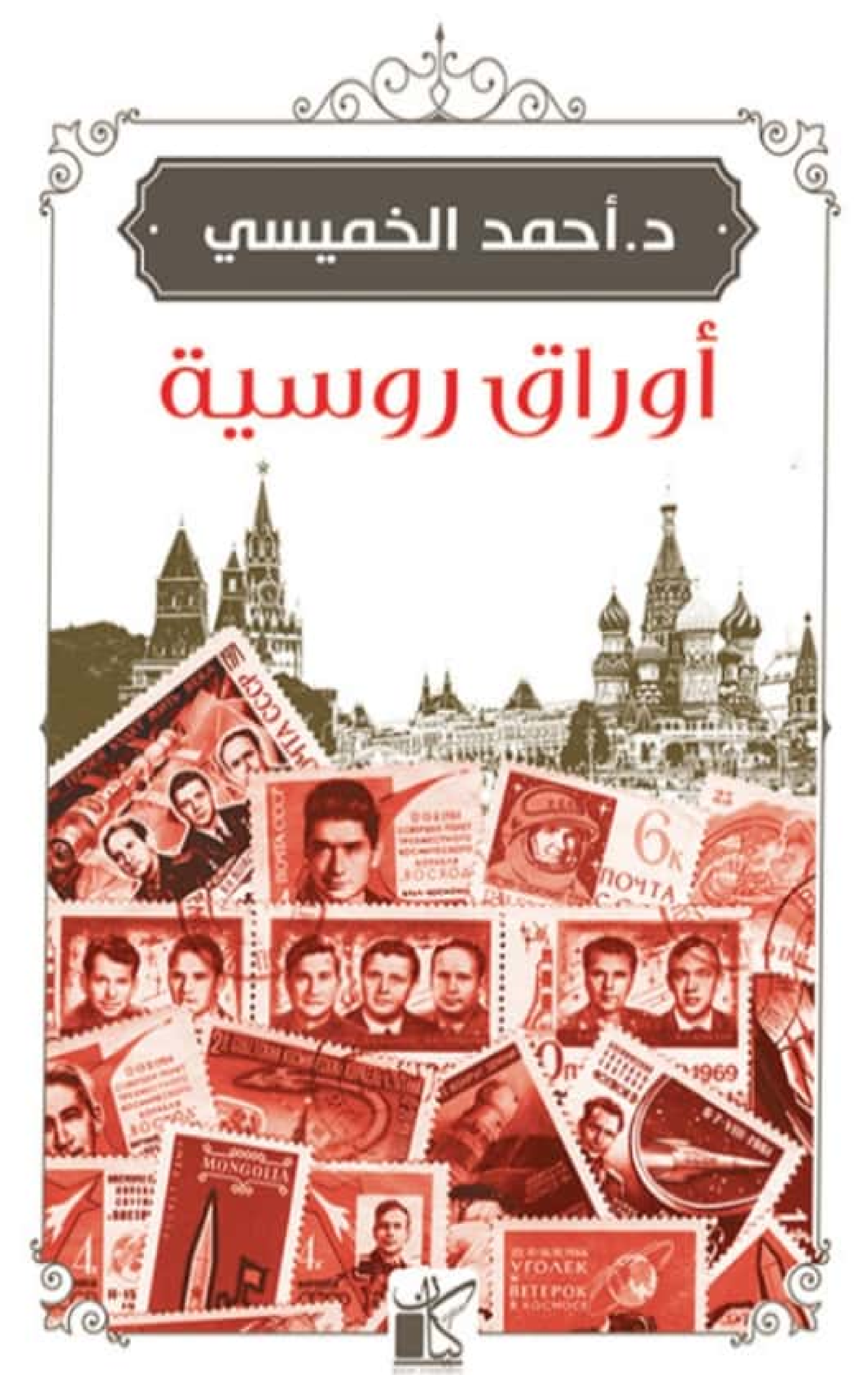

د. أحمد الخميسي
أوراق روسية

د.أحمد الخميسي

أوراق روسية

مقالات

دار كيان للنشر والتوزيع

إهداء

إلى أصدقاء الثقافة العربية في روسيا: الراحلة الكريمة إليريا كيربتشنكو، والعزيزة أولجا فلاسوفا، وآليج بافيكين، وإلى روح العزيز إيجور تيموفيف، وإلى أصدقائها الكبار: د. أبو بكر يوسف، وغائب طعمة فرمان، وغيرهما من الفرسان الذين نقلوا عيون الأدب الروسي إلى العربية.

أحمد الخميسي

أول ما جرى

سافرت إلى روسيا في أغسطس ١٩٧٢، وكانت أول مرة أسافر فيها خارج الوطن. ركبت الباخرة من الإسكندرية إلى لبنان، وعبأت حقيبتين بملابسي وكتبي ودفاتر بأفكار قصصية وإبرة وفتلة ونعناع وكيس ملوخية ناشفة وأزرار وأقلام وصور أخواتي وكل أرقام هواتف أصدقائي، وكل ما يجرجره مصري إذا خطا شبرًا واحدًا بعيدًا عن وطنه. حقيبتان منتفختان كأنهما حفلة وداع تتحرك معي حشرت فيهما مصر، وما أن تحركت الباخرة وأخذت تضرب الموج بجنبيها – حتى شعرت بأنني ضعيف أعزل، مثل المصارع الذي - في حكاية شعبية أرمينية – كان يقاتل خصومه في دائرة من تراب أرضه، فإذا تزحزح بعيدًا فقد قوته.

استندت بمرفقي على سور الباخرة أودع الإسكندرية وأهلي الواقفين على رصيف الميناء ببصر غائم، وفي اليوم الثاني رست الباخرة عند ميناء بيروت. ركبت سيارة أجرة إلى أحد الفنادق، وفي الطريق رأيت جمال بيروت الآسر، تذكرت مطلع قصيدة لعلي الجارم كانت مقررة علينا في الثانوية وكنا نحفظها صمًا «بلادي جنة الدنيا وروض ربيعها الأخضر.. تعالى الله باركها وأجرى تحتها الكوثر». قلت لنفسي وأنا أرى بيروت ما كل هذا الجمال الساحر إذن؟!. كان عليّ أن أستقل الطائرة إلى موسكو. في المطار اكتشفت أن وزن الحقيبتين فوق الوزن المسموح به للراكب، ولكي أتفادى دفع قيمة

الوزن الزائد (لم يكن معي أي نقود من أي نوع أصلًا لأدفع أي شيء) أخرجت كل ملابسي وارتديتها فوق بعض داخل دورة المياه بالمطار، وبالإصرار والجهد ارتديت حقيبة من الاثنتين، فارتفعت درجة حرارتي واحمر وجهي! عند مراجعة الجوازات حدق بي الضابط اللبناني وأنا واقف أمامه، نقل بصره ما بين وجهي وجواز السفر وهو يطرف بعينيه إلى أن تيقن من أنني الشخص نفسه لكن أحمر منتفخًا لسبب مجهول. رد إليَّ الجواز مستعجبًا «تكرم».

هل بدأت رحلتي إلى روسيا من لحظة ركوبي الطائرة أم قبل ذلك؟ عن طريق الأدب حين انتقلنا عام ١٩٥٩ للسكن في شارع مصر والسودان بعمارة أمام صيدلية «الحياة». حينذاك كنت في نحو العاشرة من عمري عندما بدأت أمد يدي إلى مكتبة والدي في صالة الشقة أفتح ضلفتيها وأسحب من على رفوفها أي شيء مكتوب على غلافه قصص أو روايات. كانت المكتبة تحتوي على عدد كبير من الروايات الروسية، إلى الآن ما زالت ماثلة أمام عيني تلك الشقة الفسيحة والصالة التي قرأت على ضوء نهارها بدون توقف رواية دوستويفسكي «آنتوشكا»، ثم المجموعة القصصية المذهلة «ملكة البوستوني» لبوشكين، و«طفولتي» لمكسيم جوركي. تركث تلك الروايات في نفسي أثرًا عجيبًا كأنما كانت يدي في ماء بارد وإذا بها فوق اللهب، كان حجم الألم الذي تعانيه الشخصية الروسية وحجم

التمرد وحجم الأسئلة التي تصارع بها العالم مهولًا مقارنة بما كنت قد قرأته من الأدب العربي، ومن خلال الروايات انطبعت روسيا في خيالي مثل ياقوتة ملونة متوهجة بالوجع والانتفاض والندم، كانت الشخصيات الروسية كثيرًا ما تنتحر أو تندفع إلى الرصاص في محاولات لتغيير الواقع باغتيال القياصرة، أو تغرق يأسها في الخمر وقرب شموع الكنائس أو تسمو فوق كل شيء، لكنها في كل الأحوال كانت شخصيات «أيديولوجية» ذات مشروع لتغيير العالم والصدام معه وضده ومن أجله، وجميع حوادث الاغتيال والانتحار في روايات دوستويفسكي مثلما لاحظ إيجور فولجين، تكاد أن تكون حوادث أيديولوجية كما تشهد بذلك محاكمة فيرا زاسوليتش (١٨٧٩) التي أطلقت النار على مدير شرطة في بطرسبورج؛ لأنه عذب شخصًا معتقلًا قائلة: «أردت أن أبين بذلك أنه لا يجوز لأحد أن يهين إنسانًا بمثل هذا الإيمان العميق بالإفلات من العقاب». لم تكن تلك الشابة تدافع عن أخيها أو زوجها لكن عن شخص لا تعرفه إطلاقًا، كانت تدافع عن أي شخص وكل شخص، عن مبدأ أنه «لا يجوز لأحد أن يهين إنسانًا»، وبعد أكثر من مائة عام تشتعل الروح الروسية مجددًا، ففي فبراير ١٩٨٨ عندما كانت أمريكا تستعد لغزو العراق خرج مواطن روسي تجاوز الستين في مقاطعة ليبتسك ووقف أمام باب بيته وسكب البنزين على جسده وأضرم النار في نفسه احتجاجًا على

مشروع غزو العراق، ولقد أراد هو أيضًا مثلما فعلت فيرا قبله بمئة عام أن يبين أنه «لا يجوز لأحد أن يهين شعبًا بمثل هذا الإيمان العميق بالإفلات من العقاب»!

لم أكن أعلم وأنا أقرأ الأدب الروسي بنهم وأتعرف عن طريقه إلى روسيا أن العرب منذ أكثر من ألف عام شقُّوا طريقهم إلى هناك في أول رحلة قام بها أحمد بن فضلان مبعوث الخليفة العباسي المقتدر بالله عام ٩٢٢ ميلاديًا.

مع إقلاع الطائرة منيت نفسي وأنا أختنق بملابسي بأني في طريقي إلى بلاد الصقيع، وما أن أصل حتى أتخفف من جبل الملابس، لكني حين لامست قدماي أرض مطار «شيرميتفا» بموسكو فوجئت بأن روسيا كلها تختنق بموجة حارة غير مسبوقة إلى درجة أشعلت الحرائق في الغابات، وهو ما لم يحدث منذ نصف القرن! استقبلتني موسكو «بحرارة» إذن! لم يكن شيء من ذلك الطقس في تصوري وأنا صبي أقرأ في بيتنا «الليالي البيضاء» لدوستويفسكي وألهث مع انفعالات أبطالها: «ها هو الحب قد نزل إلى قلبه بكل هذا الفرح الطاغي، بكل العذابات المضنية! هل ستصدقين وأنت تنظرين إليه أنه لم يكن يعرف حقًّا تلك التي أحبها بقوة في حلمه النشوان؟ وهل من المعقول أنها لم تكن تلك المنطرحة على صدره منتحبة عندما حل الفراق في ساعة متأخرة غير ملقية سمعًا للعاصفة التي كانت تعربد في السماء ولا للريح التي كانت تقطف الدموع

من أهدابها؟ أيعقل أن كل ذلك كان حلمًا؟!». لم يكن ليخطر ببالي وأنا ألتهم تلك السطور أنني يومًا ما سأرى روسيا التي بدت في خيالي ثلوجًا بيضاء وزحافات في الجليد ورجالًا يرتدون القلنسوات الدافئة ومنافيَ في سيبيريا ومقاصل وصورًا من قصص جوركي وتشيخوف وأنات الفلاحين لدى جوجول وتولستوي، وثورة بدلت وجه الحياة وحفرت شعارها في الذاكرة «بالأمس كان باكرًا، وغدًا يكون متأخرًا، فإما أن تقع الثورة اليوم وإما لا تقع».

مع هبوطي إلى مطار موسكو حل عليّ شعوري بالغربة، سرت حاملًا حقيبة ومرتديًا أخرى عاجزًا عن فهم أي شيء مما يقال حولي بالروسية، تخطيت الإجراءات الجمركية ووقفت في صالة المطار أنتظر أن يُنادى عليّ من الاستعلامات لألتقي بمن يستقبلني من منظمة التضامن الآسيوي الإفريقي. ساعات ولا أحد. أتلفت حولي في وقفتي حائرًا مثل غراب حط على طريق سريع بين سيارات طائشة. عضني الجوع. لم يكن في جيبي سوى روبل روسي واحد كنت أحتفظ به وأنا في مصر لأن عليه صورة بوشكين أمير الشعراء الروس. تنهدت بأسف وأنا أدفع بالروبل لعاملة في البوفيه معتذرًا في سري للشاعر العظيم وحصلت على سندويتش ثخين جزاء خيانة الأدب والأدباء. من شعوري بالغربة خُيِّل إليّ أنني أول مصري في التاريخ يصل إلى هذه البلاد، ولم أكن أعرف أن هناك مصريين

اثنين سبقاني إلى هنا منذ مائة وثلاثين عامًا بحثًا عن الذهب! بعبارة أدق بحثًا عن كيفية استخلاص الذهب من الرمال! كان ذلك عندما شرع محمد علي باني نهضة مصر الحديثة في غزو السودان عام ١٨٢٠، واجتذبه إليها ضمن أمور أخرى ذهب فازوغلي بجنوب سنار. هناك عثرت القوات المصرية على رواسب تحتوي على الذهب، لكنها لم تجد طريقة لاستخلاصه، وفي عام ١٨٤٥ أرسل محمد على إلى روسيا طالبين مصريين اثنين هما: إيليا داشوري، وعلي محمد، لدراسة استخلاص الذهب فأثار الاثنان بملامحهما الإفريقية وبشرتهما السمراء دهشة أهالي الأورال الروس! في مطلع ١٨٤٧ عاد الاثنان وقد أصبحَا مهندسي تعدين إلى مصر وبدون إبطاء أرسلهما محمد علي إلى النوبة وشرق السودان وراء الذهب! ومن المؤسف بالطبع أن أحدًا منهما لم يسجل رحلته بينما احتفظت الوثائق الروسية بسيرة إيجور كوفاليفسكي المهندس الذي درب المصريين الاثنين وبعثته التي ترأسها إلى أعالي النيل، وتألفت من عالم نباتات وطبيب ورسام معماري وأسطى تعدين وغاسل رمال وضباط مصريين. إيليا داشوري، وعلي محمد أول من جاء إلى روسيا من المصريين، تعلمَا وعاشَا في الأورال حيث تصل درجة البرودة إلى عشرين تحت الصفر! وبعد مائة وثلاثين سنة أقف أنا هنا مختنقًا من الحر!

انتهيت من السندويتش ودخلت إلى دورة المياه، هناك

أخذت أخلع ملابسي وسط دهشة من بالدورة وأعيدها مطوية قطعة فقطعة إلى حقيبتي، خرجت بعد ذلك وأخذت أفتش بعيني عن مقعد شاغر بين أرائك الانتظار مؤهلًا نفسي لجلسة طويلة.

حل عليَّ المساء ثم الليل وأنا جالس أفرد بدني وأجمعه على مقعدين متقابلين، شعرت أن ثمة خطأ في كل ذلك، في بلدي لو قلت يا محمود يرد عليك ألف واحد حتى لو لم يكن محمودًا، أما هنا فازعق وقل ما تشاء، فلن يعيرك أحد أي اهتمام، يومها لم يكن معي من كل الأرقام الهاتفية للاتحاد السوفيتي العظيم سوى رقم وحيد لمراسل صحفي مصري مقيم بموسكو، تلفت حولي فوجدت مظلات بلاستيكية تغطي أجهزة هاتفية، لكن كيف تعمل هذه الأجهزة؟ عام ١٩٧٢ كانت الاتصالات عندنا في مصر إما من المنزل أو من عند البقال، لم يكن قد ظهر لدينا ذلك النوع من التليفونات الذي تسقط فيه عملة نقدية وتتصل، وقفت تحت مظلة هاتف لا أدري كيف أستخدمه إلى أن مرت بالقرب مني شابة جميلة تفوح بالعطر، رجوتها بإنجليزية مكسرة محرجًا من جهلي أن تشرح لي كيفية استخدام الهاتف، نظرت إليَّ بدهشة مهذبة، وبهدوء أخرجت من حقيبتها عملة من فئة الكوبيكين أسقطتها في فتحة وطلبت مني أن أدير القرص بالرقم المطلوب، جربت ذلك وهي واقفة بجواري، وكان ذلك أول اتصال هاتفي أوتوماتيكي في حياتي! وقفنا نحن الاثنان نتطلع لبعضنا بعضًا بانبهار،

أنا مبهور بالاختراع المذهل وهي مبهورة بإنسان لم ير من قبل اختراعًا بسيطًا كهذا!

نجحت في الاتصال بالأخ محمد المصري، لكنني كنت ما إن أنطق باسمي وبأنني في المطار حتى يتحشرج صوت محمد وينقطع الاتصال! كررت المحاولة بفضل كوبيكين آخرين من الفتاة المبهورة فتجددت الحشرجة، نظرت إلى الشابة الجميلة محرجًا من جهلي بالهاتف ومن لغتي الإنجليزية ومن حشرجة المصري، وشكرتها، ابتسمت وانصرفت برشاقة في هالة من سعادة من رأى لتوه عرضًا سحريًا، فوضت أمري لله، وبت ليلتي الأولى في المطار مشدودًا على مقعدين متشبثًا بالحقيبتين أتساءل «ما الذي جاء بي إلى هنا؟».

في الصباح لم أصدق نفسي حين سمعت من الاستعلامات نداءً على اسمي بالإنجليزية، وثبت من مكاني، هرولت وأنا أجرجر الحقيبتين، فوجئت بشاب أسمر يقدم نفسه إليّ على أنه «فلاديمير من منظمة التضامن». عاتبته: «قضيتُ هنا يومًا كاملًا فلم لم تأت بالأمس؟». قال بهدوء: «الأمس كان يوم الأحد العطلة الرسمية في الاتحاد السوفيتي»!

قادني فلاديمير إلى سيارة ركبناها متجهين إلى بيت الطلبة الأجانب بمنطقة بروفسيوزنايا. في الطريق رحت أتطلع إلى الشوارع العريضة مذهولًا، الشارع الواحد منها بعرض ثلاثة شوارع في القاهرة، وصلنا إلى بيت الطلاب واستلمت مكانًا في حجرة مع طالبين آخرين،

أحدهما أفغاني والثاني بحريني، بعد أيام كتبت لوالدي أقول له: «أكتب إليك من المستقبل»! كنت أتخيل أنني وصلت إلى أرض الاشتراكية، وبذلك فإني انتقلت إلى مستقبل العدالة المرجوة؛ حيث لا جوعى، ولا استغلال، ولا تفرقة بين البشر، لكن الواقع أخذ يتكشف عن كونه جزءًا من الحاضر وليس جزءًا من المستقبل.

أقمت في بيت الطلاب الأجانب سنة تحضيرية لدراسة اللغة، بيت قديم من خمسة طوابق، الأول والثاني منها لقاعات الدراسة، الثلاثة الأخرى حجرات نوم ومعيشة الطلاب، لم أكن أعرف كلمة روسية واحدة، لهذا لم أجرؤ على القيام بخطوة واحدة خارج البيت، كان أقصى خروجي أن أقف أمام مدخل البيت أتأمل العابرين، ولم يكن ثمة مصري آخر غيري وسط بحر من الطلاب العرب والفرنسيين والكوبيين وغيرهم، لهذا كان زملائي العرب كلهم يعرفونني بالمصري، المصري راح، المصري جاء، وانتهى. بمرور أكثر من شهرين استغربت من أنني وصلت إلى روسيا لكني لم أتخط حدود بيت من خمسة طوابق! خطر لي أنني سافرت إلى بيت وليس إلى روسيا! لم أكن أعرف أحدًا هناك على الإطلاق سوى «محمد» الذي يتحشرج صوته عند اللزوم! فعكفت مهمومًا على كتب اللغة الروسية إلى أن جاءني ذات يوم شاب فلسطيني اسمه وليد كان يدرس معنا وقال لي: «يا رجل، حرام عليك شهرين ما خرجت من البيت؟. أنا أخي في روسيا منذ عامين. وقد جاءني

عدة مرات واصطحبني لجامعة باتريس لومومبا وأنا أعرف الطريق والمواصلات جيدًا، تعال معي نقوم بزيارته، ويبقى اسمك خرجت تتهوى شوية». اشترطت لأخرج معه أن نأخذ عنوان المسكن من المناوبة الروسية الموجودة في مدخل البيت لنتمكن من العودة إن حدث شيء، سجلت لنا المرأة الطيبة العنوان ودسه وليد في جيبه وانطلقنا، خرجت إلى شوارع موسكو للمرة الأولى وأنا سعيد بوجوه الناس من حولي، ركبنا ترمواي، وهبطنا، وسرنا قليلًا حتى محطة تروللي باص، جاء التروللي وركب وليد وقبل أن ألحق بالركوب كان باب التروللي قد انغلق أمامي! هتفت مذعورًا «العنوان يا وليد»! الفكرة المنطقية التي خطرت لي أن أركب التروللي باص التالي بأمل أن وليد سينتظرني في المحطة القادمة، هكذا فعلت، وقفت بجوار السائق أتطلع إلى وجه وليد ملتصقًا بالزجاج الخلفي للسيارة التي أمامي ينظر نحوي، قلت لنفسي: المحطة القادمة نلتقي. لكن التروللي الأمامي فجاة انحرف يمينا وانعطف التروللي الذي أنا بداخله يسارًا، ومضى كل منهما بعيدًا في اتجاه مختلف!

هبطت عند أول محطة وظللت واقفًا، أمطرت عليَّ ساعتين، وأنا كلما دنا أحد من المحطة أسأله «الأخ عربي؟». بمعجزة ظهر شاب لبناني، شرحت له أنني تائه. قال: «بسيطة أوصلك، أين تسكن؟» قلت: «العنوان مع وليد»! كان طيبًا إلى درجة أنه اصطحبني في

تاكسي وظل يدور به على كل بيوت الطلاب الأجانب لأنتقي من بينها بالشبه مسكني! صعدت إلى حجرتي مبللًا مرهقًا. فتحت الباب ورأيت وليد جالسًا على طرف سريره وجهه بين كفيه مثل فأر مذنب. قلت له: «مش قلت لك؟». نهض ودق كفًّا بكف وقال بذهول: «لا.. بس هاي والله عجيبة. عمرها ما حصلت معي يا زلمى»!

في كل الأحوال ذلك كان خروجي الأول من بيت في روسيا بخمسة طوابق إلى روسيا، بعدها عرفت الطرق وانفتحت أمامي حياة أخرى كاملة، تعرفت خلالها شيئًا فشيئًا إلى الإنسان الروسي الذي يتصوره الكثيرون على غير حقيقته متجهمًا صارمًا.

***

الروسي المتجهم!

الفكرة السائدة لدينا عن الإنسان الروسي أنه جهم عابس لا يستجيب للمزاح والنكتة، هذا هو الانطباع الذي يتركه الإنسان الروسي من الوهلة الأولى، وإذا كنا نردد أن حياة الصحراء القاسية أضفت على العرب خشونة، فإن حياة الصقيع والجليد أضفت على الروس شيئًا مماثلًا، لكن تحت الجليد الروسي الظاهر ثمة روحًا عاطفية حارة محبة للمزاح، وكل ما يحتاجه المرء هو اختراق المظهر الجليدي للوصول إلى الروح الحارة، مثلما يفعل الروس أنفسهم حين يتجه بعضهم إلى نهر الفولجا في الشتاء القارس ويقوم بثقب السطح الجليدي للنهر بمقدار يسمح له بتغطيس جسمه في الماء بينما يظل رأسه مرفوعا في الهواء، تحت الجليد تجري مياه دافئة، كما تجري خلف مظهر الروسي المتجهم روح عاطفية تهوى الأنس والفكاهة إلى أقصى درجة.

والروس أصحاب نكتة، وهي نكتة لاذعة ومفكرة، والكلمة العربية «نكتة» تتضمن جزءًا من نطق الكلمة ذاتها باللغة الروسية «анекдот» أو العكس، والأدب الروسي حافل منذ بداياته بروح السخرية الأصيلة بدءًا من نيقولاي جوجول وقصصه ومسرحياته العظيمة؛ مثل المفتش العام مرورًا بأنطون تشيخوف وميخائيل زوشنكا وغيرهم. وقد ضحك الجمهور المصري مع مسرحية «المفتش العام» لجوجول حين قدمها

إسماعيل يس معربة عام ١٩٥٥، ثم عبد المنعم مدبولي بعد ذلك في الستينات مع بداية البث التلفزيوني، والنكتة عندهم تشتبك في الأغلب الأعم بفكرة أبعد من القهقهة، وتتصل بقضايا الثقافة والعلم والفن والفلسفة، وكثيرًا ما تستمد النكتة عندهم شخصياتها من الأدب وأحداثه، من الفرسان الثلاثة لألكسندر دوماس الأب، أو عطيل شكسبير، أو آنا كارنينا لتولستوي، وأحيانًا من مواضيع الأساطير الشعبية، ويأتي الكثير من النكات في شكل قصيدة شعرية محكمة الوزن مما يدل على علاقة الناس الوثيقة بالأدب والشعر، ومن ذلك تلك النكتة التي تتناول قصيدة شهيرة للشاعر أندريه فوزنيسنسكي ويقول فيها: «ذات يوم عاش فنان فقير.. باع بيته واشترى بثمنه لمحبوبته مليون زهرة حمراء». وتأتي النكتة على هيئة سؤال: «إذا كان الفنان قد اشترى لمحبوبته وردًا بسعر دولار للوردة، فكم يكون سعر البيت الذي باعه علمًا بأنه اشترى لها مليون وردة؟»!

أما جلسات السهر الروسية في المناسبات فإنها تمتد إلى ما شاء الله حافلة بالطعام الذي لا يرفع من على المنضدة، والنكات والذكريات الشخصية والمصارحة الحميمة، وتتدفق في الاحتفالات الروح الروسية الدافئة أشد ما تكون، ويظهر ذلك عند استقبال رأس سنة جديدة؛ إذ يستعد الروس لتلك الليلة قبلها بأسبوع، وقبل حلول الثانية عشرة يخرج الروس إلى الساحات المفتوحة أمام البيوت، وإلى الشوارع الرئيسية،

والميادين، يقفون يتابعون بصيحات الفرح إطلاق الألعاب النارية في السماء، وما أن تدق الساعة معلنة بدء عام جديد حتى ينكسر السطح الجليدي ويتبادل الجميع من دون سابق معرفة التهاني والأمنيات والقبلات ويرقصون ونثار الثلج الفضي يجري في أشعة أعمدة النور، في هذه الليلة التي تحل عادة في الشتاء يقف الناس معًا يشعرون أنهم تحت سماء واحدة في قبضة زمن واحد وأمل واحد تخفق قلوبهم بمصير مشترك، الروح الروسية التي تجري بدفء تحت الجليد تتضح بقوة في علاقة الروس بالطبيعة والحيوانات الأليفة، فهم يتكلمون مع القطط والكلاب والأرانب وتحل عليك الدهشة حين تراهم يحدثونها ويوضحون لها بمختلف الحجج والبراهين الخطأ والصواب في أمر أو آخر! لكن هذه الروح تتجلى أعنف ما تكون في الحب، وليس أدل على ذلك من قصة حب الشاعر الروسي الكبير بوشكين وعشقه لناتاليا الذي تسبب في إنهاء حياته مبكرًا، وكانت ناتاليا واحدة من أجمل فتيات مدينة بطرسبورج، أحبها بوشكين واقترن بها عام ١٨٣٢وهو شاب في الثالثة والثلاثين، وكانت شهرته قد أطبقت الآفاق بعد أن أجج شعلة الحرية في ظلام العهد القيصري، ووجد القيصر نيقولاي - الذي لم يفلح في كسر قلم الشاعر بنفيه إلى الجنوب – وسيلة أخرى للتخلص من بوشكين، فأوحى إلى ضابط فرنسي يدعى «جورج دانتيس» بملاحقة ناتاليا ومغازلتها في حفلات

المجتمع الأرستقراطي ليثير غيرة بوشكين ويستفزه، ونجحت المؤامرة الصغيرة في إثارة دماء الشاعر الحارة، فدعا الضابط الفرنسي في ٢٧ يناير ١٨٣٧ إلى مبارزة انتهت كما توقع القيصر بإصابة بوشكين إصابة قاتلة توفى بعدها واسم ناتاليا على شفتيه وفي قلبه.

برحيل الشاعر تحولت قصة العشق والغيرة إلى أسطورة وأغنيات عن الحب حتى الموت يترنم بها العشاق إلى يومنا، وإذا كان الروسي مستعدًا للموت من أجل من يحب، فإن المرأة الروسية بدورها قد أظهرت تلك الروح العاطفية الحارة الكامنة تحت الجليد حين تبعت النساء الروسيات أزواجهن إلى منافي سيبيريا بعد انتفاضة النبلاء والضباط في ديسمبر ١٨٢٥، وبقين مع أزواجهن هناك في أشق الظروف، وقد تغنى الشاعر الروسي المعروف نيقولاي نكراسوف بمحبة وبطولة المرأة الروسية في قصيدته «النساء الروسيات». وفي عام ٢٠٠٨ أقيم نصب تذكاري في مدينة توبولسك بسيبيريا تخليدًا لذكرى النساء الوفيات، ويحفل الأدب الروسي بقصص الحب التي تشير إلى طبيعة ذلك الشعب الحارة التي تتدفق تحت قشرة رقيقة من الجليد، يكفي أن أذكر هنا رائعة تورجنيف «آسيا» وقصصًا أخرى كثيرة يموت فيها أبطالها بحثًا عن الحب، أو دفاعًا عنه، أو شوقًا إليه.

الشتاء الروسي يكسو ببياض الثلوج الشاهق كل شيء؛ الشوارع، قمم الأشجار، الأرائك في الحدائق، سقوف

السيارات، معاطف المارة، وتتطاير ندف الثلج الرقيقة في ضوء أعمدة النور كأنها تنهد ملائكي. هذا المشهد بدا لي، وما زال، مثل لحظة من حكاية أسطورية تصادف أنني انزلقت إلى صفحاتها، هذا الشتاء كان دومًا يذكرني بحكاية الإمبراطورة آنا إيوانوفنا عام ١٧٤٠ حين استدعت إليها أعظم مهندس معماري في بطرسبورج وهو «بروببكين» ليبني لها قصرًا حقيقيًا ضخمًا كله من الجليد! بناه المهندس بالفعل، أقام الحجرات كلها من الجليد: حجرات النوم والطعام والضيوف والحمام، كل قطع الأثاث والأرائك والمناضد. على المناضد تراصت أوان مطلية وبداخلها طعام جليدي. المرايا المصقولة والساعات فوق مواقد التدفئة والحطب الذي بداخل المواقد كله من الجليد. حول القصر امتدت حديقة بأسوار جليدية ارتفعت فيها أشجار جليدية جلست على فروعها طيور جليدية. أمام القصر المعجزة انتصبت مدافع من الجليد تطلق لهبًا كأنما من البارود! أدهشت الإمبراطورة عصرها بالقصر الأعجوبة الذي تدفق الناس لرؤيته قبل أن يذوب بحلول الربيع والدفء. ذاب القصر، لكن الطبيعة الروسية كانت تعيد بناءه كل عام، وتهمس بالأسطورة من جديد في آذان المارة بشوارع موسكو.

في يوم شتوي من تلك الأيام، بعد ثلاث سنوات من وجودي في روسيا، كنت أقطع شارعًا رئيسيًا قاصدًا محل كتب، فاستوقفني عند إحدى دور العرض

«أفيش» عن فيلم أدهشني بصورة ضخمة لفاتن حمامة وعماد حمدي. الفيلم كان «بين الأطلال» الذي أخرجه عز الدين ذو الفقار عام ١٩٥٩. في البداية شعرت بالزهو؛ لأن لدينا أفلامًا تعرض في أوروبا، بعد ذلك حل عليَّ الحنين إلى مصر. دخلت السينما وأنا أتوقع أن أرى عددًا قليلًا من المشاهدين. لكن الصالة كانت ممتلئة عن آخرها بالمتفرجين الروس ذوي المظهر المتحفظ الجليدي، أظلمت الصالة وبدأ العرض، بعد نصف الساعة من تعاقب أحداث الفيلم الرومانسية الحزينة أخذت تعلو من هنا وهناك زفرات حرى، وبعد قليل سمعت القاعة كلها تجهش بصوت واحد بالبكاء والرءوس تتأرجح في العتمة بتأثر وصوت النهنهات يعلو على صوت عماد حمدي وهو يهتف من الشاشة لفاتن «اذكريني»!

تلك كانت المرة الأولى التي تغمرني فيها روح الدفء التي يخفيها الروسي بخجل تحت مظهر عابس!

***

رسائل جندي أمريكي

قلت إن روح السخرية والمزاح سمة أصيلة في الإنسان الروسي خلافًا لما يبدو عليه لأول وهلة، وأن تاريخ الأدب الروسي منذ بدايته يكشف ذلك الملمح بوضوح، وأود هنا أن أقدم للقارئ من ترجمتي قطعة أدبية سياسية ساخرة، ليست من كلاسيكيات الأدب الروسي، لكنها عمل حديث يسخر فيه «ميخائيل زادورنوف» الكاتب المعروف من جهل الجنود الأمريكيين الذين ساقتهم الإدارة الأمريكية لاحتلال العراق، جهل يجسد المفارقة، المضحكة وربما المأساوية أيضًا، المتجسدة في جنود يحاربون ولا يعرفون هدفًا لحربهم وأحيانًا لا يعرفون أين يقاتلون ومن يقتلون، وسيجد القارئ في هذا النص - إلى جانب متعة الأدب الساخر- موقف الشعب الروسي من الغزو البربري للعراق، الكاتب «ميخائيل زادورنوف» أحد أشهر كتاب روسيا، النص من كتابه المسمى «عالم مجنون مجنون» الذي صدر في موسكو عام ٢٠٠٥، وقد اختار له الكاتب شكل الرسائل التي يبعث بها أحد الجنود الأمريكيين إلى زوجته.

-١-

أيتها العزيزة، اليوم عندنا في القاعدة العسكرية عيد، سنطير إلى العراق عمًا قريب، هذه بلد بعيدة جدًا، الزملاء يقولون إنها أبعد من المكسيك، وقد نبهتنا

القيادة إلى أن الحرب ستكون صعبة جدًا لأن الحرارة هناك كما يقولون مرتفعة للغاية، وقد أكد لنا السرجانت أن العراق توجد في جنوب إفريقيا، بينما يجزم العقيد الذي كان مدرسًا للجغرافيا فيما سبق أن كلام السرجانت غير صحيح، وأن العراق يقع في شمال الهند. وقد توجه إلينا الرئيس الأمريكي بخطاب صباح اليوم، ووضح لنا أن القائد العراقي صدام حسين لا يريد أن يتقاسم معنا نفط بلاده، وأن معنى ذلك أن الرئيس العراقي ضد الديمقراطية، والآن فإن واجب أمريكا الأساسي إدخال الديمقراطية إلى العراق، بما أننا- نحن الشعب الأمريكي- الموزع المعتمد للديمقراطية في العالم، وقد أشار العقيد إلى أن رئيسنا الأمريكي زعيم جريء حقًا؛ لأنه استجمع شجاعته وقرر إعلان الحرب على بلد أصغر من بلده بعشرين مرة، أيتها العزيزة .. نحن جميعًا واثقون من النصر السريع؛ لأن لدينا رئيسًا مباركًا، ولدينا أحدث الأسلحة بما في ذلك «البامبرز» المضادة للمشاة وألغام بطعم تفاح الغابات، لكن هناك شيئًا لا أستطيع أن أعرفه: كيف يمكن أن ننطق الاسم صحيحًا: أهو عراق؟ أم عيران؟

هناك خبر آخر جميل لكِ، بدءًا من الآن سيكون في وسعك مشاهدتي في أوقات كثيرة على شاشة التلفزيون الذي سينقل المعركة على الهواء مباشرة فترات الاستراحة ما بين عرض مسلسل «الموت بفرشاة الأسنان» والبرنامج الاستعراضي «تأثير العواصف

الشمسية على غشاء الذكورة لدى ضفادع كاليفورنيا».

أيتها العزيزة .. لا تقلقي عليّ، لقد أخذت معي كريم لحماية بشرتي من أشعة الشمس.

-٢-

تحياتي أيتها العزيزة، لقد وصلنا إلى العراق، بالفعل الجو حار جدًا هنا، وحكمًا بما نراه من حولنا فإن هذه البلد ليست الهند؛ لأن السكان هنا لا يشبهون الهنود على الإطلاق، المهم أن العقيد أكد لنا أن النطق الصحيح لاسم هذا البلد هو «عراق»، أما «إيران» فقد اتضح أنه اسم مواد مشعة «إيران – ٢٣٨». وأعلن لنا السرجانت أن المعارك الحربية ستبدأ غدًا حسب ما تناهى لسمعه من محطات الإذاعة، قال أيضًا إن الإنجليز والبولنديين والإسبان سيحاربون هم أيضًا .. لكنه لم يوضح مع من سيحاربون، إلا أن القيادة أفزعتنا حين أخبرتنا أن ثمن الحرب سيكون باهظًا، وعلى سبيل المثال ستكون الخنادق خالية من أجهزة التكييف والحمامات، لكننا نحن الأمريكيون أبطال نتحمل كل شيء، حتى لو لم يوزعوا علينا الكوكاكولا المثلجة أثناء المعارك.

-٣-

اليوم قمنا– لأول مرة– بشغل مواقعنا، تبين لنا أن أولئك العراقيين متوحشون فعلًا، فقد أطلقوا أول أمس

نيرانهم على طائرة مسالمة تابعة لنا كانت تقصف مدنهم، وقد أنذرتنا القيادة بعدم وقوع أي منا في الأسر؛ لأن العراقيين يعذبون العسكريين الأمريكيين ويحرمونهم من «الفشار» بل ولا يسمحون لهم بوضع ساق على ساق على المناضد، إلا أن الأمر المرعب حقًّا هو تلك الأقنعة الواقية من الغازات السامة التي تم توزيعها علينا، فقد صُنعت في أوكرانيا، وتنبعث منها طيلة الوقت رائحة ثوم وشحم حيوانات، ولهذا قررنا أن استنشاق الغازات السامة أرحم من وضع تلك الأقنعة على وجوهنا. لكننا على أية حال نشعر بأنفسنا أبطالًا. بلغي ابني أن «والده سيعود إليه حيًا ما لم يرغموني على وضع ذلك القناع على وجهي».

-٤-

أيتها العزيزة.. مع كل يوم يمر يصبح الوضع أصعب فأصعب، مر علينا الآن شهر بكامله ونحن نستنشق رائحة الثوم، ونشعر أن ثمة فيلقًا من أوكرانيا بجوارنا في مكان ما، وإذا لم تبدل الرياح وجهتها في الأيام القادمة فإن نهايتنا ستكون سريعة! ولقد تبين لنا أن العراقيين برابرة بكل معنى الكلمة، إنهم لا يعرفون أننا الأقوى في العالم ومن ثم يواصلون هجماتهم دون توقف! أما أجهزة الليزر التي نصوب بها على الأهداف فإنها لا تعمل. نعم. فقد اتضح أن أولئك المتوحشين ليس عندهم حتى تلسكوب لنتعقبه بالليزر! الأسبوع الماضي جاءتنا طائرات مروحية حديثة تحلق على

مستوى منخفض بحيث لا يستطيع أحد رصدها، لكن فلاحًا عراقيًا عطلته إحدى تلك الطائرات فأسقطها بفأس قديمة، وقد رفع البنتاجون ضده قضية لاستخدامه سلاحًا لم تقره الأمم المتحدة.

-٥-

عزيزتي.. اليوم هو أصعب الأيام التي مرت بنا، لقد تاهت منا مكنة الفشار المتحركة في مكان ما، وكذلك مطبخ «ماكدونالد» الذي يرافق جنودنا، كذلك توقفت دباباتنا عن التقدم لأن إشارة المرور عند حدود بغداد كانت حمراء، فيما بعد تبين لنا أن إشارات المرور كلها عند أولئك العراقيين المتوحشين لا تعمل أصلًا، بينما مكثنا واقفين بدباباتنا أمام الإشارة حتى دخل علينا الليل، وأكد لنا السرجانت بعد ذلك أنه لو لم يكن هناك عراقيون لانتصرنا عليهم منذ زمن بعيد، وأعتقد أنه محق.

وقد طلب الصحفيون منا عند دخولنا بغداد أن نغرقها في النابالم لكي يتوفر لهم الضوء الكافي لالتقاط الصور، كما نبهت القيادة علينا بعدم قصف شمال بغداد لأن هناك مجموعة من هوليود تصور فيلمًا جنسيًا عن اعتقال صدام حسين باسم «غرام مع صدام في مدينة الأحلام». للقيام بدور صدام حسين رشحوا في البداية عدة أسماء: أولها النجم العالمي أرنولد شفيزنيجر، وتوم كروز، أو جوليا روبرتس، لكن لأن أجور أولئك النجوم كانت مرتفعة للغاية فقد وافق صدام حسين ذاته على

القيام بالدور!

عزيزتي.. شَعَر بالقنوط لأن الحرب توشك على الانتهاء وأنا لم أظهر على شاشة التلفزيون ولا لمرة واحدة؛ لذلك أخذت أرفع ذراعيي الاثنتين عاليًا وألوح بهما أمام الكاميرات لعل وعسى، وأخيرًا انتبه المصورون لوجودي وظهرت صورتي على الشاشة مصحوبة بتعليق يقول: «الجنود الأمريكيون يستسلمون ببطولة عند مشارف بغداد». لك الحمد يا إلهي! أصبحت نجمًا تلفزيونيًا أخيرًا.

-٦-

حبيبتي.. اقتربنا من مشارف بغداد. صادفنا في طريقنا أشجارًا جرداء كثيرة التوت فروعها وجفت أوراقها، ورأينا طيورًا عديدة، وحشرات، وثعابين ميتة، إذن فقد مرت الفرقة العسكرية الأوكرانية من هنا! أنقذتنا بمرورها لأن القوات العراقية لم تتحمل رائحة البصل الأوكراني وهربت كلها تاركة المدينة خلفها، بعد ذلك دخلت قواتنا الأمريكية البطلة إلى بغداد.

-٧-

عزيزتي الغالية.. أشتاق إليك كثيرًا، يمكنك الآن أن تباركي لنا، لقد استطعنا بفضل ذكاء السيرجانت أن نلقي القبض على أربعة وثلاثين صدام حسين، أي أكثر بأحد

عشرة صدام حسين مما اعتقلته الفرقة العسكرية المجاورة لنا. الأوكرانيون ألقوا القبض فقط على ثمانية صدام حسين كان من بينهم طفلتان وقطة! وقد أرسلت القيادة كل الحسينيين المعتقلين لإجراء فحص «الكود الجيني» لشواربهم. الشئ الجميل أن أحد الحسينيين الذين ألقت فرقتنا القبض عليهم شغل المرتبة الأولى بقرار لجنة التحكيم في المسابقة، بعد أن تأكدت اللجنة أنه «هو». الآن يجمعون المعلومات: من هو؟ المهم أن الرئيس أرسل إلينا برقية تهنئة بانتهاء العمليات بنجاح، وأكد لنا في برقيته أننا دولة محبة للسلام لهذا لا نستطيع أن نترك السلام في حاله! الأرجح أننا عما قريب سننقل هذا «السلام» إلى كوريا الشمالية، وهي على حد قول السرجانت جزيرة تقع في المحيط الهادئ.

ملحوظة: (مساء نفس اليوم) بدأت في بغداد عمليات نهب واسعة النطاق، فقد قام الفيلق الأوكراني بالهجوم علينا فجأة بأقنعته الواقية من الغاز وحاول بمختلف الطرق أن ينتزع منا كل ما نهبناه من العراقيين، اتضح أن الأوكرانيين لا يتلقون رواتبًا مثل بقية الجنود، وأن القيادة عندهم قالت لهم «كل ما ستحصلون عليه في العراق ملك لكم»! لهذا كانت العمليات القتالية بيننا وبينهم من المعارك التي لم تشهد لها الحرب مثيلًا في العنف!

عزيزتي.. أشتاق إليك كثيرًا وأرجوك إذا لم أرجع إليك أن تبلغي ابني أن والده كان أمريكيًا حقيقيًا وموزعًا

بطوليًا للديمقراطية في العالم!

***

العصفور الذي حمى عبد الناصر

رحل عبد الناصر عن عالمنا منذ ثلاث وأربعين سنة، لكن ذكراه لا تفارق قلب مصر، ولا يني صوتُه القوي الشجاع يتردد في أجوائها، ولقد شقت العلاقة بين مصر وروسيا طريقًا عريضًا غير مسبوق سنوات الثورة التي عادت الاستعمار وأشاعت قيم الاستقلال الاقتصادي والسياسي والتحرر الوطني، تفوح ذكرى تلك القيم في شارع وسط موسكو أطلق عليه الروس اسم جمال عبد الناصر.

ومع أن تحولات الأعوام العشرين الأخيرة في روسيا قد غيرت حتى أسماء الشوارع التي أطلق عليها فيما مضى أسماء قادة الثورة، إلا أن اليد التي عصفت لم تقترب – لسبب أو لآخر – من شارع عبد الناصر.

وقد قدر الروس جمال عبد الناصر تقديرًا خاصًا، وقدموا لمصر خلال عشرة أعوام من علاقتهم بها أكثر مما أعطوه للصين على مدى ربع القرن، وكانت المرة الوحيدة في تاريخ الاتحاد السوفيتي التي اجتمع فيها المكتب السياسي خلال أربع وعشرين ساعة عندما قام عبد الناصر بزيارته السرية إلى موسكو في ٢٢ يناير ١٩٧٠، عندما طلب نقل صواريخ سام – ٣ مع خبراء لتدريب المصريين عليها. وكان معنى الموافقة على طلبه أن السوفيت يتدخلون بأنفسهم وبشكل عسكري مباشر في الصراع في الشرق الأوسط بكل ما يعقب

ذلك من تبعات دولية.

كان لشخصية جمال عبد الناصر أثرها في اتخاذ تلك القرارات الاستثنائية، علاوة على الشعور بأنه زعيم ذو شعبية جارفة، وبأن الثورة على حد قول المؤرخ الروسي كوفتونوفيتش: «ليست إحدى الهزات الاجتماعية الضخمة، بل إحدى أهم أحداث القرن العشرين، وإحدى أهم حلقات الثورة الوطنية المصرية». وقد انتزع عبد الناصر من الروس هذا الاحترام الكبير بالرغم من خلافاته الفكرية الواضحة معهم. وفي حينه – عندما أثار السادات الأتربة لتلطيخ سمعة عبد الناصر - أدلى رجال المخابرات السوفيتية بتصريح واضح أكدوا فيه أن عبد الناصر لم يكن له أي حساب سري في أي من بنوك العالم، وأن نزاهته فوق كل الشبهات، ومؤخرًا سجل رجل المخابرات المعروف فاديم كيربتشنكو ذكرياته عن مصر وعن عبد الناصر والسادات في كتابه «المخابرات، وجوه وشخصيات» وفيه يقول الكاتب – وأنا أنقل كلماته بالنص من الأصل الروسي:

«لقد كتبوا الكثير عن عبد الناصر، وسوف يكتبون الكثير عنه، لقد برز عبد الناصر كزعيم سياسي وثوري بالضبط في الوقت الذي كانت فيه مصر والعالم العربي وإفريقيا بحاجة إلى مثل هذه الشخصية القادرة على قيادة النضال ضد الاستعمار والإقطاع والنظم الملكية المتعفنة، كان عبد الناصر الرجل المنشود في اللحظة المناسبة، بفضله تطورت العلاقات المصرية السوفيتية

على صعيدي الصداقة والمنفعة المتبادلة، ثم تطورت بعد ذلك علاقات الاتحاد السوفيتي بالعالم العربي كله، وهنا لابد من الإشارة إلى أن العلاقات السوفيتية - العربية كانت لسنوات طويلة عنصرًا مهمًا في مجمل السياسة الدولية.

والحق أن شخصية عبد الناصر بحد ذاتها كانت تثير اهتمامي الكبير: وحاولت دائمًا أن أعرف عنه أقصى ما أستطيع، ولعل عبد الناصر كان أحد آخر الثوار الرومانسيين في السياسة، فقد كان يقدر دائمًا محدثيه الجديرين بالاحترام، ويلتزم بكلمته، ويؤمن بالمستقبل السعيد لشعبه. وخلال سنوات عملي الطويلة في مصر - عشرة أعوام على فترتين - كان عليَّ أن أوقع الكثير من البرقيات والتقارير المرسلة إلى موسكو، وكان جمال عبد الناصر موضوعها الرئيسي، وحتى عندما غادر عبد الناصر عالمنا وأصبح السادات رئيسًا لمصر كنت وأنا أقيم سياسة السادات أعود إلى شخصية عبد الناصر وأقارن بشكل دائم بين هاتين الشخصيتين.

وقد لا يكون من المفيد هنا في مجال ذكرياتي الشخصية أن أتعمق في مسألة من نوع الأهمية السياسية لعبد الناصر؛ لأنني لن أقدم أية مفاجأة جديدة، كل ما في الأمر أنني أريد أن أكرس عدة صفحات لملاحظاتي الخاصة التي ظلت عالقة في ذاكرتي لكي يستطيع القارئ أن يتخيل عبد الناصر ليس فقط كقائد وزعيم، لكن كإنسان من لحم ودم.

كنا- لسنوات طويلة خلال عملنا الحزبي والرسمي – حين نريد التأكيد على الأهمية الخاصة لشخص ما نكتب: «إن المصالح الاجتماعية لديه تعلو على المصالح الذاتية». ولعل هذه العبارة البيروقراطية التي تشبه الأكليشيه هي أكثر العبارات التي تنطبق على عبد الناصر، فقد وعي مبكرًا أهميته كقائد سياسي، وأخضع نفسه بالكامل لخدمة مصر وحركة التحرر الوطني، وتمتع باحترام هائل في العالم العربي بأكمله، وأحبه العرب من صميم قلوبهم وافتخروا به؛ لأنه كان يجسد بالنسبة لهم الأمل في مستقبل أفضل. كانت صورة ناصر معلقة في كل أقطار العالم العربي داخل البيوت وعلى جدران المقاهي والأكشاك في الشوارع، اللهم إلا إذا كانت صورة ناصر تهدد من يعلقها بالملاحقة والاعتقال، وقد أدهشني شخصيًا ذلك الكم الهائل من صور عبد الناصر في المملكة الليبية حينذاك، وأيضًا مشاعر التقدير والإعجاب به التي كان أصحابها يعربون عنها بقوة، كنت قد قضيت عدة أيام في ليبيا في نوفمبر عام ١٩٦٣، ووجدت أن كل كشك في سوق طرابلس يضع صورة كبيرة ملونة لعبد الناصر، وعلى مقربة من صورة ناصر صورة صغيرة غير ملونة للملك إدريس السنوسي، ولابد أن الملك كان على علم بذلك بطبيعة الحال.

لم يكن عبد الناصر يعبأ على الإطلاق براحته الشخصية أو باقتناء الأشياء، وعلى وجه الخصوص لم

يكن يهتم باكتناز المدخرات، وعاش فقط على انشغال وحيد بالقضايا الفكرية والسياسية، هذه الصفات كانت واضحة في منزل عبد الناصر، فقد قضى حياته بالمنطقة العسكرية في العباسية في نفس المنزل الذي عاش فيه حين كان مجرد بكباشي، فيما بعد لم يدخل سوى بعض الإصلاحات البسيطة على البيت نفسه.

لم ينساق عبد الناصر لإغراء ترقية نفسه كرجل عسكري، وهو الأمر الذي فعله تقريبًا كافة الحكام من القادة العسكريين، لنأخذ على سبيل المثال الرئيس أنور السادات – فقد اخترع لنفسه مختلف الشرائط التي تميزه عن العسكريين، واخترع لنفسه زيًا خاصًا به كقائد عام أعلى، بل ومنح نفسه لقب «الحاكم العسكري الأعلى». كان السادات يغطي - بمختلف الشارات الملونة - قبعته وكتفيه وصدره وعروات أزرار الجاكتات والأوشحة الممتدة من كتفيه حتى إن عيون الناظرين إليه كانت تتموج من الوميض الذي ترسله كل تلك الزينة. بالمناسبة، فإن هذا الزي الرسمي للسادات هو الذي أصبح فيما بعد هدفًا مناسبًا جدًا للرصاص الذي انطلق وصرعه في ٦ أكتوبر ١٩٨١ أثناء الاستعراض العسكري في الذكرى الثامنة لحرب أكتوبر.

وقد شاعت في وسائل الإعلام الغربية قصص لم تحدث أبدًا عن حياة عبد الناصر الشخصية، ظهرت مقالات دورية عن تحويل عبد الناصر أموال (يفترض طبعًا أن ذلك تم بطرق غير شرعية) إلى حسابات سرية

في بنوك سويسرية، في الواقع، فإن طريقة حياة عبد الناصر المتواضعة كانت تنفي تلك الادعاءات حتى إن مثل تلك الأنباء والإشاعات كانت تتبخر واحدة بعد الأخرى من تلقاء نفسها بحيث لم يبق منها شيء في نهاية المطاف، بعد وفاة عبد الناصر اتضح أن حسابه الشخصي لم يكن يحتوى إلا على ستمائة جنيه مصري فقط لا غير.

خلال زيارة عبد الناصر الأولى للاتحاد السوفيتي في أبريل – مايو عام ١٩٥٨ وجه نيكيتا خروتشوف قائد الاتحاد السوفيتي حينذاك سؤالًا إلى عبد الناصر: «كيف تقضي أوقات فراغك؟». أجابه عبد الناصر: «في ساعات الفراغ القليلة أمارس التصوير السينمائي». ثم دار نقاش حول هذا الموضوع وقال خروتشوف خلال ذلك: إن أفلام التصوير السينمائية الملونة تبدو أجمل بكثير من أفلام «الأبيض والأسود». حينئذ قال عبد الناصر: «إن أفلام التصوير الملونة غالية الثمن»! المهم أن عبد الناصر نطق بتلك العبارة بشكل طبيعي تمامًا وبدون أي افتعال أو تصنع، قالها ببساطة كمجرد إقرار بواقع نظام حياته اليومي.

جدير بالذكر - عند الحديث عن تواضع عبد الناصر الأصيل – ذلك الجانب الذي يخص علاقته بأمنه الشخصي؛ على سبيل المثال فقد كانت تحيط به حلقة كبيرة من الحراس عندما كان يقطع شوارع القاهرة بسيارته، ولم يكن الأمر يتجاوز تلك الحراسة البسيطة،

لم تكن هناك أية إجراءات أخرى لحماية عبد الناصر، الغريب في الأمر أن عبد الناصر نفسه لم يكن من النوع الذي يستشعر المخاوف والشكوك المبالغ فيها، ويمكنني شخصيًا أن أشهد بذلك على أساس حقائق محددة، على سبيل المثال فقد طلب مني عام ١٩٥٦ أحد المحيطين بعبد الناصر إرسال اختصاصيين إلى القاهرة للتشاور معهم لتنظيم حماية أكثر أمنًا للزعيم المصري، وافقنا على ذلك الطلب على الفور، وسرعان ما وصل إلى القاهرة مسئولان كبيران من المخابرات السوفيتية «ك . جي . بي». ودعانا عبد الناصر في بيته على الغداء، وفي جو منزلي دافئ للغاية أعرب عبد الناصر عن بعض أمنياته منها أن تستفيد الأجهزة المصرية من خبرتنا لتنظيم حراسة الرئيس.

كانت دعوة المسئولَين الكبيرين من المخابرات السوفيتية إلى القاهرة مرتبطة بالمعلومات التي جمعتها الأجهزة المصرية – عشية العدوان الثلاثي - عن خطط متآمرين من الداخل والخارج لاغتيال عبد الناصر.

أجرينا مناقشات عديدة مع المختصين بحماية عبد الناصر خلال وجوده في المظاهرات والاجتماعات وخلال حركة سيارته في الشوارع، وخلال قيامه برحلات إلى خارج مصر، وأثناء تواجده في بيته، وتأكدنا بعد ذلك من أنه – خلافًا لحلقة الحراس- لا توجد أية إجراءات أمنية من أي نوع لحماية الرئيس!

واتضح أن الطاهي الذي يعد الطعام لعبد الناصر كان

يشترى له الخبز من محل مواجه لبيت الرئيس! أما اللحوم والخضروات فكان يتجه لشرائها من أقرب سوق! لم تكن هناك أيضًا أية رقابة طبية على المواد الغذائية التي تدخل بيت عبد الناصر، كما أن ذلك الموضوع لم يثر أصلًا قلقًا أو اهتمام أحد! لم يكن هناك أي نظام إنذار خاص بمقر الزعيم، أو خاص ببيته، ناقشنا احتمال قيام البعض بنقل مواد مشعة أو سامة إلى مقر أو بيت الرئيس أو قاعة الاجتماعات.

وأراد المسئولون المصريون أن نمدهم بأجهزة خاصة لاكتشاف المواد المشعة أو السامة، ولكن الدهشة حطت عليهم حين نصحهم الجنرال الروسي بأن يضعوا عصفورًا في قفص داخل الغرف والقاعات! وقال لهم: إذا مات العصفور – فإن ذلك يعني أن بقاء الإنسان داخل هذا المكان خطر، ولم يستطع المصريون أن يثقوا في فاعلية هذه الوسيلة، ومن ثم ظلوا يلحون علينا: أليس ثمة وسائل أكثر عصرية من العصفور؟ وظل خبراؤنا يكررون لهم إن هناك أبحاثًا تجرى في ذلك المجال ولكن ليس هناك ما هو أكثر فاعلية من عصفور في قفص!

فيما بعد ظلت حكاية العصفور تتردد طويلًا في مناقشاتنا مع زملائنا المصريين ..

فنقول لهم: هذا جيد. وهذا أيضًا حسن، لكن العصفور أفضل وسيلة حتى الآن!

كان عبد الناصر خطيبًا مفوهًا لا يشق له غبار، وقد ألقى خطابات كثيرة في قاعات وأماكن ممتلئة بالجماهير، فكان الناس ينصتون إليه باهتمام غير طبيعي مسحورين به .. ولابد من ملاحظة أن عبد الناصر كان يتوجه بخطبه إلى الفئات المتعلمة والفئات غير المتعلمة، وكان يأخذ تلك الحقيقة بعين الاعتبار، وكان يكرر خلال خطابه عدة مرات نفس الفكرة، أو حتى نفس العبارة، ولكن بأشكال مختلفة، وبهذه الطريقة تمكن من غرس أفكاره في وعي من يستمعون إليه من مختلف الفئات، وكانت ملابس عبد الناصر بسيطة دائمًا، ولم يكن من هواة الأشياء التي تستخدم كزينة أساسًا مثل محابس أكمام القمصان، أو دبوس رباط العنق، ولكن البدل البسيطة التي كان يرتديها كانت تبدو رائعة على قامته المهيبة، وكان يحلق شعر رأسه قصيرًا، وكان كل شيء فيه يشي بأنه رجل عسكري اعتاد إلى الأبد على عادات الجيش: الملابس المستقيمة، والجسم المفرود.

كان بوسع عبد الناصر نفسه أن يحدد بنظرة واحدة إلى شخص ما إن كان ذلك الشخص قد خدم في الجيش أم لا، كان ذلك بالنسبة لعبد الناصر أمرًا مهمًا، وفي خلال زيارة ناصر الأولى لموسكو اقترب منه مع أحد المسئولين من المخابرات السوفيتية لنأخذ موافقته على موضوع، لكنه بدلًا من الترحيب بنا صاح فينا ضاحكًا: يا جماعة .. خطوتكم واستقامة أجسامكم

عسكرية مائة بالمائة! كان ناصر يمزح معنا بالطبع فقد كان يعلم تمام العلم طبيعة عملنا.

من ملامح عبد الناصر المهمة أيضًا أنه لم يقلد ولم يكن ليقلد أحدًا أبدًا، بالنسبة له لم تكن هناك ضرورة لتقليد الآخرين، فقد كان شخصًا متحدًا مع نفسه بالكامل، جديرًا بأن يقلده الآخرون، هنا مرة أخرى تقفز إلى الذهن مقارنة هذا الزعيم مع أنور السادات، كان الأخير يؤدي طيلة الوقت دورًا ما، وعاش دائمًا في شخصيات أخرى، وصور نفسه إما فيلسوفًا، وإما «أبو العائلة»، وإما سياسيًا داهية، وإما عسكريًا استراتيجيًا لا يبارى، ويعرف الكثيرون في مصر أن السادات كان في شبابه يهوى تقليد هتلر! والسبب في ذلك أن الألمان حينذاك – سنوات الحرب العالمية الثانية – أحرزوا في البداية عدة انتصارات على الإنجليز في إفريقيا، ولهذا انتظر عدد من السياسيين والعسكريين المصريين دخول روميل إلى مصر ليحررها من الاحتلال الإنجليزي. وظل اهتمام السادات لسنوات طويلة مركزًا على شخصيات مثل تشرشل وستالين، حاول السادات أيضًا أن يتقمص تلك الشخصيات بل ودرس سيرة حياتها الذاتية وخاصة الطريقة التي تصرف بها هذان القائدان، كانت تلاحق السادات رغبة لا تهدأ في أن يلقي خطابًا على الشعب على أن يكون بالحتم خطابًا تاريخيًا لا يتكرر، بحيث يدخل ذلك الخطاب إلى الأبد في ذاكرة الأمة، وتكون له أهمية حاسمة في حياة البلاد

السياسية، ولذلك كان السادات يهتم بخطاب ستالين الذي وجهه إلى الشعب في ٣ يوليه ١٩٤١، ووفقًا لرأي عدد من المؤرخين فإن خطاب ستالين ذلك أدى بدرجة كبيرة لحشد الشعب السوفيتي للتصدي للغزاة الألمان، وكان السادات يتوق لأن يصبح صاحب خطاب تاريخي من هذا النوع، وهو الأمر الذي اعترف به السادات بلسانه للسيد فينوجرادوف سفيرنا في مصر حينذاك، ولكن من الأفضل أن نعود إلى جمال عبد الناصر.

وبالرغم من هيئة عبد الناصر المهيبة والقوة والثقة اللتين تشعان من جسمه وقامته العالية كان من الممكن – إذا طال الحديث معه – أن تلاحظ عليه حالة التوتر والعصبية والإرهاق المزمن المرتبط بقلة ساعات النوم على مدى سنوات طوال، وبالعمل المتصل حتى الإنهاك التام، كانت يداه حين يقوم بمباحثات معقدة ترتجفان على نحو عصبي أما أظافره فكانت مقروضة حتى اللحم الحي!

حينما كنت ألتقي بعبد الناصر بعد فترة طويلة من الانقطاع عن رؤيته كنت أشهد بوضوح كيف يأخذه الكبر والعجز بسرعة، وكيف تتزايد الشعيرات البيضاء في رأسه وفَوْدَيهِ، الأهم كان ذلك التغيير الذي يطرأ على نظرة عينيه، كانت عيناه تغدوان شيئًا فشيئًا أكثر حزنًا، أما في السنوات الأخيرة فإن هاتين العينين كانتا تنطقان فقط بنظرة مريرة من الكآبة والشجن، ربما أحبطه الإخفاق، أو انصراف الأصدقاء المقربين عنه، أو

الآثار القاتلة لهزيمة ٦٧.

في فترة عملي الثانية بمصر التي بدأت في ٨ سبتمبر ١٩٧٠ لم تتح لي الفرصة لألتقي بعبد الناصر حيًا، فقد توفي في ٢٨ سبتمبر من نفس السنة، وفي الأول من أكتوبر مضت جنازته التي تجمعت فيها مصر كلها تقريبًا، قد يكون من المناسب هنا استرجاع صورة جنازة السادات التي مضى فيها خلف نعشه مجموعة من الحراس وعدد لا يتجاوز الخمسمائة فرد من المشيعين! وحتى هواة الفرجة من المصريين لم يمضوا خلف جنازة السادات!

حينما مضى موكب المشيعين لعبد الناصر من ميدان التحرير في اتجاه مصر الجديدة تدفق المصريون لتوديعه في طريقه الأخير، وسدوا كل متر من الشوارع بأجسادهم والشرفات وأسطح البيوت، بل وتسلق بعضهم أعمدة الكهرباء، وللقارئ أن يصدق أن البعض كان يجلس فوق سلوك الكهرباء مباشرة! ولا يعرف أحد حتى الآن بالدقة عدد المشيعين الذين ماتوا من شدة الضغط والازدحام وتحت الأقدام، ولكن من المؤكد أن عددهم كان كبيرًا! وقد بدأ التزاحم والضغط الشعبي من هناك حيث اجتمع قادة مصر وضيوفها الأجانب الكبار لتشييع ناصر.

وكان الجو حارًا وخانقًا وباعثًا على القلق في ذلك اليوم، كانت جموع الناس تتدافع نحو المكان الذي سجِّيَ فيه جثمان ناصر في نعش مغطى بعلم مصر،

وبين حين وآخر كان البعض يغشى عليه، في البداية تهاوى علي صبري أقرب أنصار الزعيم الراحل، ثم قرر أنور السادات بدوره أن يغشى عليه لكي لا يجرؤ أحد على اتهامه بأنه عديم الإحساس!

تدافع أيضًا من شدة الزحام رجال الحكم من النخبة المصرية والدبلوماسيين وأعضاء الوفود الأجنبية، وحينما تحرك النعش على عربة تجرها ستة خيول، اندفعت الجموع نحو العربة في بلبلة ولغط، وحوصر قسم من حراسة أليكسي كوسيجين في إحدى مناطق المدينة فلم تستطع الحراسة أن تصل إلى رئيس الوزراء السوفيتي، وكان علينا نحن العاملين بالسفارة وبعض الحراس التابعين لنا أن نحيط كوسيجين بأجسادنا حماية له من طوفان البشر، فيما بعد لاح خطر أن تهرس الجموع رئيسة وزراء سيلون فأدخلناها إلى حلقتنا، ثم طار فوق رءوس المشيعين تقريبًا جسم هيلا سيلاسي آخر إمبراطور لإثيوبيا دون أن يدري أحد كيف تم ذلك!

وقبل أن تبدأ عملية التدافع تلك كنا قد لحقنا بالاقتراب من نعش الزعيم الكبير لنودعه بعد أن أغلق إلى الأبد عينيه المرهقتين والحزينتين.

وسوف أورد قصة واحدة من بين قصص كثيرة راجت بعد موت ناصر لأنها ظلت عالقة في ذاكرتي حتى الآن: بعد شهر واحد من موت عبد الناصر، قال علي صبري خلال حوار مع السفير السوفيتي: «كان بوسع عبد الناصر بحكم هيبته المطلقة أن يوحد الناس من مختلف

المشارب، وأن يجعلهم يعملون معًا، ويتحركون في اتجاه واحد، وقد مات عبد الناصر، وانهار كل شيء»، ومع ذلك فإن الاهتمام بذلك الزعيم الكبير ما زال حيًا، لا ينطفئ، ولا يخمد».

عند هذا الحد تنتهي شهادة فاديم كيربتشنكو رجل المخابرات الروسية عن عبد الناصر الذي كان صورة من عصر تجولت فيه روح جيفارا تؤجج الثورة بين أحراش أمريكا اللاتينية، وفيه ألهب باتريس لومومبا مشاعر الحرية في نفوس شعبه، وكان عبد الناصر أحد ألمع فرسان ذلك الزمن.

رحل المغني، أما الأغنية فما زالت باقية.

***

نحن والآخرون

لك أن تتخيل – كما في الحكايات - شخصًا عاش بمفرده على جزيرة ولم يلتق بكائن بشري آخر قط، ترى ما الذي يعرفه هذا الشخص عن نفسه؟ الإجابة: تقريبًا لا شيء. إنه لا يعرف طاقات الحب والمودة الكامنة في روحه؛ لأنه لم يلتق بامرأة، إنه لا يدرك قدرات القتال بداخله؛ لأنه لم يصارع آدميًا آخر، إنه لا يعي ما تختلج به نفسه من معاني الصداقة والوفاء؛ لأنه لم يصادف صديقًا. نحن نجد ونرى ونفهم أنفسنا عبر الآخرين، نحن نعلم ما حققناه وما تقاعسنا عنه فقط عندما نحتك ببشر وحضارات أخرى. لقد أفاقت مصر الحديثة كلها إلى ذاتها عندما داهمها الاحتلال الفرنسي، فاكتشفت بالآخرين مدى التخلف الذي كانت تعيشه بدون مسرح، وبرلمان وإحصاء بتعداد السكان وجريدة وجيش منظم وعلوم، رأت مصر نفسها في غيرها، لهذا سعى العرب مبكرًا إلى الاتصال بالحضارات والشعوب، ورست أولى السفن العربية في مياه دير بند في داغستان جنوب روسيا في القرن السابع م، ومن هناك انطلق العرب إلى أذربيجان وجورجيا وأرمينيا وبلاد آسيا الوسطى، لكنهم لم يصلوا إلى قلب روسيا. فيما بعد قام الأديب والعالم والشاعر أحمد بن فضلان مبعوث الخليفة العباسي المقتدر بالله في عام ٩٢٢م بأول رحلة عربية موثقة إلى نهر الفولجا، قلب روسيا للتبشير بالإسلام، وكان بصحبته عدد من المترجمين؛ لأنه لم يكن يعرف اللغة

الروسية، وما أن عاد من رحلته حتى سجل وقائعها في كتابه الشهير «رسالة ابن فضلان» ووصف فيه كل ما رآه: ملابس الروس وزينة نسائهم واعتمادهم في حياتهم على التجارة خاصة فراء الحيوانات، واسترعت انتباهه بنية الإنسان الروسي الضخم فكتب يقول: «لم أر أبدانا أتم منهم كأنهم النخيل»!

صار كتاب ابن فضلان أول مصدر عربي معروف يشير إلى روسيا، على الرغم من أنه زار أساسًا منطقة أتراك آسيا الوسطى على الفولجا التي أمست جمهورية تتارية تحتفل حتى الآن بيوم زيارة ابن فضلان لها في ١٢ مايو عام ٩٢٢ م، باعتباره عطلة دينية رسمية.

وكما كانت رسالة ابن فضلان ورحلته أول أثر عربي مكتوب عن روسيا، كانت رحلة الراهب الروسي دانييل وكتابه «حياة وسفر الراهب دانييل من الأراضي الروسية» (١١١٢ م) أول أثر روسي مدون عن مصر والشام، فيه دون الرحالة ملاحظاته على عادات المصريين وأخلاقهم والطبيعة الفريدة في مصر، استوقفته طويلًا التماسيح في النيل، ولم يكن قد رأى قبل ذلك تمساحًا، فوصفها مدهوشًا بقوله: «الحيوان المائي المسمى تمساح رأسه كرأس الضفدعة، عيناه بشريتان، له أربع قوائم كل واحدة تزيد عن الشبر بقليل»!

أواخر القرن العاشر اعتنق الأمير فلاديمير عاهل إمارة كييف الديانة المسيحية عام ٩٨٨ م، فأخذ الحجاج

الروس يتدفقون لزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين مما ضاعف من اهتمام الروس بالمنطقة، وسجلت الملاحم الشعرية الروسية القديمة أخبار أولئك الحجاج الذين كانوا يسافرون في فرق تتألف الواحدة من أربعين فردًا، كانت أسفارهم ضربًا من المغامرات؛ إذ كانوا يقطعون المسافات الشاسعة على ظهور الدواب أو بالسفن الشراعية أو بالقوارب، ومشيًا على الأقدام شهورًا في بلاد لا يعرفون لغة أهاليها ولا طباعهم، في تلك الملاحم يرد ذكر النحاس والذهب والدنانير العربية، وإذا كانت الإشارات المبكرة المكتوبة عن روسيا قليلة فإن ذلك لا يعني أن العرب عرفوا عنها القليل حينذاك، لكن ما تبقى مكتوبًا قليلٌ؛ ففي عام ٩٧٧ م ينوه الرحالة والمؤرخ والجغرافي محمد أبو القاسم بن حوقل في كتابه «صورة الأرض» بمخاطر الوصول إلى بلاد الروس محذرًا من أنهم لا يتهاونون مع الغرباء. في أواخر ذلك القرن يسجل العلامة محمد أحمد المقدسي في كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» أن العرب كانوا يجلبون الكثير من السلع من جنوب روسيا ومنها الجلود والفراء والقلانس والسيوف. أيضًا سنجد الكثير من أخبار الروس لدى مؤرخين مثل ابن الأثير، والطبري في «أخبار الملوك». ويعود الفضل في تعريف الأوساط الروسية بكتاب الطبري «أخبار الملوك» إلى البارون فيكتور رومانوفيتش روزين (١٨٤٩ – ١٩٠٨) أحد رواد الاستشراق الأوائل.

في العصور الوسطى وما قبلها كانت الرحلات والاحتكاك المباشر طريقة التواصل الوحيدة المتاحة للإنسانية لتتعرف إلى بعضها بعضًا وترى نفسها في الآخرين، كان أولئك الرحالة الأوائل مغامرين يتعرضون لشتى أنواع المخاطر بما في ذلك سلب ونهب سفنهم كما حدث في القرن ١٥ حين هاجم القراصنة سفينة الرحالة التاجر الروسي أفانسي نيكيتين خلال رحلته إلى مضيق هرمز ومنه للهند فالخليج العربي، نجا نيكيتين من الهجوم وعاد إلى روسيا ليسجل رحلته في كتابه «رحلة إلى ما وراء البحار الثلاثة» الذي يندرج فيما يعرف بالأدب الجغرافي المشتمل على رسم الخرائط ووصف طباع وعادات السكان والتعريف بالمكان وهو ما قدمه لنا ابن فضلان، والراهب دانييل. في أواسط القرن ١٥ قام التاجر فاسيلي من كييف والكاهن فرسنوفي من سمولينسك برحلة إلى القاهرة وكتب الأول يصف القاهرة حينذاك قائلًا: «إن مدينة القاهرة كبيرة جدًا وفيها ١٤ ألف شارع وفي كل شارع بوابتان وحارسان يشعلان الفوانيس وفي كل شارع سوق كبيرة». تلك الصور كانت من أولى الصور التي شقت طريقها إلى الوعي الروسي.

لكن انتشار الثقافة العربية في روسيا – والإسلامية أساسًا - يعود إلى القرن السابع م؛ لهذا لم يكن مُستغرَبًا أن تصدر ترجمة كاملة للقرآن الكريم إلى الروسية عام ١٧١٦م، وكانت الأولى. فيما بعد ستصبح تلك الثقافة

مصدر إلهام لعظماء الكتاب الروس، ولأمير الشعراء ألكسندر بوشكين الذي كتب عام ١٨٢٤م قصيدة مطولة من تسعة مقاطع بعنوان «قبسات من القرآن»، وكتب «ليال مصرية» ١٨٣٥م، وأشار إلى تأثير الثقافة العربية قائلًا: «العرب هم الذين ألهموا ملاحم العصور الوسطى تلك النشوة الروحية، والرقة، والحب». وفيما بعد يكتب ليرمنتوف قصيدته «غصن من فلسطين»، ولا ينقطع ذلك التأثير.

في مطلع القرن ١٨ كان العالم قد خلع عن كتفيه عباءة القرون الوسطى بتبدل وسائل الاتصال واتساعها، وخطت روسيا خطوة على ذلك الدرب مع النهضة التي قام بها بطرس الأكبر وفتحه الطرق البحرية أمام بلاده عام ١٧٢١م، وقد ساعد ذلك على تطوير علاقات الروس بالشعوب الأخرى، ففي نوفمبر ١٧٨٤م تم تعيين كوندراتي فون طونوس أول قنصل روسي في الإسكندرية في عهد علي بك الكبير. نهضة كتلك بدأتها مصر بوصول محمد علي باشا إلى الحكم عام ١٨٠٥م، والإصلاحات الكبرى التي قام بها، وعندما أخذ محمد علي في توسيع دائرة حدوده قام بغزو السودان عام ١٩٢٠، واجتذبه إلى ذلك – ضمن اعتبارات أخرى- ذهب فازوغلي بجنوب سنار، وهناك عثرت القوات المصرية على رواسب تحتوي على الذهب! وكان الذهب حلم ذلك القرن، لكن الباشا لم يجد طريقة لاستخلاصه من الرمال، إلا أن الذهب ظل يخايله طويلًا، بعدها بسنوات

قام أ. س. نوروف برحلة إلى مصر والنوبة، والتقى خلال رحلته بمحمد علي باشا ووصفه قائلًا:

«اجتذب انتباهي بقوة الرأس الضخم الذي استقر فوق كتفي ذلك الإنسان الشهير وهدوء ملامحه التي نمت عن التواضع، غير أن ابتسامته وعينيه الرماديتين كانتا تومضان تحت حاجبيه الكثيفين وتكشفان عن تحفظ وصلابة وعقل وضاء». وعاد نوروف إلى روسيا ونشر كتابه «رحلاتي بمصر والنوبة ١٨٣٤-١٨٣٥». صورة الذهب المرمي في الرمال بدون أن يتمكن أحد من استخلاصه لم تفارق خيال الباشا؛ لهذا عندما قرر الشيخ عياد الطنطاوي السفر إلى روسيا سنة ١٨٤٠م لتدريس اللغة العربية هناك، استدعاه محمد علي وأوصاه ألا يعلم الآخرين اللغة العربية فقط بل وأن يتعلم هو نفسه اللغة الروسية، ووعده بالرعاية والاهتمام السامي، وكان الشيخ طنطاوي قبل سفره زميلًا وصديقًا لرفاعة رافع الطهطاوي رائد النهضة الثقافية المصرية الحديثة، رغم أن رفاعة كان أكبر من طنطاوي بعشر سنوات.

كانت شهرة الطنطاوي في القاهرة بصفته معلمًا للغة العربية كبيرة داخل الجالية الأوروبية. وتصادف أن كان من بين تلاميذه سياسيان روسيان هما موخين ورودلف فرين. يذكر الطنطاوي في تاريخ حياته أن صداقته بالروسيين تلك كانت «أول دافع لسفره إلى روسيا». استغرقت المكاتبات الرسمية الخاصة بسفر طنطاوي للعمل في مدرسة بطرسبورج الإمبراطورية العليا وقتًا

طويلًا إلى أن رحل عام ١٨٤٠، وأقام في روسيا واستقر في بطرسبورج؛ حيث ظل خمس عشرة سنة متصلة يقوم بتدريس اللغة والأدب العربي، وفي عام ١٨٤٧م ترقى طنطاوي فأصبح أستاذًا في الجامعة، وسنة ١٨٥٢ أهدى إليه ولي عهد القيصر خاتمًا مرصعًا بالجواهر تقديرًا لجهوده، وقد بقيت من حياة الطنطاوي أبحاثه باللغة الروسية وجهده في نشر الثقافة العربية، كما بقيت منه بعض قصائد منها واحدة يعرب فيها عن شكره للقيصر نيقولاي وزوجته ألكساندرا منها قصيدة يقول في مطلعها:

- الله يحفظ قيصرَ والقيصرة

ويُديم عز نيقوله وإسكندره !

وانقطعت صلة الطنطاوي بمصر فلم يزرها إلا مرة واحدة عام ١٨٤٤م، وقد ترك الطنطاوي لنا كتابين هما «وصف بلاد روسيا» و«تحفة الأذكياء بأخبار بلاد روسيا»، سجل لنا فيهما رحلته ومنها ما حدث له بعد أن رست به الباخرة في ميناء أوديسا؛ حيث قضى وقتًا شاهد خلاله الأوبرا الإيطالية مرتين، وكتب يقول إنه لم يكن هناك في المسرح من يضع عمامة على رأسه سواه هو والممثلين على المنصة!

ويكتب المستشرق الكبير كراتشكوفسكي في كتابه «حياة الشيخ الطنطاوي» أن «سفر الشيخ الطنطاوي إلى روسيا كان حدثًا كبيرًا ليس في حياته فحسب، بل

وفي الاستشراق الروسي أيضًا»، فقد تلقى الروس أصول اللغة العربية في عقر دارهم على يدي الطنطاوي الذي ترك أيضًا كتابًا في النحو العربي باللغة الروسية، فساعد بكل ذلك في تطوير الاستشراق الروسي.

في يناير ١٨٦١م أقعد المرض الشيخ الطنطاوي عن العمل والتدريس وتوفي في العام نفسه فدفن في مقابر التتار المسلمين، وظل النصب التذكاري على قبره يحفظ بعضًا من سيرة حياته باللغتين الروسية وبالعربية: «هنا مرقد الشيخ العالم محمد عياد الطنطاوي مدرس اللغة العربية أستاذ جامعة بطرسبورج المحروسة، توفي في ٢٧ أكتوبر سنة ١٨٦١م عن خمسين عامًا». هكذا تركت مصر بعيدًا جدًّا في الصقيع الروسي فلذة دافئة من روحها كانت تنشر بها اللغة والأدب.

بفضل ابن فضلان، ونوروف، وكوفاليفسكي، والشيخ الطنطاوي، وغيرهم من التجار والعلماء والرحالة الجسورين كانت البشرية تشق طريقها إلى بعضها بعضًا، وتتعرف على نفسها، ويؤكد المستشرق الكبير كراتشكوفسكي أنه بفضل التجار العرب والحجاج الروس دخلت إلى اللغة الروسية كلمات عربية كثيرة مثل صندوق، إمام، ياقوت، وغيرها، كما يذكر أن تسمية أجمل شوارع موسكو باسم «أرباط» يعود إلى أن ذلك الشارع كان «مربطًا» لخيول التجار العرب، ومن هنا جاء اسمه «أرباط»!

قبل عامين من سفر الطنطاوي إلى روسيا، تحديدًا

عام ١٨٣٨م، حاول محمد علي باشا أن يعرف إن كانت العلوم لدى روسيا قد توصلت لطريقة لاستخلاص الذهب! فاستدعى إلى قصره المقدم الروسي المهندس إيجور كوفاليفسكي وأهداه علبة نشوق ذهبية بأمل أن يعرف منه شيئًا، وأكد له كوفاليفسكي أن علم التعدين في روسيا قادر على وضع الذهب بين يدي الباشا! وقرر محمد علي أن يرسل مبعوثين مصريين اثنين لدراسة علم التعدين في روسيا وهما: علي محمد وإيليا داشوري اللذان كانا يتقنان اللغة الفرنسية والألمانية، وسافر الاثنان كأول بعثة دراسية مصرية إلى روسيا في أكتوبر ١٨٤٥، وأقاما وراء جبال الأورال في الصقيع الروسي حيث تنخفض الحرارة إلى أكثر من أربعين درجة تحت الصفر! هناك ظل المصريان يتعلمان بصبر ودأب حتى مايو ١٨٤٦، وأثارَا خلال ذلك دهشة الروس وتعجبهم بالبشرة السمراء والملامح الإفريقية والقدرة على تحمل الصقيع! لكن أحدًا منهما لم يسجل رحلته لنقرأ فيها تفاصيل ما جرى. بينما سجل إيجور كوفاليفسكي المهندس الذي درب الاثنين رحلته فيما بعد حين قاد أول بعثة تعدين روسية تصل إلى الإسكندرية في ديسمبر ١٨٤٧، وهي البعثة التي انطلقت بعد ذلك في يناير ١٨٤٨ بالمراكب والجمال إلى أعالي النيل وراء الذهب، وضمت البعثة عالم نباتات وطبيبًا ورسامًا معماريًا وأسطى تعدين وغاسل رمال وعددًا من الضباط المصريين علاوة على المهندسين الشابين: إيليا

داشوري وعلي محمد!

وتأكدت العلاقات المصرية الروسية فيما بعد بإقامة العلاقات الدبلوماسية بين البلدين رسميا عام ٤٧٨١ م في عهد على بك الكبير. وساعد على ذلك أن مصر لم تكن طرفا في حرب ضد روسيا ولا العكس، باستثناء دخول مصر الحرب تحت عباءة الدولة العثمانية. المرة الأولى خلال حرب القرم التركية الروسية ٣٥٨١- ٦٥٨١، وفيها وقفت مصر مع الأتراك بحكم انضوائها تحت الخلافة العثمانية، وبعثت بفيلق مؤلف من خمسة عشر ألف جندي وضابط مصري للدفاع عن ميناء «يفتابوريا». مرة أخرى شاركت مصر في حرب البلقان إلى جانب تركيا ١٨٧٧- ١٨٧٨ بفيلق عسكري مماثل. العجيب في الأمر أن الجنود المصريين الذين وقعوا في الأسر لدى الروس عادوا بعد ذلك يحكون عن الأماكن الغريبة التي شاهدوها في روسيا الشاسعة، وعن طباع الروس الذين عاملوهم برفق، ويرصد المستشرق الروسي أ. ف. يليسييف في كتابه «حول العالم» أثر تلك الحكايات قائلًا: إنه «فيما بعد حينما قصفت القوات الإنجليزية مدينة الإسكندرية في ١٨٨٢م هاج الناس في الشوارع وصاروا يضربون كل أوروبي يصادفونه، حينذاك كانت ثمة عبارة واحدة فقط تكفي لإنقاذ الأوروربي وهي «أنا موسكوفي» أي أنا من موسكو!

أواخر القرن ١٩ انتعشت العلاقات بين البلدين بعد تشغيل قناة السويس في ١٨٦٩ وإنشاء أول خط ملاحي

مباشر بين الإسكندرية وأوديسا، ثم توقفت العلاقات مدة طويلة بعد قيام الثورة الاشتراكية في روسيا ١٩١٧، إلى أن عادت من جديد في ٢٦ أغسطس ١٩٤٣ عندما وجدت مصر نفسها في مواجهة الألمان مع بريطانيا والحلفاء ومن ضمنهم روسيا.

في بداية القرن العشرين يتبادل الروائي الروسي العالمي ليف تولستوي والإمام محمد عبده الرسائل تاركين لنا صفحة خاصة في تاريخ ثقافة التسامح والتفاعل؛ ذلك أن تولستوي مؤلف الحرب والسلام، وآنا كارنينا، وغيرها، قاموا باختيار ما أعجبهم من أحاديث النبي -صلى الله عليه وسلم- وترجموها إلى الروسية ونشروها عام ١٩٠٤. وحينذاك كتب الإمام محمد عبده إلى تولستوي رسالة بالفرنسية يشكره فيها قائلًا: «أيها الحكيم الجليل مسيو تولستوي... كان وجودك توبيخًا من الله للأغنياء، وكان مددًا من عنايته للضعفاء الفقراء». ويرد تولستوي على الرسالة بقوله: «صديقي العزيز ... تلقيت رسالتكم الطيبة وأسارع بالرد عليها لكي أؤكد لكم أنها أثارت في نفسي ارتياحًا شديدًا؛ كونها جعلتني أتعرف إلى شخص مثقف رغم أنه يعتنق دينًا آخر غير الذي نشأت أنا وتربيت عليه، لكنه يدين معي بإيمان واحد؛ لأن المعتقدات مختلفة وكثيرة لكن الإيمان بالحقيقة واحد ... أظن أنني لم أخطئ إذ افترضت حسب رسالتكم أن ما أؤمن به هو ذاته ما تؤمنون به أنتم أيضًا، أي الاعتراف بالرب، وسنته، وبأن

تفعل لغيرك ما تحب أن يفعله لك، وأظن أنه كلما ازدادت العقائد بساطة ونقاء، فإنها تصبح أقرب إلى بلوغ الهدف الأسمى للبشرية أي التوحد العام، تفضلوا حضرة المفتي العزيز محمد عبده بقبول خالص مشاعر صديقكم ليف تولستوي».

عام ١٩١٣م يقوم رحالة جديد، في ظروف جديدة، برحلة إلى روسيا، إنه المستشار محمود رشاد قاضي محكمة مصر، ويسجل رحلته في كتابه «سياحة في الروسيا»، وفيه يستعرض عادات الروس وتقاليدهم وتاريخ نشأة الدولة وعملتها وشعرائها ومساجدها ودستورها وكنائسها، ومن ملاحظات محمود رشاد الطريفة قوله: «ما اجتمعت بيهودي إلا ورأيته ناقمًا على الروس»! وهي إشارة مبكرة للصراع الروسي اليهودي الذي اتخذ في بعض الأحيان أشكالًا عنيفة.

بعد ثورة يوليو ١٩٥٢م شق التعارف المصري الروسي طريقًا عريضًا غير مسبوق، حدث ذلك بعد اقتحام إسرائيل لغزة في ٢٨ فبراير ١٩٥٥م وقتلها ٣٩ مصريًا، فأمسى ذلك العدوان بداية تحول كبير في العلاقات مع روسيا؛ لأن مصر لم تستطع أن تحصل على سلاح من الغرب لصد الخطر الإسرائيلي، ووجدته لدى روسيا، يذكر هيكل في كتابه «حديث المبادرة» أن عبد الناصر فسر التحول نحو الروس بقوله: «في سنة ١٩٥٥ كنت أريد التنمية ولم أكن أريد السلاح، لكن التوسع الإسرائيلي فرض عليّ أن أعيد النظر في موقفي وأن

أحصل على سلاح أحمي به عملية التنمية وحدود الوطن». في ذلك العام ظهر كتاب «شهر في روسيا» لأحمد بهاء الدين بإهداء إلى «نورية إسماعيلوفا» الصحفية الأوزبكية الشابة بعد رحلة قام بها الكاتب إلى هناك في سبتمبر. وخلال العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ لم تكتف روسيا بإنذار بولجانين الشهير الذي وجهه لبريطانيا وفرنسا متسائلًا: «ماذا لو أن دولة أقوى منكما قامت بقصف لندن باريس؟». بل ترافق الإنذار بوصول وحدات عسكرية روسية إلى الإسكندرية لكن في الزي الرسمي للجيش البولندي!

في سبتمبر ١٩٥٩م تمت صفقة الأسلحة الروسية التي سميت بصفقة الأسلحة التشيكية تجنبًا لاستفزاز الغرب، وتلتها اتفاقيات أخرى عام ١٩٦٣م، عندما فقدت مصر في نكسة ٦٧ ثلثي طائراتها المقاتلة وثمانمائة دبابة من أصل ألف أقام الروس جسرًا جويًا عسكريًا مفتوحًا مع مصر، ودعموا الجيش المصري بورش الكوادر والإصلاحات والأسلحة، وفي ٢٢ يناير ١٩٧٠ قام عبد الناصر بزيارة سرية إلى موسكو، كان مريضًا ومنهكًا ومعذبًا بالرغبة في تحرير بلاده، وطلب من السوفيت نقل صواريخ سام -٣ إلى مصر مع خبراء لتدريب المصريين عليها، وأدى ذلك الطلب لنشوب نقاش حاد بين وزير الدفاع جريتشكو وألكسي كوسيجين رئيس الوزراء إلى درجة أن ليونيد بريجنيف القائد احتد عليهما قائلًا: «كفى نقاشًا! علينا أن نتخذ قرارًا حاسمًا».

كان القرار إيجابيًا. تم الاتفاق على إرسال خمسة عشر ألف ضابط وجندي سوفيتي إلى مصر ومعدات عسكرية وشبكة دفاع جوي، وبدأت العملية التي أطلق عليها الروس اسمًا سريًا هو «القوقاز»، بعدها كفت طائرات الفانتوم الإسرائيلية الأمريكية عن اقتحام العمق المصري وضرب أهداف بالداخل كما فعلت في مدرسة بحر البقر ومصنع أبي زعبل.

وكان قد استشهد في حرب الاستنزاف مع المصريين أربعون ضابطًا وجنديًا سوفيتيًا، كانت الطائرات تنقل جثثهم إلى ذويهم بصمت بدون الإعلان عن مصرعهم، واستشهد بعضهم داخل فرقة سلاح الصواريخ، واستشهد في دهشور في الفرقة الميكانيكية السادسة ثلاثة مستشارين روس ومترجم عندما رفضوا الانصياع لتحذيرات صفارات الإنذار وواصلوا مهامهم، استشهد أحدهم وهو يرفع ذراعه اليمنى مصدرًا أوامره بالهجوم على الطائرات الإسرائيلية، فيما بعد تعاون ثلاثة من الضباط لإعادة ذراعه إلى مكانها ليضعوه داخل النعش، لكن أحدًا لم يستطع في خيالي أن يثني هذه الذراع وظلت مرفوعة تشير إلى الأعداء.

***

صراع الألف عام!

أنهى المستشار محمود رشاد - قاضي محكمة مصر- رحلته التي قام بها إلى روسيا، وسجل تفاصيلها في كتابه «سياحة في الروسيا» عام ١٩١٣، ومن الملاحظات المهمة التي رصدها بعين مصري لبيب حالة العداء اليهودي للشعب الروسي وذلك في قوله: «ما اجتمعت بيهودي إلا ورأيته ناقمًا على الروس»! تشير تلك الجملة السريعة إلى تاريخ من الصراع الروسي- اليهودي العنيف والمكشوف أحيانًا والهادئ المستتر معظم الوقت، ومع أن روسيا تتشكل من مائة وستين قومية غير الروس تؤلف نحو ٢٥ مليون نسمة إلا أن حالة الصراع والعداوة لم تنشب إلا مع اليهود حتى شكلت ملمحًا مهمًا في التاريخ الروسي.

وقد تفجرت حالة العداوة هذه منذ بداية بناء الدولة الروسية واتخذت شكل هجمات على اليهود كما حدث عام ١٠٦٩م في إمارة كييف. عداوة لم تنقطع واستمرت إلى يومنا – ألف عام- بأشكال وصور مختلفة، باعثها الرئيسي الشخصية اليهودية التي تشبثت أينما ذهبت بالجيتو المغلق، وعاشت على الربا، تقدم مصالحها الخاصة الضيقة على كل شيء، ورفضت التفاعل مع الآخرين، وسعت دومًا لاستغلالهم وتحقيرهم، والإعلاء من ذاتها أكثر مما تستحق.

عام ١٨٧٧ يكتب الروائي الروسي العالمي فيودور

دوستويفسكي قائلًا: «اسألوا السكان الأصليين في أطراف بلادنا ماذا يحرك اليهود اليوم؟ وما الذي حركهم طيلة القرون الماضية؟ وسوف تجدون أن الرد بالإجماع هو: «حركهم ويحركهم عدم الرحمة ورغبتهم في امتصاص عرقنا ودمائنا».

في كتاب «ما الذي لا يعجبنا فيهم؟» – موسكو ١٩٩٤ - للكاتب الروسي فاسيلي شولجين – عرضه د. نوفل نيوف- يقول الكاتب بالنص: «إن العداء لليهود قائم وينمو ويشمل دائرة واسعة من الشعب الروسي بمختلف مشاربه السياسية ... والسبب هو اشتغال اليهود بالربا والأعمال التجارية وتقديسهم للذهب والمال على حساب كل شيء، وتحويلهم الروس إلى مزارعين أشبه بالعبيد، ولهاثهم للسيطرة على وسائل الإعلام ومراكز صنع القرار؛ لهذا فإن الأغاني الشعبية الروسية مفعمة بالشكوى المريرة من ظلم اليهود حتى إنها تصفهم بمصاصي الدماء». جدير بالذكر أيضًا أن شخصية اليهودي الجشع النذل كانت من الشخصيات الرئيسية في مسرح العرائس الشعبي الروسي.

يشير فاسيلي شولجين كذلك إلى أن اليهود استفادوا دومًا من بقائهم في روسيا وظل ولاؤهم لمكان آخر، وكان ذلك الولاء يتضح ما إن تعصف الأزمات أو الحروب بروسيا قائلًا: «وليس أبغض مما يتميز به اليهود من قدرة على إخفاء بحار من الدم بمحيط من أكاذيبهم». يرد شولجين على التساؤل الذي اتخذه

عنوانًا لكتابه: «ما الذي لا يعجبنا فيهم؟» قائلًا: «يسألوننا ما الذي لا يعجبكم فينا؟ وأجيب لا يعجبنا فيكم أنكم تنسبون لأنفسكم دورًا أكبر من حجمكم، وأنكم تسعون دومًا لاستغلال الجميع والهيمنة عليهم، وأنكم قمتم بأكثر المجازر جنونًا ودموية، وأنكم في الوقت الذي تشكون فيه من المجازر، فإن تلك المجازر في الواقع ليست سوى ألعاب أطفال مقارنة بما ترتكبونه ضد الشعب الروسي».

هي الصورة ذاتها التي تشكلت تاريخيًا في وجدان شعوب أخرى ودفعت الكاتب العملاق ويليام شكسبير في مسرحيته «تاجر البندقية» لتجسيد اليهودي في شخصية «شيلوك» المرابي الجشع الذي يقرض الشاب أنطونيو ثلاثة آلاف جنيه بشرط توقيع عقد يتيح للمرابي أن يقتطع رطلًا من لحم أنطونيو من أي جزء يختاره من جسمه، إذا لم يسدد له أنطونيو المبلغ في الموعد المحدد، وبعد نحو مئتي وخمسين عامًا مما كتبه شكسبير، يؤكد الروائي العظيم تشارلز ديكنز من جديد في روايته «أوليفر تويست» ملامح شخصية اليهودي ذاتها، العجوز الشرير «فاجين»، قائد العصابة التي تستغل الأطفال في السرقة والإجرام.

هي أيضًا الصورة التي تشكلت لدينا كما تُظهر ذلك مختلف الدراسات، ففي كتابه «صورة الإسرائيلي في مصر» (دار ميريت ٢٠٠٤) يذهب د.عبد الباسط عبد المعطي إلى أن الثقافة المصرية الشعبية تختزن صورة

لليهودي على أنه ذلك: «القبيح، العدواني، الأناني، البخيل، الذي يشتغل في الربا والحرب ... المنفر، المراوغ، الماكر، غير مأمون الجانب». في كتاب آخر هو «الشخصية الإسرائيلية والروح العدوانية» (دار الهلال ٢٠٠٢) يقدم د. رشاد الشامي نموذجًا واضحًا لذلك التكوين مستشهدًا بقصيدة شاءول تشيرنحوفسكي التي يخاطب بها أخاه اليهودي قائلًا:

«سيأتي اليوم الذي تغرس فيه حد سكينك في عنق أخيك، وستكون أنات موته مثل الموسيقى، وفي كل ليلة سنصعد من قبورنا لنرضع من أنهار الدم، قطرة فقطرة»! وإذا كان الشعراء اليهود ينادون بارتشاف دماء الآخرين فما الذي يمكن أن ينادي به يهودي ليس شاعرًا؟.

وقد حفل الأدب الروسي بالتعبير عن حالة العداء تلك بدءًا من جوجول في روايته «تاراس بولبا» التي ترسم شخصية يهودي صاحب حانة بصفته مرتزقًا خائنًا، ثم تورجنيف في قصته «اليهودي» التي يُعدم فيها بطلها اليهودي لأنه جاسوس، وحتى أنطون تشيخوف في قصته «كمان روتشيلد» التي لا يسمي بطلها يهوديًا لكن يصف بدقة ناطقة شخصية اليهودي الذي - حتى وهو يدفن زوجته - يُقدر ثمن النعش ويسجله في دفتر حساباته!

جدير بالذكر أنه بعد قيام الثورة الاشتراكية ١٩١٧، خلال انعقاد مؤتمر الكومنترن الثاني في ٢٨ يوليو ١٩٢٠

رفض المؤتمر مشروع إقامة دولة يهودية في فلسطين، وأقر بإشراف فلاديمير لينين وثيقة جاء في البند الحادي عشر منها في القسم السادس ما نصه: «إن الدليل الواضح على خداع جماهير الأمة المضطهدة يتجلى في عملية الصهاينة بشأن فلسطين، وفي الصهيونية عمومًا التي تقدم السكان العرب الكادحين في فلسطين قربانًا إلى الاستغلال البريطاني بحجة تأسيس دولة يهودية».

ومع أن أكثر من ثلاثين عامًا قد انقضت على توقيع اتفاقيات السلام المصرية الإسرائيلية، إلا أن تلك العقود لم تفلح في تحسين صورة اليهودي على الصعيد الشعبي بل والرسمي، ففي سنوات «السلام» تلك شنت إسرائيل حروبًا بمعدل حرب كل أربعة أعوام، ثلاث حروب ضد الفلسطينيين (قمع انتفاضة ١٩٨٧ – وقمع انتفاضة عام ٢٠٠٠ – ومحرقة غزة في ٢٠٠٩) وحربين على لبنان (عام ١٩٨٢ – وعام ٢٠٠٦)، وشاركت في ضرب العراق، وتقسيم السودان، وتهديد سوريا وإيران، وإذا كان «سلام» إسرائيل قد جلب علينا كل تلك الحروب، فما الذي قد تفعله بنا في الحروب؟

عام ١٩٧٢ سافرت إلى روسيا، ولم تكن آثار حرب ٦٧ قد توارت، وكان أحد أهم الآثار المترتبة على نكسة ٦٧ اندفاع اليهود السوفيت للهجرة من روسيا إلى إسرائيل بعد أن شجعهم انتصارها العسكري على الثقة في نجاح مشروعها الاستيطاني، وعمقت تلك الهجرة الشرخ في

المجتمع الروسي بين اليهود والمواطنين الروس، وكنت أينما ذهبت - في الأسواق أو المحلات أو داخل المنازل- تلمس دهشة الروس البسطاء والمرارة التي على وجوههم وهم يتساءلون: «عاش اليهود هنا، يتكلمون لغتنا ويأكلون ويشربون معنا، وما أن لاحت أمامهم فرصة للهجرة حتى تركونا، لم تكن روسيا وطنهم إذن كما كانوا يزعمون؟!».

قبل نكسة ١٩٦٧ كانت إسرائيل قد نجحت في تصوير جوهرها العدواني بصفته صراعًا بينها وبين العرب ليس إلا، وبرز ذلك الصراع في الخارج مُسربَلًا بالمزاعم الدينية والأساطير والأكاذيب فصارت صورته وأسبابه مركبة لدي المواطن الأوروبي بما في ذلك الروسي، إلا أن نكسة ٦٧ أظهرت للكثيرين أن إسرائيل ليست دولة لقومية يعاديها العرب، بل قاعدة عسكرية يحقق بها الاستعمار أهدافه في ضرب تطور شعوب المنطقة، وقد رفض الكثيرون خلال ذلك المطابقة بين «الصهيونية» و«الديانة اليهودية»، وظللنا نكرر أن الديانة شيء، والسياسة شيء آخر، وهذا صحيح، لكن من الصحيح أيضًا أن المشروع الصهيوني الاستعماري قدم فرصة ذهبية للتكوين النفسي والثقافي لليهود لتجسيد قسوة اليهودي وجشعه ونهمه لاستغلال الآخرين، لقد وجد ذلك التكوين النفسي في الصهيونية التي تقتل الأطفال وتحرق الأشجار نفسه وطموحه، كما عثرت الصهيونية في اليهود على قوتها البشرية.

وقد أسقطت هزيمة ١٩٦٧ الكثير من الأقنعة عن الصهيونية وعن اليهود وعن جوهر المشروع الإسرائيلي، وأخذ الشعب الروسي يعي شيئًا فشيئًا أن مشكلة إسرائيل ليست في الصراع العربي، بل في كونها قاعدة لخدمة المصالح الاستعمارية أينما كانت، وقد ظهر ذلك بوضوح للروس عام ٢٠٠٨ إبان الحرب الروسية – الجورجية حين زودت تل أبيب الجانب الجورجي في حربه ضد روسيا بمختلف الأسلحة وبطائرات التجسس بـ ٢٣، وأشرف مدربون عسكريون إسرائيليون على تدريب الجيش الجورجي، وبذلك يتضح دور القاعدة العسكرية التي تقدم خدماتها أينما استلزم الأمر ذلك؛ لهذا لم يكن مستغربًا أن يصرح إيهود أولمرت رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق بقوله: «إسرائيل تضرب في أي مكان ... سواء أكان قريبًا أم بعيدًا، وما من مكان في العالم لا يمكن لإسرائيل أن تصل إليه»! بذلك تبين الروس الحقيقة، فإذا كانت إسرائيل في عدوانها على العرب تتذرع بقصص صراعها مع العرب وفلسطين، فما الذي يدفعها للمشاركة في عمليات عسكرية أمريكية في أوسيتيا بجورجيا سوى طبيعتها الداخلية كأداة للعدوان؟!.

وقد أخذ هذا الإدراك الروسي لطبيعة إسرائيل يتضح حتى وجه سبعون كاتبًا روسيًا شهيرًا عام ١٩٩٠ رسالة مفتوحة على صفحات «ليتراتورنايا جازيتا» إلى مجلس السوفيت وقع عليها أدباء كبار منهم ليونيد

ليونوف، وفالنتين راسبوتين، وستانسيلاف كونيايف وغيرهم، وقد عبرت الرسالة عن ذروة الغضب الروسي غير المحدود من الحملة اليهودية الصهيونية على الشعب الروسي في وسائل الإعلام، وعددت تسع صحف ومجلات يسيطر عليها يهود تطلق مختلف النعوت على الشعب الروسي بدءًا من الفاشيين والعنصريين انتهاء بـ «أبناء الكلاب»! وجاء في الرسالة أن وسائل الإعلام التي سيطر عليها يهود روسيا تحقر الشخصية الروسية وتصفها «بالعبودية والانحطاط» وتعد روسيا بتاريخها العريق ليست سوى «عبدة الألف عام»! وتضيف الرسالة الغاضبة أن وسائل الإعلام تلك ترفع الشعارات العنصرية القائلة بتفوق الجنس اليهودي، كما أنها تبارك نشاط منظمات إرهابية شاركت في جرائم بشعة مثل مذابح صبرا وشاتيلا التي اهتز لها الضمير العالمي، وتقول الرسالة «إنهم يزعمون أن الصهيونية مفترى عليها من الأمم المتحدة؛ لأن الأمم المتحدة عدت الصهيونية صورة من صور العنصرية والتمييز العنصري، ومن ثم فإنهم يحاولون أن يضفوا على الصهيونية تارة صورة الاتجاه الديني الروحي، وتارة أخرى صورة حركة تحرر وطني! التحرر الوطني ممن؟! من الفلسطينيين في فلسطين؟ أم من الروس في روسيا؟».

ويختتم الكتاب الروس رسالتهم بقولهم: «إن الإهانة اليومية لكرامة الشعب الروسي بلغت حدًا لا يمكن معه التعويل على صبر شعبنا وتسامحه، فلننهض ولنضع

مصير روسيا بين أيدينا»!

لقد استمر الصراع الروسي اليهودي نحو ألف عام، ولا زال، ولعل إحدى أهم الوثائق في ذلك المضمار ما كتبه الروائي العالمي دوستويفسكي بعنوان «المسألة اليهودية». ذلك أن هذا النص يكتسب أهمية لسببين: كونه صادرًا عن أديب عالمي، وكونه تشريحًا لموقف الشعب الروسي من اليهود.

***

المسألة اليهودية

«اسألوا السكان الأصليين في أطراف بلادنا: ماذا يحرك اليهود اليوم؟ وماذا حركهم طيلة القرون؟ وسوف ترون أن الرد بالإجماع هو: «حركهم ويحركهم عدم الرحمة ورغبتهم في امتصاص عرقنا ودمائنا».

دوستويفسكي

***

توفى الروائي الروسي العالمي فيودور دوستويفسكي في ٩ فبراير ١٨٨١ عن ستين عامًا، بعد أن أثرى الأدب العالمي بروائع لا تتكرر، وبعد نحو عشر سنوات من رحيله صدرت الطبعة الرابعة من مؤلفاته الكاملة في سانت بطرسبورج عام ١٨٩١، وضم المجلد الحادي عشر من تلك الطبعة مقالًا مهمًا للكاتب العظيم بعنوان «المسألة اليهودية»، وقد نشر الكاتب ذلك المقال ضمن يومياته عام ١٨٧٧، لكن الأوساط الصهيونية عملت على عدم إعادة نشر المقال، وامتد أثر تلك الملاحقة حتى في سنوات الدولة السوفيتية، والمقال وثيقة أدبية وسياسية بالغة الأهمية، يلقي فيه الروائي العظيم الضوء على موقف الشعب الروسي من اليهود، وتسامحه، ويبين بجلاء أن اليهود في علاقتهم بالشعوب التي عاشوا معها قد اعتمدوا دائمًا الأساليب ذاتها، أي ترويع كل من ينتقدهم واتهامه بالعداء للسامية حتى إن الكاتب العظيم يتساءل بدهشة ومرارة: «كيف

أني وقعت في قائمة الذين يبغضون اليهود كيهود؟». جدير بالذكر أني قمت بترجمة هذا المقال من الروسية ونشرته في مجلة «أدب ونقد» العدد رقم ٦٩ – مايو عام ١٩٩١، ثم أعادت نشره مجلة «زرقاء اليمامة» المصرية عام ١٩٩٦، ثم ظهرت بعد ذلك ترجمات أخرى عديدة.

المسألة اليهودية

-١-

لا تحسبن أنني حقًّا أرمي إلى طرح «المسألة اليهودية»، فقد وضعت عنوان هذا الفصل بصورة غير جادة؛ ذلك لأنه فوق استطاعتي أن أطرح مسألة جسيمة إلى هذا الحد، وهي مسألة وضع اليهود في روسيا، ووضع روسيا التي يعيش وسط أبنائها ثلاثة ملايين من اليهود. هذا أمر يعلو فوق استطاعتي، بيد أن لديَّ بذلك الشأن بعض التصورات التي أخذ بعض اليهود يهتمون بها فجأة، هكذا صرت منذ وقت أتلقى رسائل من بعضهم يلومونني فيها بجدية ومرارة؛ لأنني على حد قولهم أهاجمهم وأضمر الكراهية لليهود «چيد»[1]، ليس لعيوب محددة فيهم كنزعة الاستغلال، ولكن بصفتهم شعبًا، أي انطلاقًا من القول بأن «يهوذا هو الذي باع السيد المسيح». يحرر تلك الرسائل يهود «متعلمون» (لاحظت ذلك لكنني لا أذهب لحد التعميم) ممن يجاهدون على الدوام للإيحاء بأنهم أمسوا بحكم ثقافتهم لا يشاركون قومهم– منذ زمن - خرافاتهم، ولا

يؤدون طقوسهم الدينية كسواهم من بسطاء اليهود، ويحسبون كل ذلك على أنه أدنى من مستوى تعليمهم، وهم في الوقت ذاته لا يؤمنون بالله، أنوه هنا مغتنمًا هذه المناسبة بأنه من الخطايا الشديدة لأولئك السادة من «علية اليهود» الذين يناصرون قومهم بحماس، أن ينسوا ربهم «يهوه» الذي يقدر عمره بأربعين قرنًا، وأن يتنازلوا عنه. وعندي أن هذا ضرب من الآثام ليس فقط من زاوية الشعور القومي، ولكن لاعتبارات أخرى أعظم شأنًا، وعلاوة على ذلك فإنه أمر غريب؛ لأنه من المستحيل على الإنسان أن يتصور اليهود بدون الإله، غير أن هذه القضية كبيرة، ولذلك سننحيها جانبًا مؤقتًا.

إن الذي يدهشني أكثر من أي شيء هو كيف ومن أين صرتُ أنا في تعداد من يبغضون اليهود كشعب وكقوم؟! إن أولئك السادة أنفسهم، يأذنون لي إلى حد ما بإدانة اليهودي بوصفه استغلاليًا وبإدانة بعض عيوبه، بيد أنهم بالكلام فحسب يمنحونني ذلك الحق، أما في الواقع فمن العسير أن نجد إنسانًا أكثر حساسية واهتياجًا من اليهودي المثقف بصفته يهوديًا. مع ذلك فإني أتساءل متى وكيف أعربت أنا عن كراهيتي لليهود كقوم وشعب؟ إن قلبي لم يعرف ألبتة تلك البغضاء، يعلم ذلك حق العلم أولئك اليهود الذين تعرفوا إليّ ونشأت فيما بيننا علاقة، ولهذا فإنني بادئ ذي بدء أدفع عن نفسي هذه التهمة إلى أبد الدهر، لكي لا أعود إلى تفنيدها فيما بعد.

ترى هل يكون الداعي لاتهامي بكراهية اليهود أني أطلق عليهم في بعض الأحيان كلمة «چيد»؟ ولكنني - لا أعتقد ـ أولًا: أن هذه التسمية تحمل معنًى مهينًا إلى هذه الدرجة. ثانيًا: أنني استخدمت كلمة «چيد» بقدر ما أذكر للتعبير عن فكرة محددة وهي: «اليهودي ـ اليهودية ـ المملكة اليهودية». واستخدامي للكلمة جاء بصفتها مفهومًا محددًا بل واتجاهًا ووصفًا للعصر. على أنه يمكن أن نناقش هذه الفكرة، وبالاستطاعة أن نرفض قبولها، لكن من غير الممكن أن نشعر بالأذى منها، وإليكم مقتطفًا من رسالة يهودي مثقف، وأسجل لكم أني اهتممت بهذه الرسالة الممتازة الطويلة، التي صبت هي الأخرى في تيار الاتهامات الموجهة لي بكراهية اليهود كجنس، ومن الطبيعي أن اسم السيد كاتب الرسالة سيظل غير معلوم. يقول السيد صاحب الرسالة:

«في نيتي أن أتناول مسألة ليس في مقدوري أن أفسر معناها لنفسي، هذه المسألة هي حقدكم على اليهود، وقد ظهر جليًا في كل فصل من فصول «يومياتكم» تقريبًا، وأود أن أعلم لماذا تهاجم اليهود بالذات؟ لماذا لا ينحصر هجومك على الاستغلاليين فقط؟ إنني لست أقل منك كراهية لخرافات قومي، (حيث عانيت منها الكثير)، غير أني لن أوافق أحدًا على أن نزعة الاستغلال الوقح تسري في دم اليهود كجنس، أليس في مقدورك أن تسمو إلى مستوى القانون الأساسي للحياة الاجتماعية القائل بأن جميع مواطني

الدولة الواحدة دون استثناء، أولئك الذين نهضوا بواجباتهم اللازمة لوجود الدولة، يجب أن يتمتعوا بجميع الحقوق والمنافع، وبأن هناك عقوبة واحدة لمن يخالف القانون وللأشرار من أعضاء المجتمع؟ ولماذا في مثل هذه الحال يتم فرض القيود على حقوق اليهود؟ لماذا تُسنُّ لهم قوانين تأديبية خاصة؟ وما هي الفروق بين استغلال الأجانب للبلاد (واليهود من رعايا الدولة الروسية) سواء أكانوا من الألمان أو الإنجليز أو اليونانيين وأعدادهم ليست قليلة في روسيا، وبين الاستغلال اليهودي؟ بماذا يختلف مالك الأرض الأرثوذكسي الروسي «الكولاك» الذي يطلق عليه اسم مصاص الدماء، ويكثر أمثاله في روسيا عن زميله من اليهود، وهم يعملون في كل الأحوال داخل دائرة محدودة؟ بماذا يتميز الأول عن الثاني؟».

يقارن صاحب الرسالة الموقر عددًا من ملاك الأرض الروس المشهورين بعدد آخر من ملاك الأرض اليهود، ويقصد من وراء ذلك التأكيد على أن الروس ليسوا أفضل من اليهود، لكن ما الذي يبرهن عليه هذا؟ من المعلوم أننا لا نتباهى بملاك الأرض الروس، ولا نقدمهم للناس كقدوة حسنة، بل نحن نؤيد كل التأييد فكرة أن هؤلاء وأولئك قوم سيئون، يمضي صاحب الرسالة قائلًا:

«بوسعي أن أطرح عليك ألوفًا من أسئلة مشابهة، إنك حين تطلق على اليهود لفظة «جيد» إنما تُدخل في تلك القائمة كل الجماهير الفقيرة؛ فهناك ثلاثة ملايين من

اليهود يعيشون في روسيا من بينهم مليونان وتسعمائة ألف نسمة على الأقل يخوضون نضالًا يائسًا من أجل حياتهم الذليلة، أولئك اليهود، هم أطهر أخلاقًا ليس فقط من القوميات الأخرى، وإنما أيضًا من شعبكم الروسي المعبود، إنك تُدخل في تلك القائمة عددًا كبيرًا من اليهود الذين حصلوا على المؤهلات العليا، وهم يتميزون عن سواهم في كل مجالات حياة الدولة...».

ثم يعرض صاحب الرسالة عددًا من الأسماء، لا أثبت منها غير اسم «جولد شتاين»؛ ذلك لأنه قد لا يروق لبعض الذين ذكرهم صاحب الرسالة أن يطالعوا على هذه الصفحات إنهم ينتسبون إلى الأصل اليهودي.

«وأود أن أستطلع رأيك في جولد شتاين الذي استشهد في «صربيا» دفاعًا عن القضية السلاقية؟ لقد امتد حقدك على اليهود حتى اشتمل على «دذرائيلي» الذي لعله لا يعلم أن أجداده كانوا من اليهود الإسبان، والذي لا يقود بالقطع سياسة المحافظين البريطانيين من منطلق الإنسان «اليهودي»، واأسفاه إنك لا تعرف الشعب اليهودي، لا تعرف حياته وتكوينه الروحي، لا تعرف تاريخه على مدار أربعين قرنًا من الزمان؛ لذلك، فأنت - لأنك إنسان مخلص شريف- تلحق الضرر ـ بدون وعي منك ـ بجماهير الشعب اليهودية الفقيرة، أما أولئك اليهود الأقوياء الذين يستقبلون في صالوناتهم أندادهم من أقوياء العالم، فهم بطبيعة الحال، لا يخشون الصحافة، ولا يقيمون وزنًا لذلك الحقد العاجز لأولئك

الواقعين في قبضات الاستغلال، بيد أنه تكفي مناقشة هذا الموضوع عند هذا الحد، فلا أعتقد أنني سوف أقنعك بوجاهة رأيي، ولكنني أتمنى أن تقنعني أنت بصحة رأيك».

ذلك هو المقتطف الذي أردت تقديمه من الرسالة، وأرجو أن ألفت الأنظار إلى شدة الهجوم ودرجة الحساسية الواردتين، وذلك قبل أن أرد على صاحب الرسالة (حيث إنني لا أريد أن يتهمني أحد بهذه التهمة الخطيرة)، إنني يقينًا لم أنشر خلال العام الذي صدرت فيه «اليوميات» مقالًا ضد اليهود له حجم ذلك الهجوم الذي ورد في تلك الرسالة. ثانيًا: لا نستطيع أن نغفل أن صاحب الرسالة الموقر حين تعرض في بعض سطوره للشعب الروسي اتخذ من الشعب الروسي المسكين موقف الغطرسة والاستعلاء. على أية حال فإن قسوة النبرة في صوت صاحب الرسالة تُظهر لنا بجلاء، كيف ينظر اليهود أنفسهم إلى الروس؟ صاحب الرسالة إنسان متعلم وموهوب (لست موقنًا حقًّا أنه تخلى عن الخرافات). إذن ماذا ننتظر نحن من اليهودي غير المتعلم؟ كيف تكون مشاعره نحو الروس؟ إني أقول هذا، ولا أوجه كلامي في قالب الاتهام؛ حيث إن كل ذلك يُعد شيئًا طبيعيًا، أود فقط أن أشير إلى أن الشعب الروسي ليس وحده المسئول عن خلافاتنا مع اليهود، وأن دوافع الخلاف قد جعلت تتراكم من الناحيتين، فأصبحنا اليوم لا نعلم من أية ناحية كان التراكم أكثر؟

عقب هذه الإشارة أود أن أقول عدة كلمات لتبرئة نفسي، ولإيضاح كيفية نظري إلى هذه القضية.

PRO AND CONTRE

(مع .. وضد)

-٢-

فلنفترض أنه من العسير غاية العسر أن نعرف تاريخ اليهود على مدار أربعين قرنًا، بيد إنني أعتقد أنه ليس هناك شعب آخر غير اليهود يواصل الشكوى من إذلاله وعذاباته ومصيره إلى هذا الحد وفي كل دقيقة، وبذلك يبدو الأمر كما لو أنهم ليسوا هم الذين يسودون أوروبا، وكأنهم ليسوا هم الذين يديرون فيها البورصات المالية، ومن ثم يتولون توجيه دفة السياسة والشئون الداخلية والأخلاقية للدول، حقًّا إن جولد شتاين الشريف استشهد في سبيل القضية السلاقية، ولكن لو لم تكن الفكرة اليهودية قوية إلى هذا الحد لكانت القضية «السلاقية» قد حُلت منذ زمن بعيد لصالح السلاقيين وليس لمصلحة الأتراك.

وإني على استعداد للاقتناع بأن اللورد بيكونسفيلد قد نسي أنه ينتسب إلى اليهود الإسبان (ربما لم ينس)، غير أنني لا أشك مثقال ذرة في أنه قاد سياسة المحافظين البريطانيين خلال السنة الأخيرة بمنظور وبرؤية «اليهودي».

لنفترض أن كل ما قلته من جانبي هو مجرد كلمات جوفاء سأتراجع عنها، لكني لا أستطيع أن أصدق صراخ اليهود الذين يدعون بأنهم مضطهدون ومعذبون ومهانون إلى هذا الحد الذي يزعمونه، وفي رأيي أن الفلاح الروسي، بل إن أي فرد روسي بشكل عام، يتحمل من الأعباء أكثر مما يتحمله اليهودي، وقد كتب لي صاحب الرسالة السابقة رسالة أخرى يقول فيها:

«ينبغي أن يحصل اليهود على الحقوق المدنية (حيث إنهم محرمون حتى اليوم من حقهم الأساسي في الاختيار الحر لموقع إقامتهم، الأمر الذي تسبب من دون شك في مشاكل لجماهير اليهود) كما ينبغي أيضًا منح هذه الحقوق لجميع الأقليات في روسيا. وفقط، بعد أن يحدث ذلك، يصبح في الإمكان أن نطالب أولئك بالقيام بواجباتهم حيال الدولة والسكان الأصليين».

لكن ألم تفكر يا صاحب الرسالة وأنت تخط لي في صفحة أخرى من رسالتك ذاتها قولك إنك تحب جماهير الشعب الروسي الكادحة أكثر مما تحب اليهود؟ (عبارة قوية للغاية بالنسبة ليهودي)، ألم تفكر أنه كان هناك ثلاثة وعشرون مليونًا من الجماهير الكادحة الروسية تعاني من نظام الرق، وأن الوطأة كانت أشد ثقلًا على الكواهل من مسألة اختيار مكان الإقامة؟ ألم تفكر أنه قد حدث ذلك في الوقت الذي عانى فيه اليهود من مشكلة الاختيار الحر لمكان الإقامة؟ هل أبدى اليهود في ذلك الحين عطفًا على الروس؟ لا أعتقد ذلك

وتجيب عن هذا السؤال ظروف المعيشة والحياة في الأطراف الغربية لروسيا وفي جنوبها.

إن اليهود في ذلك الحين كانوا يوالون الصراخ مطالبين بحقوق لم يحصل عليها الشعب الروسي نفسه، كانوا يواصلون الصراخ ويملأون الدنيا بالشكاوى من أنهم مضطهدون وشهداء، ويقولون: «اطلبوا منا أن ننهض بواجباتنا حيال الدولة والسكان الأصليين بعد أن تمنحونا حقوقًا أكثر».

ثم أتى بعد ذلك من حرر السكان الأصليين من نظام الرِّق[2]، ولكن ماذا جرى بعد ذلك؟ كان اليهود أول من اقتنص السكان الأصليين كما يقتنص الصائد الفريسة، واستغلوا عيوبهم، وجرُّوهم إلى المصائد بحبال ذهبية؟ من هم الذين حلوا في كل موقع حيثما استطاعوا محل الإقطاعيين بعد أن تم إلغاء نظام القنانة؟ مع فارق وحيد أن الإقطاعيين كانوا يستغلون الناس استغلالًا شديدًا، لكنهم حاولوا ألا يستهلكوا القوى العاملة؟ أما اليهود فليس يعنيهم إلى أي حد تُستهلك القوى العاملة الروسية، إنهم يحصلون على ما يبتغون ثم ينصرفون ... اعلموا أن اليهود بعد مطالعاتهم هذه السطور سيدعون أن كل هذا ليس صحيحًا بل هو أقرب إلى الافتراء، سيزعمون أني أكذب إذ أصدق كل هذه الخرافات، إذ لا أعرف تاريخ أربعين قرنًا لأولئك الملائكة الأطهار الذين هم أطهر أخلاقيًا ليس فقط من القوميات الأخرى بل ومن الشعب الروسي الذي أعبده ... دعهم

يكونوا أطهر خُلقًا من الشعوب كلها، ومن الشعب الروسي ضمنًا بطبيعة الحال، بيد إنني طالعت في عدد من مجلة «أخبار أوروبا» صادر في شهر مارس أن اليهود في الولايات المتحدة الجنوبية من أمريكا انقضوا على ملايين الزنوج المتحررين، وربطوهم بالتبعية لهم بطريقتهم الخاصة، أي بواسطة «مهنتهم الذهبية» المعروفة، مستغلين في ذلك عيوب أولئك القوم، ونقص الخبرة لديهم، وحين طالعت ذلك، تذكرت أن هذا الخاطر ذاته طرأ لي منذ خمسة أعوام، فقد تصورت أن الزنوج - على الرغم من تحررهم من ملاك العبيد – لن يكون أمامهم مفر من اليهود الذين سينقضون عليهم كفريسة طازجة، أذكر أنني سألت نفسي أكثر من مرة، بعد أن خطرت تلك الفكرة ببالي ـ لماذا لا ترد أية أنباء عن اليهود؟ لماذا لا تكتب الصحف شيئًا يُوضح الأمر؟ كنت أطرح ذلك السؤال على نفسي؛ لأنني كنت أعتقد أن أولئك الزنوج يمثلون كنزًا لا يمكن لليهود أن يفلتوه، وأخيرًا وردت الأنباء وكتبت الصحف وطالعث ما يجري هناك. وقرأت منذ عشرة أيام في «العصر الحديث» العدد ٣٨١ خبرًا واردًا من كرفنو (هي مدينة فيلنوس عاصمة ليتوانيا حاليًا ـ المترجم) مؤداه أن اليهود هناك انقضوا على السكان اللتوانيين الأصليين وأوشكوا أن يقضوا عليهم بتعويدهم احتساء الفودكا، ولم ينقذ السكان من الموت غير القساوسة الكاثوليك الذين أرهبوهم بعذاب الجحيم، وأقاموا لهم جمعيات

لمقاطعة الخمر أسموها جمعيات «الصواب»، وقد أبدى المراسل الذي كتب عن هذا الموضوع سخريته بأولئك الذين ما زالوا يصدقون رجال الدين وعذاب الجحيم، لكنه أضاف فيما بعد أن الاقتصاديين المثقفين راحوا بعد رجال الدين يشيدون بنوكًا قروية لإنقاذ الشعب من المرابين اليهود، ثم أنشأوا أسواقًا ريفية تجعل في استطاعة «الجماهير الكادحة الفقيرة» الحصول على لوازم الحياة الضرورية بالسعر الرسمي، وليس بالسعر الذي يحدده اليهودي، لقد قرأت عن كل هذا، وأعلم أن هناك من يدعي بأن كل هذا لا يعني شيئًا، وأن السبب في كل ذلك أن اليهود أنفسهم قوم مضطهدون وفقراء، وأن الأمر كله صراع من أجل البقاء، وأن الأبله فقط من لا يستطيع فهم تلك الحقيقة، لو لم يكن اليهود أنفسهم فقراء إلى هذا الحد، ولو أصبحوا أغنياء لأشرقت في نفوسهم النواحي الإنسانية، ولأدهشوا بذلك الدنيا كلها، بيد أن أولئك الزنوج وهؤلاء اللتوانيين هم في الحقيقة أشد فقرًا من اليهود الذين يعتصرونهم، وعلى الرغم من ذلك فإن الزنوج واللتوانيين لا ينزلون إلى أسواق التجارة التي يمارسها اليهود. ثانيًا: ليس من العسير أن يكون المرء إنسانًا ذا أخلاق عالية حين يحيا حياة غنية سعيدة، أما حين يدور الكلام عن صراع البقاء، فلا تقترب من ذلك الإنسان، ولا تُعد هذه في رأيي من الصفات الملائكية. وثالثًا: إني لا أقدم هذه الأنباء من مجلتي «أخبار أوروبا» و«العصر الحديث» على أنها

حقائق أساسية وحاسمة، ولو أن المرء شرع يكتب تاريخ هذه القبيلة العالمية، فسيجد على الفور مائة ألف حقيقة من هذا النوع؛ ولهذا فإن حقيقة واحدة أو حقيقتين لا تضيفان شيئًا إلى ما ذكرناه، ولعله من المُستغرَب أنك إذا أعوزتك خلال الحديث أو المجادلة معلومات عن اليهودي أو أعماله، فلن تجد نفسك بحاجة إلى التوجه للمكتبة، ولا بحاجة إلى تصفح الكتب القديمة أو مذكراتك الخاصة، بل ولن تجد نفسك بحاجة إلى بذل أي مجهود، يكفي ـ بدون أن تغادر مكانك، بل وبدون أن تنهض من كرسيك ـ أن تمد يدك إلى أول جريدة تلمسها، وأن تنظر إلى الصفحة الثانية أو الثالثة منها، عندئذ ستجد بالحتم شيئًا عن اليهود، ستجد ما يهمك بالذات، ستجد قصصًا تُروى عن نفس المآثر، وسوف يكشف لك هذا بالطبع عن شيء ما، وإن كنتَ جاهلًا جهلًا مطلقًا فيما يتعلق بتاريخ اليهود على مدى أربعين قرنًا، ومن الطبيعي أن هناك من سوف يرد عليَّ قائلًا: إن كل من يكتب في هذا الموضوع معبأ بالحقد ولهذا يكذب. من الطبيعى أيضًا أنه لا يمكن للأمر أن يحدث هكذا؛ أي إنه لا يمكن أن يكون الناس كلهم كذابين.

هنا على أية حال ـ سؤال يطرح نفسه: «إذا كان جميع الناس يكذبون لأنهم ممتلئون بالحقد، فمن أين جاء هذا الحقد؟ لابد أن لهذا الحقد لدى الجميع معنًى ما، كما قال «بلينسكي» ذات يوم (لابد أن لفظة الجميع تعني

شيئًا ما). «الاختيار الحر لمكان الإقامة». ترى هل أن الإنسان الروسي حر حرية مطلقة فيما يتصل باختيار مكان الإقامة؟ أليست باقية إلى الآن تلك القيود المفروضة على حرية اختيار مكان الإقامة بالنسبة للمواطنين الروس؟ تلك القيود التي خلفها نظام الرق والتي التفتت إليها الحكومة منذ زمن؟ أما فيما يتعلق باليهود، فإن الجميع يرى أن حقهم في اختيار مكان الإقامة قد اتسع على نحو كبير في العشرين عامًا المنصرمة. على كل حال لقد ظهر اليهود في روسيا في مناطق لم يرهم أحد فيها من قبل، ومع ذلك فإنهم ما زالوا يواصلون شكواهم من الحقد والاضطهاد، وأعترف بأني لا أعرف الحياة اليهودية معرفة جيدة غير أني أعلم حق العلم أن شعبنا لا يضمر حقدًا دينيًا غبيًا على اليهود، حقدًا منبثقًا من العبارة القائلة: إن «يهوذا خان المسيح»، حتى لو سمعنا شيئًا من هذا القبيل على ألسنة الأطفال أو السكارى، إن شعبنا بالرغم من ذلك ينظر إلى اليهود بدون أحقاد، وإني أعرف ذلك منذ خمسين سنة مضت، لقد عشت مع الشعب بين جماهيره المختلفة بل وفي العنابر، وتقاسمت مع الناس حشايا النوم ذاتها، كان معنا بعض اليهود ولم يكن أحد يحقد عليهم أو يطردهم، وحين كان اليهود يقومون بالصلاة (وهم حين يصلون يطلقون الهتافات ويرتدون أزياء خاصة)، لم يكن أحد يرى في ذلك أمرًا غريبًا، ولم يعرقل أحد صلواتهم، ولم يسخر أحد منهم، لعل ذلك

حسب مفهومك كان المتوقع من شعب خشن مثل الشعب الروسي، وعلى العكس من ذلك كان الروس يقولون في مثل هذه الحالات: «هكذا هي ديانتهم وهي تفرض عليهم الصلاة على هذا النحو». ثم يمرون بهم في هدوء وهم يستحسنون صلاتهم تقريبًا، وعلى الرغم من ذلك الموقف كان أولئك اليهود يتجنبون الروس! ويرفضون أن يأكلوا معهم، ويتخذون منهم موقفَ الغطرسة والاستعلاء (وقع ذلك حين كنا في السجن...) بل كان اليهود يعبرون بصورة عامة عن حقدهم على كل شيء روسي وعلى «الشعب الأصلي». ويمكن أن نجد الشيء ذاته في معسكرات الجنود بل وفي كل مكان في روسيا؛ اذهب بنفسك واسأل ـ هل يطارد أحدٌ يهوديًا في ثكنة عسكرية لأنه يهودي؟ أي لانتمائه للدين اليهودي؟ هذا لم يحدث ألبتة، هكذا الحال بين كل طوائف الشعب، وعلى العكس من ذلك، فإن الإنسان الروسي يرى بعينيه، ويدرك في كل مكان (وذلك ما لا يخفيه اليهود أنفسهم) إن اليهودي يرفض أن يؤاكله، ويتجنبه دائمًا، وبدلًا من أن يغضب الروسي، فإنه يقول بهدوء ووضوح: «هكذا هي ديانته، هي التي تفرض عليه ألا يؤاكلنا، وأن يتجنبنا». ثم يغفر الروسي لليهودي حين يدرك هذا الدافع السامي، وإني أتخيل في بعض الأحيان ما كان سيحدث لو أن روسيا كانت تضم ليس ثلاثة ملايين من اليهود وثمانين مليونًا من الروس، ولكن ثلاثة ملايين من الروس وثمانين مليونًا

من اليهود؟ كيف كانت ستصبح علاقة اليهود بالروس ومعاملتهم إياهم في مثل تلك الحال؟ ترى هل كان اليهود سيمنحون الروس حقوقًا متساوية؟ هل كان اليهود سيسمحون للروس بأداة صلاتهم في حرية؟ أم كان اليهود سيحولون الروس إلى عبيد لهم؟ بل ويصنعون بهم ما هو أسوأ من ذلك ويسلخون جلودهم؟ أما كانوا ليضربونهم ويجلدونهم كما فعلوا ذلك في فجر تاريخهم مع القوميات الأخرى؟ لا، إنني أؤكد لليهود أن الشعب الروسي لا يضمر حقدًا عليهم، ربما لا يشعر بالتعاطف معهم، وقد يكون ذلك التعاطف قويًا في بعض الأماكن، لا شك أن هذا أمر قائم لكن ليس بسبب عدم التعاطف مع اليهودي لأنه يهودي، كذلك ليس سببه قبليًا أو دينيًا، لكن عدم التعاطف ذاك ينشأ لأسباب أخرى، ولا يعد الشعب الروسي مسئولًا عن هذا، فالمسئولون بالدرجة الأولى هم اليهود أنفسهم.

STAUS IN STATU

(دولة داخل الدولة)

أربعون قرنًا من الوجود

-٣-

يتهم اليهود السكان الأصليين بالحقد المؤسس على التحفظات، وما دام الحديث يتطرق إلى التحفظات، فماذا تحسبون أن تحفظات اليهود نحو الروس أقل من

تحفظات الروس نحو اليهود؟ أم أكثر؟ لقد قدمت عدة أمثلة على مواقف الروس البسطاء من اليهود، وأمام عيني رسائل يهود من غير البسطاء بل من اليهود المتعلمين والمثقفين، كم من الأحقاد تنطوي عليها تلك الرسائل؟ الأحقاد على السكان الأصليين؟ أهمُ من ذلك أنهم لا يلاحظون أحقادهم تلك، لم يكن بوسع اليهود المفعمين بالحيوية والنشاط والقوة على نحو لا نظير له أن يعيشوا إلا في حالة **Status in Statu** (دولة داخل دولة - الجيتو)، كي يواصلوا البقاء على مدى أربعين قرنًا من الزمان، أي خلال تاريخ الإنسانية، في وحدة توثق عراهم، خسر اليهود أرضهم، واستقلالهم السياسي، وقوانينهم أكثر من مرة، وتعين عليهم كي يسترجعوا كل ذلك، مرة بعد الأخرى، أن يعيشوا في حالة **Status in Statu**، الحالة التي حرصوا على الاحتفاظ بها في كل مكان خلال المطاردات والملاحقات والتشتت، وإني حين أشير إلى تلك الحالة لا أرمي إلى توجيه تهمة، ولكن كيف تتلخص حالة **Status in Statu**؟ وفيم تكمن فكرتها الأبدية التي لا تتبدد؟ وفيم يكمن جوهر هذه الفكرة؟

من المستحيل أن نعرض هذا الموضوع في مقال قصير ولعل أحد أسباب تلك الاستحالة أنه لم يأنِ الأوان المناسب بعد على الرغم من مرور الأربعين قرنًا المنصرمة، فسوف تقول البشرية كلمتها الأخيرة عن هذه القبيلة العظيمة في المستقبل.

مع ذلك فإننا نستطيع بدون التعمق في جوهر المسألة أن نقوم بتصوير بعض ملامح حالة Status in Statu أو على الأقل بعض ملامحها الظاهرة، ومن بين هذه الملامح سنرى الاغتراب والعزلة في إطار العقيدة الدينية، وعدم اندماج اليهود بالآخرين، وإيمانهم بأنه لا توجد هناك سوى شخصية تاريخية واحدة هي شخصية اليهودي، أما الناس الآخرون، وعلى الرغم من أنهم موجودون، فلابد من النظر إليهم كما لو أنهم غير موجودين.

«اطلع من بين الشعوب، وقم بتشكيل ذاتك، وعليك أن تعلم أنك الوحيد عند الرب حتى الآن». «قم بقتل الآخرين أو اتخذ منهم عبيدًا أو فلتقم باستغلالهم». «ثق بانتصارك على العالم كله، وبأن كل شيء سيخضع لك». «تجنب الجميع. ولا تختلط في حياتك بأحد، وثِق بما أنت موعود به حتى حين تفقد أرضك وشخصيتك السياسية، وحين تتبعثر على وجه الأرض بين مختلف الشعوب ثِق بأن كل شيء سيأتي في حينه، ولكن، حتى يحين ذلك الأوان عِش، وتجنب، واتحد، واستغل الآخرين، وعليك خلال ذلك أن تنتظر».

هذا هو جوهر فكرة Status in Statu على أن هناك قوانين داخلية سرية سائدة تحمي هذه الفكرة.

تدعون أيها السادة اليهود المتعلمون، بأن: «كل هذا كلام باطل وبأنه حتى لو كان هناك حالة Status in Statu (لم تعد لها الآن سوى آثار ضئيلة إن كانت فعلًا

عاشت في الماضي) فإن المطاردات الدينية في القرون الوسطى وما قبلها هي التي أدت إلى تلك الحالة Status in Statu التي نشأت فيما مضى من إرادة البقاء. والسبب في استمرار تلك الحالة في روسيا أن اليهود فيها غير متساوين في الحقوق مع السكان الأصليين».

بيد أن الإشارة إلى المطاردات والرغبة في البقاء، لا تكفي لتفسير ميثاق الـ Status in Statu؛ ذلك لأن التصميم على البقاء لا يمكن أن يستمر طوال أربعين قرنًا من الزمان، فكم من حضارات كانت أشمخ وأقوى لم تستطع الحياة نصف الأربعين قرنًا، وفقدت قوتها السياسية ووجهها القبائلي، ليس حب البقاء إذن هو العامل الأساسي، ولكن السبب في نشوء Status in Statu هو فكرة مسيطرة، أو عنصر يمتد منبثًا على مستوى العالم، ولعله شيء ذو أبعاد وأعماق، ليس بوسع البشرية حتى الآن أن تصدر عليه حكمها نهائيًا كما ذكرت سلفًا، ومما لا ريب فيه أن الطابع الديني يشغل في هذه الفكرة المسيطرة مكان الصدارة، فمن الجلي أن «يهوه» ما زال بعهده ومبادئه يقود شعبه إلى الهدف النهائي، من المستحيل أن نتصور اليهودي بدون إله، إنني لا أصدق اليهود المتعلمين والمثقفين حين يزعمون بأنهم ملحدون؛ حيث إن اليهود جميعًا من أصل واحد، والله وحده هو الذي يدري ماذا يمكن أن ينتظر العالم من اليهود المتعلمين المثقفين ... لقد طالعت في

طفولتي أسطورة مؤداها أن اليهود يترقبون حتى اليوم المسيح المنتظر، ينتظرونه على اختلاف درجاتهم بدءًا من اليهودي البسيط وانتهاء بالعالم الفيلسوف والحاخام، إنهم جميعًا يؤمنون بأن المسيح المنتظر سيجمعهم مرة أخرى في القدس وسيرمي بسيفه جميع الشعوب تحت أقدامهم، ولهذا السبب يُفضل أغلب اليهود مهنة واحدة هي تجارة الذهب، ليسهل عليهم نقل الذهب والمجوهرات إلى حيث يظهر المسيح المنتظر عندما:

تبــزغ أشعـــة الفجـــر

وتعــزف الآلات الموسيقيـــة

سنحمل الفضة، والخير، والمقدسات

نحملهــا إلــى بيتنــا القديــم

في فلسطين...

لقد سمعت هذا حين كنت طفلًا كالأسطورة، غير أني أعتقد بأن جوهر الموضوع موجود بالفعل، وبأن جماهير اليهود تضمر بداخلها كل ذلك بالفعل، وبأنه ينعكس في صورة الرغبة التلقائية التي لا يمكن مقاومتها، غير أنه لابد -للاحتفاظ بجوهر الموضوع- من الإبقاء على ميثاق الـ Status in Statu ولهذا، فإن السبب في وجود هذا الميثاق أو الحفاظ عليه بهذه الحالة ليس المطاردات وحدها... وإنما فكرة أخرى...

وإذا كان حقًّا لليهود نظام داخلي خاص دقيق يربط

بينهم، ويجعل منهم كتلة واحدة متكاملة، فإن هذا يبرر طرح مسألة المساواة بين حقوقهم وحقوق السكان الأصليين، نحن بطبيعة الحال يجب أن نقدم لليهود كل ما تتطلبه الاعتبارات الإنسانية والقانون المسيحي، لكن إذا طالب اليهود بالمساواة الكاملة بين حقوقهم وحقوق السكان الأصليين، وهم متسلحون بخصائص نظامهم، وبمكانتهم الاستثنائية، وباغترابهم وعزلتهم الدينية والقبلية، وبمبادئهم المتنافية تمامًا مع الفكرة التي تطور طبقًا لها العالم الأوروبي حتى اليوم، ألا يحدث والحال هذه، أن اليهود يحصلون على شيء أزيد وأكبر مما يحظى به السكان الأصليون؟

هناك بالطبع من سوف يشير إلى الأجانب الآخرين بدعوى أنهم متساوون أو متساوون في الحقوق تقريبًا مع السكان الأصليين، وسوف يشير أيضًا إلى أن:

«حقوق اليهود أقل من حقوق أولئك الأجانب، وذلك لأن الناس يخشوننا ـ نحن اليهود ـ حيث إنهم يروننا أكثر ضررًا من مختلف الأجانب، ولكن بأي شيء ينزل اليهودي ضرره؟ لو كانت لليهود مساوئ فالسبب في ذلك هو الشعب الروسي الذي يساعد على تكوين تلك المساوئ بجهله وعدم قدرته على الاستقلالية وتدهور ثقافته وضعف تطوره الاقتصادي، الشعب الروسي هو الذي يحتاج إلى السمسار والمدير والوصي الاقتصادي والمرابي، الشعب الروسي نفسه يدعو إليه أولئك ويسلم مقاليد أموره إليهم، وانظروا إلى أوروبا، إن شعوبها

أقوى وأكثر استقلالية وأنضج تطورًا قوميًا، وقد اعتادت تلك الشعوب على ممارسة العمل والتباري فيه؛ ولذلك لم تعد تخشى أن تمنح اليهود حقوقًا... هل تراهم في فرنسا يذكرون شيئًا عن الضرر الناجم من الجيتو الذي يضم يهود فرنسا؟».

قد يبدو هذا الحديث محبوكًا، بيد أنه يمكن اختتامه بملاحظة بين القوسين: إن كل هذا يدل على أن اليهود يحيون حياة أفضل هناك؛ حيث الشعب ما زال غير حر، أو جاهلًا، أو متخلفًا من الناحية الاقتصادية، وبدلًا من أن يرفع اليهود بنفوذهم من مستوى التعليم، وبدلًا من أن يعززوا العلم، وبدلًا من أن يعملوا لتوليد القدرة الاقتصادية لدى السكان الأصليين، فإن اليهود يشرعون أينما أقاموا في إفساد الشعب وإذلاله، ومن ثم يتدهور مستوى التعليم وينحدر، وينتشر الفقر أكثر فأكثر، وينمو معه اليأس، فلا يكون للشعب منهم مفر. اسألوا السكان الأصليين في أطراف بلادنا: ماذا يحرك اليهود اليوم وماذا حركهم طيلة القرون؟ وسوف ترون أن الرد بالإجماع هو: «حركهم ويحركهم عدم الرحمة، ورغبتهم في امتصاص عرقنا ودمائنا». والحقيقة أن نشاط اليهود في أطراف بلادنا، يتركز فقط في أن يجعلوا سكان البلاد الأصليين في حالة تبعية لهم، وذلك عن طريق الاستفادة بالقوانين المحلية، والتحايل على إيجاد منافذ لاستخدام القوانين لصالحهم، واستطاعوا بصورة دائمة أن يعقدوا الصداقات مع الذين يمسكون

بزمام مصير الشعب؛ لهذا فليس اليهود من يحق لهم إطلاق شكواهم من ضآلة حقوقهم إذا قيست بحقوق السكان الأصليين، فقد حصلوا منًا على حقوق كافية تمنحهم امتيازات كثيرة إذا هي قورنت بحقوق السكان الأصليين، ويشهد تاريخ أطراف البلاد الروسية بما جرى للشعب الروسي في المناطق التي استقر فيها اليهود خلال عشرات ومئات السنين. وبعد، هل بوسعكم أن تحددوا أية قومية من قوميات روسيا يمكن مقارنتها باليهود من حيث تأثيرها ونفوذها الرهيبين؟ إنكم لن تجدوا مثل هذه القومية؛ حيث إن اليهود من هذه الزاوية، يحتفظون باختلافهم عن الأجانب الآخرين في روسيا، والسر وراء ذلك هو ميثاق الـ Status in Statu (الجيتو) الذي يطالب اليهود بعدم رحمة كل من هو غير يهودي، كما يطالبهم بعدم تبجيل أية أقوام آخرين وأية قبائل وأي مخلوق غير يهودي.

ثم أهي حجة مقنعة أن شعوب غرب أوروبا لم تُمكن اليهود من السيطرة على مقدراتها وأن الشعب الروسي أضعف من الشعوب الأوربية؟ وبذلك يصبح هو نفسه المسئول عن كل ما يجري في أطراف البلاد الروسية؟ (والسبب الوحيد في ذلك الوضع هو قسوة الظروف السياسية طيلة قرون). أهي حجة مقنعة أنه بناء على ما سبق ينبغي قمع الشعب لاستغلاله؟ وليس بسط يد العون له ومساعدته؟ ولو كان هناك من يشير إلى فرنسا فليس معنى ذلك أن الـ Status in Statu كان غير

ضار بها. فمن المسلَّم به أن انحلال المسيحية وفكرتها يجري هناك لسبب غير اليهود، بيد أنه تنبغي الإشارة إلى أن انتشار روح اليهودية في أوروبا قد استبدل الكثير من أفكار اليهودية بأفكارها، ومما لا شك فيه أن الإنسان كان دائمًا أميل إلى فهم الحرية على أنها تأمين حياته بالمال، وأنها جمع ذلك المال بمختلف الوسائل، وعاش يعبد المادة.

غير أن تلك المطامح لم تصبح مبدأ «ساميًا» مثلما حدث هذا في قرننا التاسع عشر. «كل إنسان من أجل نفسه فقط، ولا علاقة بين الفرد والمجتمع غير تلك التي تحقق مصلحة الفرد». هذا هو المبدأ الأخلاقي الذي يطبقه أغلب الناس المعاصرين[3]، وليس هذا المبدأ وقفًا فقط على السيئين منهم، لكنه المبدأ الذي يطبقه أيضًا الكادحون ممن لا يمارسون السرقة والقتل. ومن المؤكد أن عدم الرحمة تجاه الطبقات الدنيا، وانهيار روح الإخوة، واستغلال الغني للفقير، كان موجودًا كله في الماضي وبشكل دائم، ولكن ذلك كله لم يكن يرتفع إلى مستوى الحقيقة العليا والعلم؛ إذ كانت المسيحية تواصل إدانته، أما اليوم فيعد كل ذلك خيرًا؛ لهذا، فليس من قبيل المصادفة أن اليهود يسيطرون على البورصات المالية في كل مكان، ويتحكمون في حركة رأس المال، ويهيمنون على عمليات القروض؛ هذا لأن اليهود يتحكمون في السياسة العالمية كلها، وعما قريب ستأتي مملكتهم ـ مملكتهم الكاملة[4]... عما قريب يحل زمن

انتصار الأفكار التي تذبل في ظلها مشاعر حب الإنسانية، وتتساقط الرغبة في البحث عن الحق، والمشاعر المسيحية والقومية، والكرامة القومية للشعوب الأوروبية، عما قريب يحين زمن سيطرة المادة والمطامع العمياء، ويصبح كل شيء هو التأمين المادي الشخصي، وهو جمع المال بمختلف الوسائل، لقد صار ذلك هدفًا أسمى، هدفًا معقولًا، صار معنى التحرر الذي حل محل الفكرة المسيحية الخاصة بالخلاص عن طريق التوحيد الأخلاقي الأخوي وثيق العرى بين الناس.

ولعل هناك من سوف يسخر قائلًا: ليس بسبب اليهود يأتي كل هذا، ومن المعلوم أن هذا الوضع لا ينشأ بسبب اليهود وحدهم. غير أنه ما دام اليهود قد انتصروا وازدهروا في أوروبا، في الوقت الذي انتصرت وازدهرت فيه هذه الظواهر الجديدة، وكان انتصارها وازدهارها إلى الحد الذي ارتفع بها إلى مستوى المبدأ الأخلاقي، فلابد من الاستنتاج بأن اليهود قد مارسوا هنا تأثيرهم أيضًا.

وقد يعترض قائل بأن اليهود فقراء ـ وفقراء في كل مكان وبخاصة في روسيا، وأن صفوة اليهود هي فقط التي تتألف من أصحاب البنوك وملوك البورصات، بينما يلهث تسعة أعشار اليهود وراء «كوبيكات» ليحصلوا على لقمة خبز، وقد يبدو هذا صحيحًا، ولكن ما هو المعنى الذي ينطوي عليه؟ أليس معنى ذلك أن شيئًا

شاذًا وغير طبيعي يكمن في الأعمال التي يمارسها اليهود أنفسهم؟ وأن استغلالهم لغيرهم من الناس ينقلب عقابًا لهم؟

إن اليهودي يعمل بالوساطة والسمسرة المالية، يتاجر بعمل غيره، ورأس المال هو تجسيد للعمل المتراكم، واليهود لا يحبون شيئًا قدر حبهم للمتاجرة بعمل الآخرين على أن هذا لا يبدل من الأمر شيئًا حتى الآن، أما صفوة اليهود فإنها تتسامى فوق البشرية أعلى فأعلى، وتسعى إلى أن تضفي شكلها وجوهرها على الدنيا بأسرها، ويزعم اليهود أنه يوجد بينهم قوم طيبون، مغفرة يا رب... هل تنحصر قضيتنا في تلك الدائرة؟ هل يدور حديثنا حول أناس طيبين أو أناس أشرار؟ وهل ينقصنا الأشرار؟ ألا يوجد قوم طيبون بين أولئك؟ هل كان المرحوم جيمس روتشيلد من باريس إنسانًا سيئًا؟ نحن نتحدث بصورة عامة عن الروح اليهودية، عن الفكرة اليهودية التي شملت العالم، وحلت محل «الفاشية».

لكن ... فلتحيا الأخوة

-٤-

ترى ماذا أقول؟ ولماذا أتحدث؟ هل أنا حقًا عدو لليهود؟ هل صحيح إنني أناصب أولئك القوم «المساكين» أشد العداء، وأحمل عليهم كلما سنحت

فرصة حملات قاسية؟ هل أن ذلك صحيح كما كتبت لي فتاة يهودية شريفة ومتعلمة (وهذا واضح من رسالتها العامرة بمشاعرها الحارة المخلصة):

«واضح تمام الوضوح، حقدك على اليهود الذين – على حد قولك - لا يهتمون إلا بأنفسهم فقط، حقدك على أولئك واضح تمام الوضوح».

كلا... إني أرفض هذا الوضوح، وأود أن أناقش الفتاة، لقد كتبتْ مطالبًا بوجوب منح اليهود كل ما توجبه الاعتبارات الإنسانية والقانون الإنساني والمسيحي، وأود أن أضيف إلى ذلك، أني بغض النظر عن جميع الاعتبارات التي طرحتها، أعلن تأييدي لتوسيع حقوق اليهود في التشريع الرسمي وتأييدي أيضًا للمساواة الكاملة بين حقوقهم وحقوق السكان الأصليين إذا أمكن ذلك. (وإن كان لهم في بعض الأحيان حقوق أوسع وإمكانيات أكبر للانتفاع بتلك الحقوق أكثر مما بها السكان الأصليين).

وإني لتخطر على بالي في الوقت ذاته الفكرة التالية: ترى ... ماذا سيحدث لو أن الجمعية الزراعية التي تحمي الفلاح الفقير من المخاطر انهارت لسبب من الأسباب؟ ماذا سيحدث لو اجتاح اليهود أولئك الفلاحين المتحررين حديثًا من قيود العبودية وغير المسلحين بأية خبرة، والعاجزين عن مقاومة ألوان الإغراء المختلفة التي حمتهم منها الجمعيات الزراعية؟ أعتقد أنه لو جرى ذلك فستكون تلك نهاية الفلاحين؛

لأن كل ما يمتلكونه سينتقل فورًا إلى قبضة اليهود، عندئذ تأتي الفترة التي يستحيل أن نقارنها حتى بعهد نظام الاسترقاق، بل وتصعب مقارنتها بفترة الاحتلال التتاري أيضًا.

بيد أنني على الرغم من ذلك كله، أعد نفسي من دعاة المساواة الكاملة والنهائية؛ لأن ذلك يتواءم مع القانون والمبدأ المسيحي، وما دام الأمر هكذا فلم إذن كتبت الصفحات السابقة؟ ماذا أردت أن أعبر عنه؟ أم أنني أتناقض مع نفسي؟ لا... أنا لا أتناقض مع نفسي، أنا لا أمانع ـ من وجهة نظر روسية ـ من توسيع حقوق اليهود، ولكنني في ذلك الوقت أشير إلى أن العوائق الحائلة دون توسيع هذه الحقوق تأتي من جانب اليهود أكثر مما تأتي من جانب الروس، وإذا لم يتحقق حتى اليوم، ما أصبو إلى تحقيقه من صميم قلبي، فإن ذنب الروس في هذا أقل بكثير من ذنب اليهود.

لقد أشرت فيما سلف إلى اليهود البسطاء وكيف أنهم لا يريدون أن يتعاملوا مع الروس بل لا يريدون أن يؤاكلوهم، ومع ذلك لم يغضب الروس من ذلك التصرف، ولم ينتقموا من أحد، بل إنهم على العكس غفروا لهم وقالوا بأن ديانتهم اليهودية تفرض عليهم هذا السلوك، هذا عن اليهود البسطاء. أما المثقفون، فنحن كثيرًا ما نلاحظ في اليهود المثقفين نفس التحفظ حيال الروس، هم يدعون بأنهم يحبون الشعب الروسي، وقد كتب لي أحدهم أنه يؤسفه أن الشعب

الروسي ليس له دين، وأن الشعب الروسي لا يفهم شيئًا في المسيحية، وكثير على اليهودي أن تصدر منه عبارة كتلك، ترى... هل يفقّه هذا اليهودي المتعلم نفسه شيئًا في المسيحية؟! لكن ماذا بوسعنا أن نفعل إذا كان الاغترار والاستعلاء من سمات اليهودي؟ أقسم إنني أكثر ميلًا إلى تبرير موقف الروسي، على الأقل لأنه لا ينطوي في أعماقه على كراهية دينية لليهود.

أما عن التحفظات الأخرى، فإن لنا أن نسأل: عند أي من الجانبين تزيد تلك التحفظات؟ يزعم اليهود أنهم كانوا مضطهدين ومطاردين طوال قرون، هذا شيء ينبغي على الروس أن يضعوه في اعتبارهم عند الحكم على الطابع اليهودي. حسنًا ... نحن نضع ذلك في الاعتبار، كم من مرة ارتفعت أصوات المثقفين الروس تدافع عن اليهود؟ لكن ... هل يضع اليهود في اعتبارهم حين يتهمون الروس ويجأرون بالشكوى من قرون الملاحقات والاضطهاد أن الشعب الروسي هو الآخر قد عانى من الملاحقات والاضطهادات ذاتها؟ هل يمكن الزعم بأن الشعب الروسي عانى في تاريخه أقل مما عاناه اليهود؟ ألم يتحد اليهودي في الأغلب الأعم مع الظالمين؟ بل كثيرًا ما تحول هو نفسه إلى الظالم بعينه؟ لقد حدث كل ذلك بالفعل، إنه التاريخ، إنها الحقائق التاريخية، ومع ذلك فإننا لم نسمع أبدًا أن اليهود قد ندموا على ما ارتكبوه، لكنهم في الوقت ذاته لا يكفون عن اتهام الروس بأنهم لا يحبونهم.

كفى، يكفي كل ذلك ... فلتكن الوحدة الروحية الكاملة بين جميع الأقوام، ولتقم المساواة في جميع الحقوق؛ لذلك أرجو من المعارضين والذين يكتبون لي من اليهود أن يتخذوا منا نحن الروس موقفًا أكثر عدالة، وإذا كان استعلاؤهم على الشعب الروسي، وتقززهم منه يعودان فقط إلى «التحفظ» وبعض الرواسب التاريخية، وإذا كان ذلك الاستعلاء والتقزز لا يكمن في أعماق قانونهم ونظامهم الخاص، فإننا نأمل أن يتلاشى ذلك سريعًا، ولنتحد في روح واحدة وأخوة كاملة، ولنتبادل المساعدات في سبيل القضية العظيمة لخدمة أرضنا ووطننا ودولتنا ... ولتخف الاتهامات المتبادلة، ولينطفئ هذا الحماس الدائم للاتهامات التي تعوق الرؤية الواضحة للأشياء، وإني أقطع فيما يتعلق بالشعب الروسي أنه يرحب بأخوة اليهود بغض النظر عن اختلاف الدين، وباحترام كامل منه لحقيقة هذا الاختلاف، لكن من الضروري لإقامة هذه الأخوة، بل لإقامة الأخوة الكاملة من جهد يبذله الجانبان، فليقم اليهودي بالتعبير للروس عن بعض المشاعر الأخوية حتى يشجعه على الإقبال على نفس الشيء.

وإني لأعلم أن بوسعنا أن نجد بين الشعب اليهودي اليوم عددًا كبيرًا من الأشخاص المحبين للإنسانية الذين يبحثون عن مواطن سوء التفاهم للقيام بإزالتها، لن أسكت عن قول ذلك وتكراره: إني لأرجو أن تتسع حقوق اليهود اتساعًا كبيرًا وعلى الأقل بقدر الإمكان،

وبقدر ما يثبت اليهود قدرتهم على الاستفادة بهذه الحقوق بدون أن يلحقوا أضرارًا بالسكان الأصليين، إني أرجو ذلك كي لا تفتر معنويات بعض أولئك النافعين من اليهود والمحبين للإنسانية، ولإضعاف تحفظاتهم إلى حد ما، وكي يسهل لهم أن يشرعوا في العمل.

وبوسعنا من جانبنا نحن الروس أن نقطع المزيد من الخطوات إلى الأمام، وهنا يمكن أن تتلخص المسألة فقط فيما يلي: هل سوف يتسنى لأولئك الطيبين من اليهود أن يقوموا بأعمال كثيرة؟ وإلى أي حد هم قادرون على إقامة علاقة مع القضية الرائعة الجديدة، أي قضية الاندماج الأخوي الحقيقي مع قوم يختلفون معهم في الدين والدم؟

***

---

1 كلمة «چيد» تطلق على اليهود في روسيا للتحقير من شأنهم، المترجم.

2 يقصد الكاتب قانون إلغاء الاسترقاق الذي أصدره القيصر ألكسندر الثاني عام ١٨٦١.

3 هذه هي الفكرة الأساسية للبورجوازية التي أحلت قيمتها محل النظام العالمى في نهاية القرن الماضى، والتى غدت فكرة جوهرية لهذا القرن في العالم الأوروبى بأسره (تعليق دوستويفسكى).

4 وهكذا توقع دوستويفسكى قيام دولة إسرائيل منذ مئة سنة، حيث كتب هذا الفصل عام ٧٧٨١.

سنوات الشعر والموت

علمتنا سنوات الدراسة في موسكو ونحن طلاب أن هناك كتبًا مسموح بها وأخرى ممنوعة، وكانت ثمة سوق سوداء للكتب الأدبية المحظورة التي تباع سرًا وبالهمس، أولئك كانوا الأدباء والشعراء غير المرضي عنهم لسبب أو لآخر من السلطات السوفيتية، وكانت القائمة طويلة تضم أسماء مثل الشاعرة آنا أخماتوفا وزوجها نيكولاي جوميليوف الشاعر الذي قتل في محاكمة صورية بتهمة ملفقة، والقاص العبقري أندريه بلاتونوف، والروائي المذهل ميخائيل بلجاكوف صاحب الرواية العبقرية «المعلم ومارجريتا»، انتهاءً بالكاتب الساخر ميخائيل زوشنكو الذي كان يسخر بلا هوادة بكل المظاهر السلبية فأجبرته الدولة على الصمت بعد أن شنت حملتها على المبدعين والعلماء عام ١٩٣٧، فكف عن الكتابة وانكسرت روح السخرية مفسحة المجال للمرارة العميقة فحسب، وكانت الدولة تطبع من أعمال أولئك الأدباء عددًا محدودًا من النسخ تباع بالعملة الصعبة للأجانب في الأسواق الحرة لكي لا يقال: إن الدولة تصادر الأدب. بينما كانت تطبع من كتب سكرتير الحزب ليونيد بريجنييف ملايين النسخ، بل وتمنحه جائزة الدولة في الآداب عما كتبه، وبعبارة أدق عمًا لم يكتبه؛ إذ كان الجميع يعلمون أن هناك من يؤلفون له.

من بين الأدباء المحظورين كانت الشاعرة الروسية الكبيرة مارينا تسفيتايفا التي دخلت إلى حجرة منعزلة

في بيتها في ٣١ أغسطس ١٩٤١ وأنهت حياتها بأنشوطة حول عنقها وهي في التاسعة والأربعين، زوجة وأمًّا لطفلين، وشاعرة ملء السمع والبصر، بعد أن أشرقت في مطلع القرن العشرين مع زميلتها «آنا أخماتوفا» لتصبحا شمسين منيرتين من قصائد لاهبة ومصير فاجع.

ولدت مارينا في ٨ أكتوبر ١٨٩٢ بموسكو، وكان والدها أستاذًا جامعيًا ووالدتها عازفة بيان، وتبدت موهبة الشاعرة في محاولات ساذجة مبكرة منذ أن كانت في السادسة من عمرها، عام ١٩١٠ نشرت أول ديوان بعنوان «دفتر مسائي».

بعد عامين ظهر ديوانها الثاني «عمود النور السحري». وتوالت دواوينها حتى بلغت سبعة عشر ديوانًا غير المسرحيات والمقالات النقدية والمذكرات، ولم تقع مارينا خلال رحلتها الأدبية الطويلة الثرية في فخ «الأدب النسوي» الذي تجنبته كل أديبة كبيرة.

عاشت تسفيتايفا عهد القيصر، ومرحلة ثورة ١٩٠٥، وعاصفة ثورة ١٩١٧، وبعدها الحرب الأهلية، ثم اعتصار الثورة بقبضة البطش الاستاليني، ورأت بعينيها كيف يحترق الشعراء والأدباء من أبناء جيلها مثل «آنا آخماتوفا» التي أعدم زوجها الشاعر جوميلوف عام ١٩٢١، واعتقل ابنها، ونُكِّل بها، وعاصرت تسفيتايفا في ديسمبر ١٩٢٥ الانتحار الغامض للشاعر العظيم سيرجي يسينين الذي وجدوه معلقًا بأنشوطة في حجرة بفندق

«إنترناشيونال» وقد ترك قصيدة يقول فيها: «ليس ابتكارًا أن تموت في هذه الحياة، وأن تحيا ليس أكثر ابتكارًا»! وكانت قصة انتحاره من الغموض بحيث أعيد التحقيق فيها عدة مرات، ولم تنقض خمس سنوات حتى عايشت مارينا انتحار مايكوفسكي في أبريل ١٩٣٠ برصاصة، بعد أن ترك رسالة يقول فيها: «تحطم زورق الحب على صخور الحياة». علمًا بأن مايكوفسكي كان يعد نفسه شاعر الطبقة العاملة والثورة، وقد حكت «آنا أخماتوفا» عن مايكوفسكي أنه كان يحب العبث بالمسدس، يجلس والمسدس في يده، يظل يديره إلى أن يقولوا له: «أبعدوا المسدس، إنه ليس لعبة، لماذا تحتفظ به؟». وكان مايكوفسكي يجيبيهم «ربما يكون نافعًا»! اتسع قلب تسفيتايفا للألم، مرة بعد أخرى حتى كأنما أصبح دفترًا يسجلون فيه هروب الشعر إلى الموت ورحيل الأمل، هكذا قدر لها أن تعاني موت الشاعر أوسيب ماندلشتام عام ١٩٣٨ مريضًا في معسكر اعتقال، ثم محاكمة المخرج مائير هولد وإعدامه رميًا بالرصاص عام ١٩٤٠! وليس أشد قسوة – كما يقول المغني الداغستاني أنور عليموف- من البسالة المحكوم عليها بالموت. وظل الشعر لدى مارينا منفذًا وحيدًا إلى النور، فكان عليها أن تكتب قصائدها في الحريق، ترحل إلى باريس عام ١٩٢٢، وتصف حياة الغربة هناك قائلة: «من سوء حظي أنني لست مغتربة في الغربة، أنا كما أنا، كل روحي وكياني مجتمعًا يمضي إلى هناك، ويأتي من

هناك. لا أحد يمكنه أن يتخيل الفقر الذي نعيش فيه في باريس، دخلي الوحيد يأتيني عن طريق الكتابة، أما زوجي فإنه مريض ليس بمقدوره أن يعمل، ابنتي تكسب قروشًا زهيدة بما تحيكه من قبعات، وعندي ابني المعتل، ونحن جميعًا نعيش على تلك القروش، بعبارة أخرى فإننا نموت من الجوع ببطء».

بعد ستة أعوام من الهجرة نشرت آخر ديوان لها باسم «بعد روسيا». عام ١٩٣٩ لا يعود بوسع الشاعرة الروسية احتمال وطأة الغربة أكثر مما احتملت، فتقرر العودة إلى روسيا؛ لتشهد مرة أخرى عنفوان البطش الاستاليني بالأدباء وبالحرية، وفظاظة البيروقراطية الحاكمة. تحاول أن تتشبث بالأمل في أن شعبها القوي سيجتاز كل ذلك إلى عالم جديد أكثر إنسانية، فتكتب في إحدى قصائدها تقول:

ستحيا يـا شعبي مهما كان

يحرســك الله مـا حييت

من وهبك قلبًا حلوًا كالرُمان

ومنحك صـدرًا كالجرانيت..

فلتزدهـر أيهـا الإنسـان

الذي قُـدَّ مـن الصخور

بقلبـك الحـار كالرُمـان

النقـي مثـل البللـــور

الشاعرة التي خايلها الأمل أن شعبها قادر على اجتياز المحنة، لم تستطع هي ذاتها أن تتحمل وطأة الثورة التي ابتلعت الشعراء فأنهت حياتها منتحرة.

تركت مارينا ثلاث رسائل، واحدة للشاعر «نيكولاي أوسييف»، وأخرى لمن سيتولى دفنها، وثالثة لابنها جريجوري تقول له فيها: «عزيزي، اغفر لي، لكن الوضع كان سيصبح أسوأ لو استمرت هذه الحال، إنني مريضة بشدة حتى إنني لم أعد أنا، اعلم أنني أحبك بقوة، وافهم أنه لم يكن بوسعي أن أعيش أكثر من ذلك، انقل لبابا و لـ«آليي» إذا رأيتها أنني أحببتهما حتى آخر رمق، ووضِّح لهما أنني فقط بلغت طريقًا مسدودًا».

هكذا رحلت الشاعرة، أما الطريق المسدود، فلم يكن مأزقها الخاص، أو معاناتها الذاتية، بل كان وضعًا تاريخيًا تكثَّف البطش فيه وانكسار الآمال كقطرات الماء على جدران روحها.

خلال إقامة مارينا تسفيتايفا في باريس كان الشاعر والأديب النمساوي المعروف راينر ماريا ريلكة يراسلها، فكتب لها ذات مرة يواسيها في غربتها قائلًا: «نحن الأعماق العائدة إلى السماء يا مارينا».

وبالرغم من عذابات الأدباء فقد محى الزمن أسماء الطغاة وبقيت القصائد الممنوعة، وما زال الناس يرددون مع سيرجي يسينين:

ضوء غامر ينبعث من القمر

وينسكب على سطحنا مباشرة

وفـي مكان مـا بعيـدًا

أسمــع غنـاء عندليب!

ذات يوم قال أبو طالب غفوروف وهو شاعر داغستاني كبير: «لا تطلق رصاص مسدسك على الماضي، لكي لا يفتح المستقبل عليك نيران مدافعه». وها هو المستقبل يفتح ذراعيه للأدباء والكتاب ويفتح نيران مدافعه على خصوم الحرية وأحلام الشعر.

***

ما هو الفن؟

قال الكاتب الفرنسي الكبير أناتول فرانس عن ليف تولستوي: «إننا نحني رءوسنا أمام تولستوي الذي يفوح منه عطر مملكة الجمال الفكري على الإنسانية جمعاء»، وقال عنه توماس مان: «إن قوة فن تولستوي فوق أي مقارنة». لقد ارتفع إنتاج تولستوي الأدبي ليصبح قمة من قمم الأدب الواقعي الكلاسيكي في القرن التاسع عشر، بفضل موهبته المذهلة، وإدراكه لدور الفنان الذي لخصه على النحو التالي: «إن الفنان، فنان فقط؛ لأنه يرى المواد، لا كما يرغب في أن يراها بل كما هي في الأصل». ولد تولستوي عام ١٨٢٨، وواصل الكتابة لمدة تزيد عن نصف قرن، وبعد وفاته عام ١٩١٠ كتب عنه لينين عدة مقالات، قال في واحدة منها: «لقد توفي تولستوي ومضت روسيا ما قبل الثورة، روسيا التي عبر هذا الفنان العبقري، عن ضعفها وقوتها في فلسفته، وصورهما في مؤلفاته، لكن في تراثه أشياء لم تذهب مع الماضي ... بل بقيت للمستقبل».

ولا شك أن الكثير من تولستوي سيبقى للمستقبل، لكي نتعلم منه، ولكن أهم ما يجب النظر إليه والتمعن فيه هو: منهج تولستوي الواقعي، وفهمه للفن، ودور الفن ... ويكشف هذا المقال الذي كتبه تولستوي بوضوح عن رؤية ذلك الفنان العبقري لماهية الفن، وحين يفرغ القارئ من مطالعة المقال سيكتشف «ماهية الفن» التي خلقت «الحرب والسلام»، و«آنا كارنينا»، وغيرهما من

روائع الروائي الكبير. إن هذا المقال يهدم بوضوح كل الأسس التي تقوم عليها النظريات التي تعد قوة الفن تكمن في جماله وأن دور الفن هو «الإمتاع»، أو هو الإمتاع فحسب. يقدم تولستوي تصوره للفن، باعتباره ضرورة رافقت التاريخ البشري كله، ويجيب الكاتب العملاق عن أسئلة ما زالت مطروحة: هل للفن هدف؟ أم أن الفن يستهدف المتعة الخالصة؟ بمعنى هل أن هناك دورًا محددًا لابد للفن أن يقوم به، أم لا؟ وسيجد القارئ هنا تحديد تولستوي للفن باعتباره وسيلة للتواصل الروحي بين البشر، بصفته شرطًا من شروط الحياة الإنسانية، مثله في ذلك مثل اللغة، وهو ـ مثل اللغة ـ يتخلل كل جوانب حياتنا، ويوسع تولستوي من فهم «الفن»، فيخرجه من الإطار الضيق الذي اعتدنا النظر في حدوده، ذلك أن الحياة الإنسانية بأكملها – حسبما يقول تولستوي: «ممتلئة، ومترعة، بمختلف أنواع الإبداع الفني من كل صنف، بدءًا من أغاني المهد، والنكات، والتقليد الكاريكاتوري، وزينة النساء، والبيوت، والملابس، حتى الطقوس الكنسية، ومواكب الجنازات. وكل ذلك نشاط فني». وليست: «العمارة والتماثيل والشعر والرواية، إلا أصغر قسط من ذلك الفن الواسع الذي نتعامل به مع بعضنا بعضًا في الحياة». ولا شك أن إدراك الفن على ذلك النحو، لا يوسع من مجالاته فحسب، لكنه يكشف أيضًا عن أن الفن ضرورة ملازمة للحياة، ذات هدف، وليس هدفه «الجمال» في حد ذاته،

بل التواصل، والتعارف الروحي بين البشر، والآن أترككم مع هذا المقال الممتع.

ما هو الفن!؟

ما هو «هذا الفن» الذي يعد مهمًا إلى هذه الدرجة وضروريًا للبشرية؟ بحيث يمكن لأجله التضحية ليس فقط بجهد الإنسان وعمله وحياته، بل وبكل ما يملك؟ ما هو الفن؟ كيف؟ أتسأل ما هو الفن؟! الفن هو المعمار، النحت، الرسم، الموسيقى، الشعر بكل أنواعه. هكذا سوف يجيبك الإنسان العادي «المتوسط»، الذي يحب الفن، بل وربما تكون هذه إجابة الفنان نفسه الذي يفترض أن القضية التي يتحدث عنها مسألة واضحة تمامًا، وأن كل الناس يفهمونها «هكذا» على نحو واحد. في هذه الحال فإني أسأله: لكننا نرى في العمارة أبنية بسيطة لا يمكن اعتبارها عملًا فنيًا، أضف إلى ذلك، أن هناك أبنية تدعي أنها من فن المعمار رغم أنها أبنية قبيحة، وغير موفقة، ولهذا لا يمكن لأحد أن يقر بأنها فن. فما الذي يتميز به موضوع الفن؟ هذا السؤال ينطبق أيضًا، بالضبط، على النحت، والموسيقى، والشعر. والحقيقة أن الفن بكل أنواعه، يقع بين حدين، الفائدة العملية التي تحد الفن من ناحية، والمحاولات الفنية الفاشلة التي تحده من ناحية أخرى. كيف نستخلص الفن من بين هذين الحدين؟ وحتى هذا السؤال، لن يربك الإنسان متوسط الثقافة، أو الفنان الذي لم يدرس بتعمق علم الجمال، وسيبدو له، أن تلك قضية محلولة

من زمان ومعروفة للجميع على أفضل نحو، وسوف يجيبك هذا الإنسان متوسط الثقافة: «الفن، هو النشاط الذي يفصح عن الجمال». في هذه الحالة اسأله: «حسنًا ... لو أن ذلك هو جوهر الفن، فهل تعدّ الباليه، والأوبريت أيضًا من الفنون؟» وسيرد عليك الإنسان متوسط الثقافة بالرغم من الشك الذي يساوره: «نعم، الباليه الممتع، والأوبريت الجميلة، فن أيضًا، بقدر ما يبرزان الجمال».

والآن، لا داعي ـ أكثر من ذلك ـ لأن تسأل هذا الإنسان المتوسط عما يميز «الباليه الممتع» و«الأوبريت الجميلة» عن «الباليه غير الممتع» و«الأوبريت غير الجميلة»، ذلك أن الإجابة هذه المرة ستكون صعبة عليه بالتأكيد، ولكن اسأل هذا الإنسان نفسه: هل يعد من الفن نشاط مصمم الأزياء، والحلاق، ومُزيِّن وجوه النساء في الباليه والأوبريت، وكذلك خياط الملابس، ومؤلف العطور، والطاهي؟ أيدخل كل ذلك في الفن؟ في أغلب الحالات سينفي أخونا أن نشاط الخياط والحلاق ومصمم الأزياء والطاهي، يدخل في نطاق الفن. وهنا يخطئ الإنسان المتوسط الثقافة بالتحديد؛ لأنه «إنسان متوسط» وليس اختصاصيًا، ولم يشغل نفسه بقضية علم الجمال. إذن، فإن إدراك الفن باعتباره «تجلي الجمال»، أمر ليس بهذه البساطة التي نظنها، وخاصة الآن، بعد أن صار أساتذة علم الجمال الجدد، يدرجون في «مفهوم الجمال» حواسنا، من لمس وتذوق

وشم، لكن هذا الإنسان، إما أنه لا يدري، وإما أنه لا يريد أن يعرف، فهو مقتنع تمام الاقتناع بأن كافة قضايا الفن يمكن حسمها بوضوح وبساطة بالقول بأن: «الجمال هو مضمون الفن». لكن ما هو هذا «الجمال» الذي يعد ـ حسب رأيه ـ مضمون الفن؟ ما هو هذا الجمال وكيف نحدده؟ ويحدث في أغلب الحالات، أنه كلما كان مفهوم كلمة ما مبهمًا وغير واضح، زادت ثقة الناس واعتدادهم وهم يرددون تلك الكلمة، متخذين ـ أثناء ذلك ـ هيئة الشخص العالم بأن المقصود بالكلمة أمر واضح وبسيط إلى درجة أنه لا داعي للحديث حول ما تعنيه الكلمة بالفعل، فمن المفترض بداهة أن مفهوم كلمة «الجمال» معروف مفهوم للجميع. هذا على الرغم من أن مفهوم هذه الكلمة، ما زال غير معروف، بل وما زال تحديده حتى الآن، من القضايا المفتوحة بلا حدود لمختلف الاجتهادات، وما زالت هذه القضية تُحلُّ بطريقة جديدة مع كل مؤلف في علم الجمال، هذا على الرغم من أنه قد مرت مائة وخمسون عامًا منذ أن تأسس علم الجمال (من سنة ١٧٥٠) بفضل «باوم جارتن»، وعلى الرغم من ظهور جبال من الكتب التي ألفها في ذلك الموضوع العلماءُ والأساتذةُ المختصون والمفكرون الذين اتسمت دراساتهم بالعمق.

كلمة «جمال» لا تعني لدينا بلغتنا الروسية، إلا ما يستهوي ويُعجب نواظرنا فحسب. مع أننا ـ في السنوات الأخيرة، شرعنا نقول: «تصرف وسلوك غير

جميل» وأيضًا: «موسيقى جميلة»، لكن ذلك ليس من صميم اللغة الروسية. فالإنسان الروسي الذي ينتمي لعامة الشعب، ولا إلمام له باللغات الأجنبية، لن يفهمك إذا قلت له: «إن الشخص الذي وهب غيره سروالَه الوحيد الأخير، قد سلك على نحو «جميل»، أو ما شابه ذلك، كأن تقول له: «إن الرجل الذي خدع صديقه قد سلك بشكل «غير جميل»، أو إذا قلت له: «هذه الأغنية جميلة». في لغتنا الروسية يمكن للسلوك أن يكون «طيبًا» أو «صالحًا»، أو «شريرًا»، أو «خبيثًا». كما أن الموسيقى يمكن أن تكون «عذبة مبهجة»، أو «حسنة»، أو أن تكون «غير عذبة»، و«ليست حسنة». لكن لا وجود لمثل هذه التعبيرات «موسيقى جميلة» أو «غير جميلة».

الجمال في لغتنا صفة يمكن أن تنطبق على الإنسان، الحصان، المنزل، المنظر، الحركة، أما فيما يتعلق بالسلوك، والأفكار، والناس، والموسيقى، فإننا ـ إذا أعجبنا شيء من ذلك ـ نقول: إنه شيء «صالح»، فإن لم يعجبنا قلنا: «إنه خبيث» أو «طالح»، ولكننا نطلق كلمة «جميل» فقط على ما يسر أبصارنا. وهكذا، فإن كلمة «صالح - جيد» تتضمن مفهوم «الجمال»، لكن العكس غير وارد: فمفهوم «الجميل» لا يحتوي على مفهوم «الصالح»، فإذا تكلمنا عن شيء «جيد» نقدره انطلاقًا من شكله الخارجي فإننا نعني بذلك أن هذا الشيء «جميل»، بينما لو قلنا: «جميل»، فإن ذلك لا يعني على

الإطلاق أن الشيء المحدد «جيد أو صالح». إن ملاحظة المعنى الذي اتسمت به في لغتنا كلمة: «جمال»، و«جميل»، بل وملاحظة الظاهرة ذاتها في لغات الشعوب التي أنشأت علم الجمال، يكشف عن المعنى الخاص الذي ضمنته تلك الشعوب كلمة «الجمال»، فقد تضمن «الجمال» عندها بالتحديد معنى: الصالح، الجيد، النافع[5].

والآن، ما هو جوهر ذلك المعنى؟ ما هو «الجمال» كما تفهمه الشعوب الأوروبية؟ ما هو مفهوم «الجمال» في واقع الأمر؟ هذا

المفهوم الذي يقبض عليه الناس بشدة لتحديد ماهية «الفن»؟ إننا نطلق كلمة «الجمال» بالمعنى الذاتي على كل ما يهبنا لذة أو متعة ما من المتع المعروفة. وبالمعنى الموضوعي، فإننا نسمي «الجمال» شيئًا ما، أشبه ما يكون بالمطلق، والكامل، شيئًا يقع خارج ذواتنا، لكن ... إذا كنا نتعرف (خارج ذواتنا) إلى ذلك «المطلق والكامل»، ونقر بوجوده؛ لأننا نتلقى ـ بفضل تجلي ذلك المطلق الكامل ـ نوعًا محددًا من المتعة، فإن التحديد الموضوعي للجمال في هذه الحالة، لن يكون سوى تعبيرًا عن الذات، والحقيقة أن إدراك «الجمال» بالمعنى الأول أو الثاني، يقودنا إلى الانطلاق من «المتعة المحددة التي يهبنا إياها، أي إننا نعد ما يعجبنا هو «الجمال»، الذي لا يشترط أن يحرك فينا شوقًا لشيء ما، ولقد تعددت محاولات تحديد «الجمال المطلق في

حد ذاته»، بدءًا من القول بأنه: «محاكاة الطبيعة»، و«التوافق والتلاؤم»، و«ترتيب الأجزاء على نحو متماثل» (السيمترية)، و«التناسق والانسجام»، و«وحدة التنوع»، إلى آخر كل ذلك. والحق أن كل تلك التفسيرات، إما أنها لا تحدد شيئًا على الإطلاق، أو أنها تلتقط وتحدد فقط بعض الملامح المميزة لبعض حالات الإبداع الفني، ومن ثم فهي لا تشمل كافة جوانب ما أعده الناس دومًا، وما يعدونه الآن «الفن».

ليس هناك تحديد موضوعي للجمال، والتحديدات القائمة الآن، الميتافيزيقية، أو المستقاة من التجربة، تفضي كلها إلى تحديد ذاتي لماهية الجمال، وعلاوة على ذلك فمن الغريب القول بأن الفن هو الشكل الذي يتجلى فيه الجمال. (فالجمال هو ما يسرنا ويعجبنا دون أن يحرك فينا الشوق لشيء ما)، ويقوم علم الجمال الراهن على الآتي: ما دمنا قد اعترفنا لإبداع فني ما بأنه ممتاز (لأنه يعجبنا)، فإن علينا أن ننشئ نظرية للفن، يجري وفقها اعتبار كل إبداع فني - يعجب وسطًا محددًا من الناس - فنًا. وهكذا تنشأ قاعدة فنية تعد الإبداع الفني الذي يلاقي إعجاب الناس فنًا: (فيدياس، سوفوكل، هوميروس، رافائيل، باخ، بيتهوفن، دانتي، شكسبير، جوته، إلخ)، ومن ثم فلابد لتلك القاعدة الفنية، وللحكم الجمالي أن يتحدد على نحو معين بحيث يتسع لكل ذلك الإبداع الفني، إن الحكم على «أهلية» ومغزى الفن، يتم انطلاقًا من «مطابقة

الفن أو عدم مطابقته» للقواعد الفنية التي وضعناها، القواعد التي تصادفنا كثيرًا في علم الجمال، هذا على حين أنه من المفترض لنشاط فكري (علم الجمال) يطلق على نفسه صفة «العلم» أن يقوم بتحديد خواص وقوانين الفن، ومفهوم «الجمال» (إذا كان الجمال هو مضمون الفن)، وخاصية «التذوق» وأهميته (إذا كان التذوق هو مفتاح الإجابة عن «ماهية الفن»)، وبعد كل ذلك، وعلى أساس من تلك القوانين، نقر بأن الفن هو الإبداع الذي يندرج تحت تلك القوانين، وما لا يندرج تحتها، فإننا ننحيه خارج دائرة الفن، أما نظرية الفن القائمة على «الجمال» والتي تطرح نفسها في ملامح جمالية مبهمة، فإنها لا تزيد في الحقيقة عن كونها اعترافًا بأن الفن الجيد، هو ما أعجب، وما يعجب الناس، أي وسطًا محددًا من الناس. والحق أنه لتحديد طبيعة أي من الأنشطة الإنسانية، لتحديد أهمية هذا النشاط ومغزاه، لابد لنا أن نفهم دلالة ومعنى ذلك النشاط؛ ولهذا، لابد قبل كل شيء، من تأمل ذلك النشاط وتفحصه في حد ذاته، في ارتباطه بأسبابه ونتائجه، وليس فقط من زاوية المتعة التي نتلقاها من ذلك النشاط، فنحن، إذا اعتمدنا فكرة أن هدف أي نشاط إنساني، ينحصر فقط في «إمتاعنا»، وبناء على ذلك حددنا «ذلك النشاط»، فلا شك أن تحديدنا ذاك سيكون باطلًا، وهذا هو بالضبط ما تم بصدد تحديد «الفن». لكن ... إذا تناولنا موضوع الطعام والأكل، فهل يتصور

أحدٌ أن تخطر بعقل ما فكرةُ أن أهمية الطعام تكمن في المتعة التي نحسها ونحن نلتهمه؟! بينما يعلم كل إنسان أن إرضاء ذوقنا في الطعام لا يمكن أن يكون أساسًا لتحديد أهمية الطعام! لهذا، لا يمكننا أن نفترض، بل وليس لدينا أي حق لكي نفترض أن غذاءنا الذي اعتدنا عليه (بالفلفل، والجبن السويسري، والنبيذ)، هو أفضل طعام إنساني؛ لأنه يعجبنا نحن! بالنسبة للجمال أيضًا، فإن مفهوم «ما يحوز إعجابنا» لا يمكن أن يصلح أساسًا لتحديد ماهية الفن، كما أن مجموعة من المواضيع التي تسرنا، لا يمكن أن تشكل نموذجًا لما يجب أن يكون عليه الفن.

إن التصور القائل بأن هدف ومغزى الفن يكمن في المتعة التي يوفرها لنا، يشبه فكرة الناس (المتوحشين مثلًا) الذين يقفون عند أدنى درجات السلم الحضاري حين يتصورون أن هدف الطعام ومغزاه يكمن بالذات في المتعة التي نحسها ونحن نتناوله، ولكي نصل إلى تحديد دقيق للفن، يجب علينا أولًا أن نكف عن النظر إليه بصفته وسيلة للمتعة، وأن ننظر إليه باعتباره شرطًا من شروط الحياة الإنسانية، إن هذه الرؤية للفن، ستجعلنا ندرك أن الفن هو أحد وسائل الاتصال بين الناس، إن كل إبداع فني يضع المتلقي في علاقة تواصل محددة، سواء بالعمل الفني، أو بأولئك الذين (في الوقت نفسه مع ذاك المتلقي، أو قبله، أو بعده) يتلقون نفس الانطباع الفني، وبالضبط، كما أن الكلمة

تحمل الفكرة وتنقل الخبرة للناس باعتبارها (الكلمة) وسيلة لتوحيد البشر، فإن الفن يقوم بنفس الدور، وخاصية الفن كوسيلة للتواصل بين البشر تكمن في أن الناس ينقلون لبعضهم البعض عبر الفن ـ عالمهم الروحي، ومشاعرهم، على حين أنه ـ في اتصال الناس عبر الكلمة ـ يقوم إنسان واحد بنقل أفكاره لإنسان آخر. إن النشاط الفني يعتمد أساسًا على أن الإنسان حين يتلقى بالسمع أو البصر تعبيرًا عن شعور إنسان آخر، قادرٍ على معاناة نفس الشعور، الذي عبَّر عنه الآخر. وسأضرب مثلًا بسيطًا: إذا ابتسم شخص، يشعر الإنسان الآخر بالبهجة، وإذا بكى شخص، فإن الإنسان الذي يسمع بكاءه يصبح حزينًا، إذا انفعل إنسان وسلك على نحو عصبي، فإن هذه الحالة ستنتقل إلى من ينظر إليه، وإذا أشاع إنسان بحركاته ونبرة صوته النشاط الحزم، أو على العكس من ذلك، إذا أشاع من حوله الخمول والكآبة، فإن هذه الحالة ستنتقل وتسري إلى من حوله، وإذا شرع إنسان في الصراخ والتأوه معبرًا عن آلامه، فإن الشعور بتلك الآلام ينتقل إلى الآخرين، وإذا أخذ إنسان يفصح عن شعوره بالانبهار، أو الإجلال، أو الرعب، أو أخذ يكشف عن احترامه لمواضيع محددة، أو تقديره لأشخاص بعينهم أو ظواهر معينة، فإن عدوى تلك المشاعر ستنتقل إلى الآخرين، فيعانون نفس مشاعر الانبهار، والإجلال، والرعب، والاحترام لنفس المواضيع، والأشخاص، والظواهر. إن النشاط الفني،

يقوم على قدرة البشر على استقبال وتلقي عدوى مشاعر الآخرين.

ومع ذلك، إذا استطاع إنسان أن يعدي إنسانًا آخر، أو أناسًا آخرين على نحو مباشر، سواء بهيئته، أو بالأصوات التي يصدرها، أو استطاع أن يرغم إنسانًا آخر على التثاؤب (في نفس الوقت الذي يشعر فيه بحاجته إلى التثاؤب)، أو استطاع (وهو في الوقت نفسه يبتسم لسبب ما، أو يبكي، أو يعاني) أن ينقل تلك المشاعر إلى الآخرين، فإن ذلك ليس فنًا بعد. ذلك أن الفن يبدأ فقط، حين ينقل الإنسان مشاعره التي يعانيها إلى الآخرين، بهدف محدد، حينما يستحضر لتلك المشاعر ـ من جديد ـ إلى نفسه، ثم يعبّر عنها بإشارات خارجية معينة. وإليكم، أبسط مثال يوضح ما أقصده: فلنفترض أن هناك صبيًا يشعر بالرعب لالتقائه بذئب، وأن ذلك الصبي يقص ما جرى له مع الذئب، وأنه لكي ينقل إلى الآخرين الذعر الذي شعر به، راح يصور نفسه، وحالته عند مواجهته للذئب، فوصف الغابة التي كان بها، وسيره المطمئن، ثم هيئة الذئب، وتوثبه، والمسافة التي كانت تفصل بينهما، إلى آخر كل ذلك، فإذا كان الصبي ـ أثناء قصته تلك كلها ـ يعاني مرة أخرى الذعر الذي شعر به، واستطاع أن ينقل عدوى ذلك الذعر إلى مستمعيه وأجبرهم على معايشة ذلك الشعور، فإن ذلك «فن». أما إذا كان الصبي لم ير على الإطلاق ذلك الذئب المزعوم، وكل ما في الأمر أنه غالبًا ما ارتعب لاحتمال

وقوع مثل هذه الحادثة، وإذا كان الصبي قد رغب في عدوى الآخرين بالشعور الذي شعر به، فابتدع تلك المواجهة مع الذئب، وقصها هكذا، بحيث أن قصته أثارت في مستمعيه «شعوره هو» حين تخيل لقاءه بالذئب، فإن هذا أيضًا «فن». على ذلك النحو يتمثل «الفن». أيضًا: حين يعايش الإنسان في الخيال أو في الواقع رعب المخاوف، أو روعة المتعة، فيعبر عن ذلك على لوحة من قماش، أو يستنطق المرمر تلك المشاعر، بحيث يعدي الآخرين بها. ومن الفن أيضًا، إذا مر الإنسان بشعور محدد، أو تلبسه، كأن يتقمص حالة المرح، أو البهجة، أو الحزن، أو القنوط، أو النشاط، أو الكآبة، ويصور لنا الكيفية التي ينتقل بها من شعور إلى آخر، معبرًا بالأصوات عن تلك المشاعر، معبرًا بحيث تنتقل عدوى تلك المشاعر إلى المستمعين، فيشعرون بها، كما شعر بها هو. إن المشاعر الإنسانية غنية ومتنوعة بلا حدود: المشاعر المتأججة، والضعيفة، والعظيمة، والمنسحقة، والحمقاء، والطيبة، ولو أن هذه المشاعر تمكنت من عدوى القارئ، أو المشاهد، أو المستمع، فإنها تشكل مادة وموضوعًا للفن. إن الإحساس بإنكار الذات، أو الاستكانة للقدر، أو المشيئة الإلهية، وكل ما تنقله الدراما؛ أو انبهار العاشقين الذي تصفه الرواية، أو الشعور بالرغبة العنيفة الذي تصوره اللوحة؛ أو الإحساس بالنشاط والتأهب الذي تعدينا به مارشات الموسيقى الاحتفالية، أو الشعور الذي يتسرب

إلينا من الرقص، أو الفكاهة وليدة النكتة المضحكة، أو الشعور بالهدوء والراحة الذي ينتقل إلينا من منظر مسائي؛ أو على أغاني الهدهدة. كل ذلك هو الفن، إن الفن هو قدرة المؤلف على عدوى المشاهد أو المستمع بما يشعر به المؤلف، إن الإبداع الفني يكمن في قدرة المؤلف على أن يستدعي إلى نفسه شعورًا مرَّ به، يستدعيه عن طريق الحركة المباشرة، أو الخطوط، أو الألوان، أو الأصوات، أو النماذج، أو الصور الفنية التي تتخلق بالكلمات، ونقل هذا الشعور على النحو الذي يجعل الآخرين يشعرون بالشعور نفسه. الفن هو هذا النشاط الإبداعي الإنساني، المتمثل في أن أي إنسانٍ فردٍ، ينقل بوعي، وبإشارات خارجية، المشاعر التي شعر بها أو يشعر بها للآخرين، بحيث يشعرون نفس المشاعر. ليس الفن إذَن كما يقول الميتافيزيقيون تجليً أفكار مبهمة من نوع أو آخر، وليس الفن كما يقولون تجليً الجمال، الفن أيضًا ليس لعبة، كما يحلو لعلماء علم الجمال الفسيولوچيين أن يرددوا، فالفن لديهم لعبة يسرِّب فيها الإنسان طاقاته الزائدة. الفن أيضًا ليس تنفيسًا عن الانفعالات بحركات خارجية، وليس متعة. الفن وسيلة للاتصال والتواصل بين البشر[6]، وسيلة توحدهم في نفس المشاعر ذاتها، وعَبرَ هذه المشاعر، فالفن ضرورة للحياة، وللتقدم، لخير إنسان محدد، ولخير البشرية كلها.

وبفضل قدرة الإنسان على إدراك أفكار الآخرين

المصوغة في كلمات، بفضل هذه القدرة، يمكن لكل إنسان أن يعرف كل ما أنجزته البشرية من أجله في هذا المضمار، بل ويمكنه في الوقت الحاضر، أن يشارك الآخرين النشاط الفكري، وبفضل تلك القدرة يصبح بوسعه أن ينقل الأفكار التي استوعبها، وأفكاره الخاصة التي ظهرت بفضل ما استوعبه، بوسعه أن ينقل كل ذلك إلى معاصريه، وإلى من يأتون من بعدهم، وهذا هو الوضع بالضبط بالنسبة للفن، فبفضل قدرة الإنسان على تلقي عدوى مشاعر الآخرين، عبر الفن، يصبح متاحًا أمامه ـ في مجال المشاعر ـ كل ما عانته البشرية من أحاسيس قبله، وتصبح متاحة أمامه مشاعر المعاصرين له من البشر، بل والمشاعر التي مرَّت بها النفوس قبل آلاف الأعوام، كما يصبح بوسعه أن ينقل مشاعره إلى الآخرين، ولو لم تتوفر للبشرية القدرة على استيعاب وتلقي كل تلك الأفكار التي ابتدعها الآخرون من قبل وانتقلت إلينا عبر الكلمات، ولو لم تتوفر للبشرية القدرة على نقل أفكارها إلى الآخرين، لكان الناس أشبه ما يكونوا بالوحوش، ولو لم تتوفر أيضًا قدرة الإنسان الثانية على تلقي عدوى الفن، لكان من الصعوبة بمكان ألا يصبح البشر أكثر همجية، والأهم: أكثر تشتتًا وتبعثرًا، يناصبون بعضهم بعضًا العداء والبغضاء؛ ولذلك، فإن للإبداع الفني، وللنشاط الفني دورًا غاية في الأهمية، يماثل أهمية اللغة، ويتمتع بقبول وانتشار، مثل انتشار اللغة وذيوعها، وكما أن اللغة والكلمة تؤثر فينا،

ليس فقط عبر المواعظ، والأحاديث، والكتب، بل وعبر كل تلك الحوارات التي ننقل بها خبراتنا وأفكارنا لبعضنا بعضًا، فإن الفن أيضًا (بالمعنى العام للفن) يتخلل حياتنا كلها، وينتظم كافة جوانبها، ولكننا نسمي، فقط بعض ظواهر الفن بالفن، بالمعنى الضيق للكلمة، بالمعنى المتخصص. لقد اعتدنا أن نفهم من كلمة «الفن» فقط ما نقرأه، أو نسمعه أو نراه على منصة المسرح أو في قاعات الحفلات الغنائية، أو في المعارض، أو العمارة، والتماثيل، والشعر، والرواية، لكن ذلك كله، ليس إلا قسطًا، فقط قسطًا من ذلك الفن الواسع الذي نتعامل به مع بعضنا بعضًا في الحياة؛ ذلك أن الحياة الإنسانية بأكملها، ممتلئة، مترعة، بمختلف أنواع الإبداع الفني من كل صنف، بدءًا من أغاني المهد، والنكات، والتقليد الكاريكاتوري، وزينة النساء، والبيوت، والملابس، وأدوات البيت، حتى الطقوس الكنسية ومواكب الجنازات، كل ذلك نشاط فني، وإبداع، ونحن لا نطلق كلمة «الفن» ـ بالمعنى الضيق للكلمة ـ على كافة أشكال النشاط الإبداعي الإنساني الذي ينقل المشاعر إلى الآخرين، ولكننا نطلقها على جزء من كل ذلك، الجزء الذي استخلصناه من الكل، لسبب ما، ورأينا أنه يتمتع بأهمية خاصة، لقد أضفى البشر دائمًا أهمية خاصة على ذلك الجزء من النشاط الفني، الجزء الذي يعبر عن مشاعرهم وينقلها، تلك المشاعر المستمدة من الوعي الديني، وعدوا ذلك الجزء الصغير من الفن هو «الفن»

بكل معاني هذه الكلمة. على هذا النحو رأى الأقدمون الفن، على هذا النحو رآه: سقراط، وأفلاطون، وأرسطوطاليس. وعلى هذا النحو أيضًا رأى الفنَّ المسيحيون القدامى، ودعاة اليهودية، كذلك فهمه المسلمون[7]، بل وكل الشعوب المتدينة في عصرنا الحالي. إن بعضًا من معلمي البشرية مثل أفلاطون في «جمهوريته»، والمسيحيين الأوائل، وقسمًا من المسلمين المتشددين، والبوذيين، كانوا في الأغلب الأعم ينكرون أي فن، وقد اعتمدت نظرتهم تلك ـ عكس النظرة الشائعة الآن والتي ترى أن قيمة الفن تتحدد وفق ما يجلبه من متعة ـ اعتمدت على أن الفن ـ عكس الكلمة التي يمكننا ألا ننصت إليها ـ شديد الخطورة، وتكمن خطورته بالتحديد في قدرته على عدوى البشر ضد إرادتهم، وأن ما ستفقده البشرية بمطاردة وتنحية الفن أقل بكثير مما ستفقده إذا أطلقت الحرية لأي فنٍّ من أي نوع. ولا شك في خطأ تلك النظرة التي أشرنا إليها أعلاه؛ لأن أصحاب تلك النظرة كانوا ينكرون ما لا يمكن إنكاره أي: إن الفن أحد الوسائل الضرورية للتواصل بين البشر، ومن دونه لم يكن للبشرية أن تحيا وتتطور، ومع ذلك، فإن النظرة الأخرى التي يعتنقها الناس في مجتمعنا الأوروبي المتحضر، لا تقل خطأ عن نظرة القدماء التي تنكر الفن، فالناس في مجتمعنا وفي عصرنا يقرون بكل فن ما دام يستهدف الجمال، أي: توفير المتعة للبشر، ففيما سبق من أزمنة،

خشي القدماء أن تندرج في الفن المواضيع التي قد تفسد الناس، وتدفعهم للفجور، ولهذا حرَّموا كل فنٍّ، أيًا كان، أما الآن، فإن الناس في مجتمعنا المعاصر يخشون أن يفقدوا أية متعة يهبها لهم الفن؛ ولذلك يسعون لحمايته على إطلاقه ما دام يوفر لهم المتعة، ولكني أعتقد أن هذا الضلال الأخير، أشد فظاظة من الضلال الأول، وأكثر خطرًا وضررًا على البشرية.

ليف تولستوي - ١٨٩٨

---

5 في لغتنا العربية، تفسر معظم قواميس اللغة كلمة «جمال» على أنها: الحُسن، والشيء الحسن، ضد السيئ. كما أنه إذا حَسُنَ الشيء حُسنًا، فإنه قد «جُمِّلَ»؛ أي صار جميلًا، فكلمة «جمال» بمعنى الحسن، تتضمن معنى الجودة، والصلاح، والنفع، وكلمة «الأدب» أوضح في ذلك المجال، فهي تتضمن: المعاقبة على الإساءة، والتقويم، وكذا «الأدب الفني»، وكلمة: «ثقافة» المشتقة من «ثقف» الشيء أي أقام المعوجَّ منه، ففي لغتنا أيضًا تتضمن كلمات: الأدب، الثقافة، الجمال، معنى: الشيء الصالح، والنافع. (المترجم).

6 «الفن والحياة الاجتماعية» مقالة بليخانوف الشهيرة، وفيها يحدد الفن تحديدًا مقاربًا لتولستوي، فيقول: «الفن وسيلة من وسائل التعاشر الروحي بين الناس». (المترجم).

7 كان تولستوي ملمًا بمختلف جوانب الدين الإسلامي، وثمة رسائل كثيرة تبادلها مع الإمام محمد عبده، تكشف عن تقدير الإمام محمد عبده لتولستوي. (المترجم).

نجيب سرور والمسرح الروسي

تأثرت الثقافة المصرية بوضوح بالرواية وبالقصة القصيرة الروسية، فقد حكى يحيى حقي أنه مع نشأة القصة القصيرة في العشرينيات بمصر تبلورت مجموعتان من الأدباء تلازمان إحدى المقاهي؛ إحداهما تناصر «موباسان» والأخرى «تشيخوف»، ولا تكفان عن الشجار والنقار فيما بينهما. الرواية الروسية تركت تأثيرها أيضًا حتى إن نجيب محفوظ عندما سئل وهو يناهز التسعين عن الرواية التي ما زال يذكرها قال: «الحرب والسلام» لليف تولستوي. الشعر الروسي لم يترك أثرًا تقريبًا لصعوبة ترجمة الشعر عامة، وعدم انتشار اللغة الروسية، واكتفى المسرح المصري خلال نشأته بالكتاب الفرنسيين والإنجليز لأسباب كثيرة، ففي عام ١٩٥٥ قدم إسماعيل يس مسرحية «المفتش العام» لنيقولاي جوجول معربة وضحك معها الجمهور المصري طويلًا، ثم أعاد عبد المنعم مدبولي تقديمها بعد ذلك في الستينيات مع بداية البث التلفزيوني. هناك أيضًا مسرحية «الناس اللي تحت» لنعمان عاشور، التي كان واضحًا فيها البناء الفني لمسرحية جوركي «الحضيض». ما عدا ذلك لا نكاد نلمس أثرًا للمسرح الروسي في الحركة المسرحية باستثناء عروض أعمال أنطون تشيخوف من وقت لآخر. والعجيب أن تلك الأعمال عرضت لكن من دون أن تترك أثرًا في إبداع مصري محدد، لكن لدينا نموذجًا آخر فريدًا هو الشاعر

والكاتب المسرحي نجيب سرور الذي سافر عام ١٩٥٧ إلى الاتحاد السوفيتي لدراسة الإخراج المسرحي مع أول بعثة طلابية لدراسة العلوم الإنسانية أرسلها جمال عبد الناصر إلى روسيا، وبعد سنوات من بقاء نجيب سرور في روسيا طالب نجيب في مؤتمر حاشد في موسكو بإطلاق سراح اليساريين المصريين المعتقلين حينذاك، ففصلته الحكومة من البعثة وسحبت جواز سفره، وتفاديًا لتعريض العلاقات المصرية السوفيتية للحرج دعاه الجانب الروسي للسفر إلى المجر، وبالفعل توجه إلى هناك عام ١٩٦٣، وعاد بعدها بعام إلى مصر، وبعودته إلى القاهرة فتحت أمامه كل أبواب العمل، فعاش نجمًا لامعًا نحو أربعة عشر عامًا يمثل ويخرج ويكتب وينشر ويملأ مقاهي القاهرة وباراتها ضحكًا وصخبًا، وفي عام ١٩٦٤ قدم نجيب أولى أعماله وأفضلها «ياسين وبهية» إخراج كرم مطاوع، وعندما عرض العمل على مسرح الجيب في نوفمبر ١٩٦٤ وقع النقاد في - على حد شهادة د. أمين العيوطي- «في حيرة». فقدر البعض أن العمل قصيدة شعرية طويلة، وقدر آخرون أنها ملحمة شعرية وعدها د. العيوطي محاولة للمزج بين المسرح والرواية، ولم يكن المسرح الشعري العربي قد عرف تجربة كتلك من قبل، ولم ينتبه أحد إلى أن نجيب سرور كان يقوم بنقل شكل «الرواية الشعرية» من الروسية إلى المصرية لأول مرة، وأنه كان في ذلك يحذو حذو أمير الشعراء الروس ألكسندر

بوشكين في روايته الشعرية «يفجيني أونيجين» (١٨٣١) التي تأثر بها نجيب تأثرًا شديدًا خلال دراسته في روسيا، وكان بوشكين نفسه قد نقل هذا الشكل عن بايرون في عمله «دون جوان» الذي ظهر في ١٨١٨. والرواية الشعرية نوع من الشعر السردي يجمع بين الوصف الموضوعي للأحداث والشخصيات مع تدخل مباشر من المؤلف وطرحه لنظرته الخاصة. الأكثر من ذلك أن نجيب كتب عمله «ياسين وبهية» في لوحات متتالية كما فعل بوشكين بالضبط، وقدم لها بمفتتح كما عند بوشكين، لكنه جعل عمله يتألف من إحدى عشرة لوحة، وهي عند بوشكين عشر لوحات فقط، وعدَّ نجيب سرور رائعته ياسين وبهية جزءًا أولَ من ثلاثية تضم «آه ياليل يا قمر» ١٩٦٦، و«قولوا لعين الشمس» ١٩٦٧. بعد ذلك توالت أعمال نجيب المسرحية لكنها كانت كضوء النجوم التي تخبو بالتدريج، لا أظن أن نجيب كتب عملًا أفضل من ياسين وبهية، وعاش نجيب بعد ذلك لحظة مزدوجة عجيبة جمع فيها بين الصعود إلى القمة والانحدار إلى السفح، ففي الوقت الذي كانت فيه أخبار نجاحاته الفنية تملأ الصحف كانت أخبار تدهور حياته الشخصية تنتشر بالقدر نفسه بعد مأساة زواجه من ممثلة مغمورة هجاها فيما بعد بقصيدته الطويلة الشهيرة «أميات».

تصادف أنني تعرفت إلى نجيب سرور في سنوات نجاحه الأولى في القاهرة، ورأيت حينذاك الشاعر الذي

وصفه صديقه أبو بكر يوسف بقوله: «ابتسامة عريضة وعينان ضيقتان شديدتًا الذكاء والمكر، تشعان بالمرح والثقة بالنفس»، ثم التقيت به في سنواته الأخيرة فرأيت إنسانًا يتمنى لو أنه طعن نفسه بخنجر أمامك، وكنت أرى أمامي وهو يخاطبني واحدة من أعجب المآسي، فقد عصفت المخاوف والهواجس بنفس الفنان الحساسة وتكالبت عليه، وبرز في روحه يأسٌ يلطم موهبته ويخلخلها ويسوقه لعدم الإيمان بأية قيمة، وفي سنواته الأخيرة رأيت كيف تكون الموهبة أحيانًا أكبر من احتمال النفس القلقة. كيف يكون الشعر أحيانًا أقوى من احتمال الشاعر، كانت خيول الشعر تقوده إلى المستقبل، لكن مخاوفه ترتد به إلى الخلف، وقد التهم هذا التناقض المأساوي حياته القصيرة المتوهجة التي أغنى خلالها المسرح والشعر بإبداعه وفنه.

***

مهزلة نجم ومأساة كاتب

ثمة مقولة شهيرة؛ إن التاريخ يكرر نفسه مرة في شكل مأساة ومرة في شكل مهزلة، حدث ذلك معي في موسكو عام ١٩٨٧، وكنَّا أنا وصديقة مصرية عزيزة نقطع الممر الرئيسي في بهو أكبر فنادق موسكو حين جذبتني فجأة من ذراعي وصاحت «مارسيلو ماستروياني يا أحمد»!

نظرتُ حيث أرسلت بصرها فرأيت أمامي مباشرة شخصًا طويلَ القامة رافع الرأس بزهو، مبتسمًا بسمة النجم المنير، ومن عنقه تدلى حتى الأرض تقريبًا وشاحٌ أحمرٌ طويلٌ على بالطو أصفر مفتوح، كررث هي «ماستروياني يا أحمد»! قلت لنفسي: «إذن هذا هو نجم الشاشة العالمي بشحمه ولحمه!»، همست الصديقة برجاء حار وبصرها مثبت على النجم العالمي «عاوزه أتصور معاه»!

كان ذلك في المؤتمر الذي بادر إليه ميخائيل جورباتشوف مبتدع سياسة إعادة البناء والشفافية، ودعا إليه كل نجوم الشاشة وكبار المفكرين والأدباء والسياسيين من مختلف أنحاء العالم، كنتُ أعمل مراسلًا صحفيًا مُعتمَدًا لصحيفة عربية، وقالت لي تلك الصديقة العزيزة: «لابد أن أحضر هذا المؤتمر بأية طريقة، لا يمكن أن أفوت فرصة رؤية كل أولئك النجوم». قلت لها: «طيب، سأستخرج لك تصريحًا

بدخول الفندق حيث يقيم الضيوف على أنك المصورة الصحفية للجريدة شرط أن تضعي كاميرا على كتفك». قالت: «أنا أضع كاميرا ومعمل تحميض صور كمان، بس أشوف النجوم دول»!

وهكذا دخلنا إلى الفندق في اليوم الأول، ورأينا أمامنا صوفيا لورين مستريحة على أريكة وبيدها فنجان قهوة، وبعدها بعدة خطوات رأينا أمامنا - على حد قول الصديقة - ماسترورياني العظيم، ثم اخترقت أذني صيحة متكررة «ماسترورياني يا أحمد، عاوزه صورة معاه»!

على طريقة المصريين في الحسين والأزهر حين يلتقون أجنبيًا تقدمت من الشخص الماسترورياني، وقلت له بأدب وبإنجليزية موجزة «ممكن صورة عشان ناس مصريين معجبين؟». فهزَّ رأسه موافقًا بأريحية وهو ما زال مبتسمًا، فوثبت صديقتي إلى جواره وشبكت ذراعها بذراعه مبتسمة والتقطت لهما الصورة التاريخية.

في وقت متأخر من تلك الليلة كانت الأخت المصرية قد اشترت طوابع بريد وخمسين مظروفًا دسّت في كل منها صورتها مع النجم العالمي مرفقة بعدة كلمات لكل من تعرفه من الأهل والأصدقاء في القاهرة «صورتي مع ماسترورياني»! ولم تنم قبل أن تضع المظاريف في صناديق البريد لتتخذ طريقها بالنبأ السعيد إلى القاهرة.

صباح اليوم التالي عرجتُ عليها لأصطحبها إلى الفندق، وجدتها جالسة رأسها محنيٌ على الصحف التي غطت أنباء المؤتمر ساهمة مكسورة الخاطر، سألتها بدهشة: «مالك؟». قالت بتنهيدة: «الجدع اللي اتصورت معاه طلع مش ماسترويانى!». تعجبت «إزاي؟». قالت: «الجرائد نشرت اليوم صورة ماسترويانى. مش هو، شوف!». ناولتني صحيفة، تأملت صورة ماسترويانى، الشخص الذي التقطنا الصورة معه كان به شبه خفيف من هذا لكنه بالقطع لم يكن الماسترويانى الأصلي الذي يُعتد به!

حاولت أن أهون عليها، فصاحت: «مش هو ماسترويانى مش مشكلة، بس مين بقى الأفاق الذي تكرم وسمح لنا بالتقاط صورة مع فخامته؟». قلت: «الرجل لم يقل إنه فلان، أنتِ التي افترضت هذا». قالت: «تلاقي القاهرة كلها بتضحك عليَّ دلوقت»! وأضافت بصوت خفيض: «فضيحتي بقت بجلاجل»! وانفجرنا بالضحك نحن الاثنين.

مهزلة أن تتخيل إنسانًا ما في صورة ويتضح أنها ليست حقيقته، وحين يتكرر ذلك الخطأ فإنه يأتي في المرة الثانية في شكل مأساة، هذا ما حدث في المؤتمر نفسه وعلى نحو مؤسف مع أديب كبير هو جنكيز أيتماتوف!

كان أيتماتوف أحد أشهر الأدباء السوفيت في العالم، وكان جديرًا بتلك الشهرة بفضل رواياته البديعة

الشامخة، التقيت به في موسكو لأول مرة عام ١٩٧٨ عندما كنت أنهي رسالة الماجستير، وكانت روايته الشهيرة «جميلة» جزءًا أساسيًا من بحثي في الأدب المقارن. التقيت به في منزله وكان لقاءً سريعًا تعرف خلاله على موضوع البحث بدون أن يتكلم تقريبًا، وترك عندي انطباعًا قويًا بأنه إنسانٌ يحيا تحت ضغوط كثيرة مرهقة، كان مقتضبًا، جهمًا، كأنما اقتطع الدقائق ليس من وقته بل من لحمه، في حينه لم أستطع أن أفسر لنفسي أسباب ذلك الانطباع، لكن السنوات اللاحقة تكفلت بإظهار تلك الأسباب.

ولد أيتماتوف عام ١٩٢٨ في بداية المرحلة الاستالينية في قرية «كيشلاكي كشكير» المتواضعة في بلد جبلي فقير هو «قرغيزيا». كان والده توريكول أيتماتوف كاتبًا اعتقلته السلطات عام ١٩٣٧ وأعدمته بعد ذلك بسنة خلال سنوات المطاردة للأدب والأدباء، ولا أعتقد أن بوسع أي إنسان أن ينسى أو يغفر لسلطة ما إعدام والده، وكان أمام أيتماتوف طريقان فقط: إما أن يصبح محتجًا ثائرًا يجاهر بعدائه للسلطة، ومعنى ذلك في تلك الظروف أن يُحرم من أية فرصة للكتابة والنشر بل وقد يتعرض للمصير ذاته، وإما أن يخفي أيتماتوف ذلك العداء بعيدًا في أعماق نفسه؛ ليقول كلمته بطريقة أخرى. وأظن أنه التزم ذلك الطريق وأن الحذر هو الذي رسم خطواته كلها لاحقًا، حتى أوشكت الدولة السوفيتية البوليسية على التهدم.

أنهى أيتماتوف معهد الاقتصاد الزراعي في قرغيزيا عام ١٩٤٨ ثم عمل سكرتيرًا لمجلس سوفيت بإحدى القرى، وبدءًا من عام ١٩٥٢ شرع ينشر قصصه القصيرة، ثم التحق بمعهد جوركي للأدب في موسكو عام ١٩٥٦، وبعد ذلك أصبح رئيسًا لتحرير مجلة «قرغيزيا الأدبية»، ولم يكن لأيتماتوف في ظل السلطة السوفيتية أن يصبح رئيس تحرير لأية مجلة لو لم يثبت طويلًا ويؤكد ولاءه المستمر للسلطة السوفيتية التي رفعته في المقابل إلى القمة بعد صدور أولى رواياته «جميلة» عام ١٩٥٨، ثم منحته جائزة لينين في الأدب عام ١٩٦٣، وهي أرفع الجوائز الأدبية حينذاك، وأغدقت عليه كل الألقاب التي كانت تُمنح بدءًا من كاتب قرغيزيا الوطني وانتهاء ببطل العمل الاشتراكي إلى أن أصبح عضوًا في مجلس السوفيت الأعلى وعضوًا في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي القرغيزي ثم تقلد منصب مستشار الرئيس ميخائيل جورباتشوف عام ١٩٨٩، ولم يكن هناك ما هو أبعد أو أكبر من كل ذلك التكريم والاحتفاء الرسمي! وظل أيتماتوف الذي لقنه درش والده أن يكون حذرًا يتحدث مطولًا عن أهمية «النظام الاشتراكي والأيديولوجية الشيوعية» كوسط اجتماعي في تربية موهبة الأديب.

لمع نجم أيتماتوف واستقر في سماء الأدب السوفيتي بل والعالمي، وكان من ناحية جديرًا بذلك الاهتمام، ومن ناحية أخرى سهّل له التصالح مع الدولة ذلك الصعود،

فحرصت السلطة على ترجمة أعماله الأدبية إلى مائة وخمسين لغة أجنبية خاصة مع قلة عدد الكتاب الموهوبين وسط جيش من أدباء الدعاية الحزبية.

كان أيتماتوف موهوبًا بدون شك، وأديبًا كبيرًا بالقطع، ومخلصًا لعمله بشكل مذهل، في الوقت ذاته كان يمثل نموذجًا دعائيًا باهرًا «للعلاقة الطيبة بين موسكو والجمهوريات الآسيوية الصغيرة»، فقد جمعت رواياته بين منجزات الأدب الروسي الأوروبي والتقاليد الآسيوية الشرقية، ومزجت بين الخصائص القومية المحلية والنزعة الإنسانية.

كان أيتماتوف يكتب باللغتين القرغيزية والروسية، وفي عام ١٩٦٥ كتب روايته المعروفة «وداعًا جولساري» بنفسه بالروسية، وبدءًا من روايته «جميلة» التي قال عنها الشاعر الفرنسي أراجون: إنها «أعظم قصة حب في العالم» استمرت رواياته في الظهور بالروسية: «شجيرتي في منديل أحمر»، و«السفينة البيضاء»، و«الغرانيق الصغيرة»، و«الكلب الأبيض الراكض على حافة البحر»، و«يمتد اليوم أطول من قرن»، ثم «النطع» وأخيرًا «نمر من ثلج». دارت أحداث معظم رواياته على أرض «قرغيزيا»، وهي بلد فقيرة دخلها الإسلام في أوائل القرن الثامن م، ونشأت ثقافتها تحت تأثير الثقافتين العربية والتركية حتى إن لغتها كانت تكتب بالخط العربي حتى عام ١٩٢٨.

وحافظ أيتماتوف في معظم أعماله خلال رحلته

الأدبية الطويلة على حذره متفاديًا الصدام الصريح مع مشكلات المجتمع السوفيتي، وحدد ذلك الحذر أفق كتاباته الأدبية، فظلت دومًا منطوية على جزء مهم من الحقيقة بدون أن تمضي بهذه إلى النهاية، ولم يكن أيتماتوف الكاتب الوحيد الذي وقع بين المطرقة الاستالينية وسندان البيروقراطية السوفيتية، كان هناك أدباء آخرون كثيرون أجبرتهم السلطة على الصمت، فلزموا الصمت، لكنهم لم يتطوعوا بقول ما لا يعتقدون؛ من أولئك ميخائيل بلجاكوف وروايته المذهلة «المعلم ومرجريتا». لكن موقف بلجاكوف كان مختلفًا فاختلف مصيره ودفع ثمن ذلك الاختلاف، فظلت رواياته حبيسة خزائن اتحاد الكتاب السوفيت لأكثر من ربع القرن بدون أن ترى النور، لكن أعماله رغم الحصار شقت طريقها إلى سماء الأدب واستقرت هناك تلمع بالحقيقة، وقد يكون من القسوة أن نحاسب أيتماتوف وهو أديب كبير من هذه الزاوية، لكن هذه الزاوية بالتحديد هي التي حددت مسيرته الأدبية ومواقفه.

أيتماتوف الذي ضرب مثالًا على «الأديب السوفيتي النموذجي» طويلًا، مضمرًا في ضميره رؤية أخرى، راح فجأة - مع بوادر انهيار الدولة السوفيتية- يتحدث عن «الأخطاء الاستعمارية لموسكو في قرغيزيا» عندما أصبح إطلاق مثل هذه التصريحات لا يكلف المرء شيئًا!

ومع استقرار سياسة جورباتشوف والانفتاح والتحول إلى الرأسمالية استولى على جنكيز أيتماتوف الحلم

بالحصول على جائزة نوبل في الأدب، وزين له البعض أن الحصول على تلك الجائزة العالمية مستحيل بدون زيارة إسرائيل والتبرك بتأييدها له، هكذا سافر أيتماتوف في منتصف الثمانينيات إلى فلسطين المحتلة، والتقى بإسحاق شامير رئيس الحكومة حينذاك وبغيره من زعماء الصهيونية في مدينة القدس المحتلة.

التقيت بأيتماتوف في ذلك المؤتمر عام ١٩٨٧، ولم يكن قد قام بزيارته لإسرائيل بعد، وفرحت بلقائه، صافحني ورحب بي، وجلسنا في ركن هادئ بعيدًا عن الضوضاء، ورحت أجري معه حديثًا لمجلة عربية، وكنت أعلم أن الثقافة في وطنه قرغيزيا نشأت تحت تأثير الثقافة العربية فسألته عن تأثير الثقافة العربية في أدبه وإبداعه كأديب وكاتب، وعما إن كان قد قرأ أعمالًا لأدبائنا العرب؟ فأجابني باقتضاب لكن بصراحة هذه المرة قائلًا: «عندما يكون عندكم أديب مثل جابريل جارسيا ماركيز فسنقرأه»!

كانت الإجابة صادمة وموجزة، وأرغمت نفسي على مواصلة تسجيل الحوار معه حتى أنهيته ثم شكرته وافترقنا، لكني لم أنشر ذلك الحوار قط، رغم إلحاح المجلة التي قدرت أن حوارًا صحفيًا مع أديب لامع مكسب أدبي، ولم ينقض عام واحد حتى فاز أديبنا العظيم نجيب محفوظ بنوبل في ١٩٨٨! وشعرت أن نجيب محفوظ كان يرد على أيتماتوف «نعم لدينا أدباء

جديرون بنوبل»، وعكفت ثلاثة شهور كاملة لأنتهي من كتاب لي بعنوان «نجيب محفوظ في مرايا الاستشراق الروسي» ضم كل ما كتب عن محفوظ من دراسات وأبحاث، وكتبت في مقدمته «هذا الكتاب أشبه ما يكون ببرقية تهنئة ومصافحة لأديبنا الكبير نجيب محفوظ الذي حفر بنصف القرن من العمل المنهك اسم الرواية العربية جنبًا إلى جنب مع شوامخ الأدب الإنساني العالمي». وتولى الأستاذ الكبير الراحل محمود أمين العالم نشر الكتاب، وتلقى بعد ذلك رسالة شكر من نجيب محفوظ يعرب فيها عن تقديره لذلك المجهود.

لم يفز جنكيز أيتماتوف بجائزة نوبل، وصدمه ذلك، فسافر من ١٩٩٠ حتى ١٩٩٤ سفيرًا لقرغيزيا في بروكسل، وقضى خارج بلاده أعوامه الستة عشر الأخيرة، قضاها كأنها قطيعة مع الماضي الذي لم يستطع أن يواجهه بل وكان مجبرًا على تأييده.

في يونيه ٢٠٠٨ رحل أيتماتوف عن عالمنا عن عمر يناهز الثمانين عامًا، وأوصى قبل موته أن يُدفن إلى جوار والده، وحين أتذكر أيتماتوف الآن فإنني أشعر فقط بالأسى على مصائر الأدباء الذين حاولوا مواجهة القمع بوضوح، ومصائر الأدباء الذين حاولوا تفادي القمع بوضوح.

***

حديث خروتشوف حول المدفأة الإنجليزية

«تطرق الزعيم السوفيتي خروتشوف في حديثه مع القادة الإنجليز إلى كافة القضايا مطلقًا دعاباته وضحكاته خلال حديثه، وفجأة استدار خروتشوف إلى زوجة أنطوني إيدن رئيس الوزراء البريطاني وسألها مضفيًا على ملامحه سذاجة ريفية: «بالمناسبة يا مدام إيدن ... هل تعلمين كم رأس نوويٍّ يلزم لتدمير جزيرتكم الصغيرة بالكامل؟!». تكهرب الجو فورًا من سؤال خروتشوف الغريب والمفاجئ، وساد صمت مطبق وراح القادة البريطانيون يحملقون في وجوه بعضهم بعضًا بتوتر! وواصل خروتشوف حديثه مع مدام إيدن: «لا تعرفين؟! أنا أعرف». وجال بنظرة ماكرة على الجالسين قائلًا: «خمسة رءوس نووية تكفي لذلك وهي متوفرة لدينا، وعندنا أيضًا الصواريخ القادرة على حملها إليكم إذا اقتضى الأمر! وفرنسا... أتعلمون كم تحتاج؟ طبعًا لا تعلمون؟ أحد عشر رأسًا نوويًا هي أيضًا متوفرة عندنا»!

كانت تلك إشارة ودية مرعبة لبريطانيا وفرنسا اللتين لم يكن لديهما سلاح نووي حينذاك عندما قام خروتشوف عام ١٩٥٦ بزيارة رسمية لبريطانيا بدعوة من أنطوني إيدن، وجلس مع القادة الإنجليز في قصر حكومي بمنطقة تشيكرز يشرب الشاي معهم قرب المدفأة، وكما يروي سيرجي ابن خروتشوف الذي سجل مذكرات والده ونشرها، فإن خروتشوف كان يهوى

مفاجأة من حوله، كما فعل فيما بعد عام ١٩٦٠ حين نزع حذاءه وطرق به منصة الأمم المتحدة عندما رفضت أمريكا الاعتراف بالصين الشعبية، ثم هبط من عند المنصة وقد ترك فردة حذائه على المنبر وعاد إلى مقعده وسط ذهول ودهشة الأمم المتحدة، وهو يعرج بفردة حذاء واحدة! وقد عاد خروتشوف فجدد إشارته قرب المدفأة للسلاح النووي عندما أمم جمال عبد الناصر قناة السويس ووقع العدوان الثلاثي، وكان وزير الخارجية ديمتري شيبيلوف قد فضح -في خطابه في ١٧ أغسطس ١٩٥٦ بمؤتمر لندن بشأن القناة- مخطط الدول الغربية لمد امتياز القناة حتى عام ٢٠٠٨! وحين هاجمت إسرائيل وبريطانيا وفرنسا مصر في ٢٩ أكتوبر، وجه الاتحاد السوفيتي في ٥ نوفمبر إنذاره الشهير بإنذار «بولجانين» إلى لندن وباريس وتل أبيب، وجاء فيه بالنص:

«السير/ أنطوني إيدن رئيس الحكومة البريطانية، المسيو / جي موليه رئيس الحكومة الفرنسية، تجد الحكومة السوفيتية نفسها مضطرة إلى لفت نظركم إلى الحرب العدوانية التي تشنها بريطانيا وفرنسا ضد مصر، التي لها أوخم العواقب على قضية السلام، ترى كيف كانت بريطانيا تجد نفسها إذا ما هاجمتها دولة أكثر قوة تملك كل أنواع أسلحة التدمير الحديثة؟ هناك دولة الآن لا يلزمها إرسال أسطول أو قوة جوية إلى سواحل بريطانيا بل يمكنها استخدام وسائل أخرى مثل

الصواريخ، إننا مصممون على سحق المعتدين، وإعادة السلام إلى نصابه في الشرق الأوسط، عن طريق استخدام القوة، إننا نأمل في هذه اللحظة الحاسمة أن تأخذوا حذركم، وتفكروا في العواقب المترتبة على ذلك.

السيد/ دافيد بن جوريون، إن الحكومة الإسرائيلية المجرمة التي تفتقر إلى الشعور بالمسئولية تتلاعب الآن بأقدار العالم وبمستقبل شعبها بالذات.

مارشال الاتحاد السوفيتي نيقولاي بولجانين»

قبل أن يسلم السفير السوفيتي ذلك الإنذار إلى القادة البريطانيين في لندن، طلبه خروتشوف وقال له: «قل لهم وأنت تسلمهم المذكرة إن خروتشوف يذكركم بحديثه حينذاك بجوار المدفأة في تشيكرز»! فيما بعد سجل خروتشوف في مذكراته أن رئيس الوزراء أنطوني إيدن ما أن علم بخبر الإنذار حتى هب من فراشه في لباسه الداخلي ليتصل بالفرنسيين ويحثهم على وقف الحرب فورًا. ويقول سيرجي بن خروتشوف: «طالما سألت نفسي كيف عرف والدي أن أنطوني إيدن هب ليتصل بباريس وهو في لباسه الداخلي؟ ثم تذكرت أنه كان لدى السوفيت حينذاك أشهر جاسوس بريطاني وهو فيلبي الذي كان مطلعًا على أدق التفاصيل»!

تلقت باريس ولندن وتل أبيب الإنذار في الخامس من نوفمبر، وفي السابع من نوفمبر توقفت العمليات

العسكرية وبدأ انسحاب المعتدين، وفي العاشر من نوفمبر لكي تؤكد موسكو على موقفها نشرت وكالة «تاس» بيانها الشهير الذي جاء فيه أن قيادة الاتحاد السوفيتي: «تؤكد أنه في حال عدم سحب فرنسا وبريطانيا وإسرائيل لقواتها من الأراضي المصرية فإن الهيئات السوفيتية لن تتردد في السماح بالسفر للمتطوعين من المواطنين الروس للقتال إلى جانب الشعب المصري ودعمه في نضاله من أجل الاستقلال».

وكانت جموع من المواطنين السوفيت قد تدفقت إلى قلب موسكو تعلن استعدادها للسفر والقتال إلى جنب الشعب المصري في معركته من أجل حريته واستقلاله، ولم تكن تلك المرة الوحيدة أو الأخيرة التي وقفت فيها الاشتراكية مع مصر، فقد تلا هزيمة عدوان ٥٦ بناء السد العالي بمساعدات سوفيتية، ومشروعات الصناعات الثقيلة، وتسليح الجيش المصري، وتعويضه عن كل خسائره في حرب ١٩٦٧، ودعمه في حرب الاستنزاف، وفي عام ١٩٦٩، كانت بدهشور ثكنة عسكرية روسية تساهم في محو آثار العدوان، وفي أثناء إحدى الغارات الإسرائيلية رفض أحد الضباط الروس أن يحتمي بالخندق، وفضل البقاء واقفًا تحت القصف، ذراعه مفرودة وأصبعه يشير إلى الطائرات المغيرة، مصدرًا أوامره بفتح النيران وردها، وسقط شهيدًا فوجد رفاقه صعوبة في إدخال جثمانه إلى النعش بسبب ذراعه التي تجمدت مفرودة لأعلى نحو السماء، فلم تطمرها

الأحداث، ولا طواها التاريخ، ولا كسرتها في الذاكرة كل التحولات الكبرى، ذراع الفكرة الاشتراكية، والتضامن مع حرية الشعوب، أراها ترفرف من وراء الغيوم ونحن نحتفل بمولد قناة جديدة، ابنة القناة الأم.

***

سفيتلانا ألكسيفتش وجائزة نوبل

تستوقفني -عند الإعلان عن أسماء الفائزين بجائزة نوبل- الضجة الإعلامية الغربية التي يتردد صداها عندنا وهو يكرس حالة من «الانبهار» حتى توشك الجائزة أن تكون «أيقونة» تطغى أهميتها على قيمة الأدب نفسه، هذا العام فازت بالجائزة الكاتبة البيلاروسية سفيتلانا ألكسيفتش المشتتة بين مولدها في أوكرانيا، وحياتها في بيلاروسيا (لم يصدر لها سوى كتاب واحد بلغة بلدها)، واللغة الروسية التي كتبت بها كل أعمالها! في بيان الأكاديمية السويدية عند منح الجائزة جاء أن سفيتلانا: «كاتبة بارزة وأديبة كبيرة اشتقَّت نوعًا أدبيًا جديدًا يتجاوز إطار العمل الصحفي»، مما يعني أن أعمالها تنتسب إلى الصحافة في الأساس، ثم يقول البيان: إن «أعمالها تمثل نُصبًا تذكاريًا للمعاناة والشجاعة في زماننا»؟ وهي عبارة إنشائية، يمكن إطلاقها على أي عمل تقريبًا، ولا تحدد الطريقة الأدبية للعمل الفني، أو محتواه ولا تبرز توجه العمل وجدته وتفرده، وينوه البيان بما أسماه: «وسائل منهج الكاتبة الاستثنائي بخلقها كولاج من الأصوات البشرية». والكولاج هو فن القص واللصق، كان بيكاسو أول من استخدمه في لوحاته عام ١٩١٢. أما فكرة «الكولاج» بحد ذاتها فهي فكرة التوليف الذي يعتمد عليه أي فن، وأي عمل أدبي، وبالتالي فليس في منهج الكاتبة ما يقول البيان إنه «استثنائي»! وعندما فازت الكاتبة قبل

ذلك بجائزة «كورت توخوليفسكي» جاء في تبرير ذلك أنه «نظير الشجاعة والكرامة في الأدب»! وحينما حصلت على جائزة «جيردير» الألمانية حصلت عليها عن «أفضل كتاب سياسي»! ومع فوزها بنوبل أشارت معظم الصحف الغربية إلى أنها أول كاتبة تفوز بالجائزة عن «الأدب غير الروائي»! ولست أرى في كل ذلك إشارة إلى إنجاز أدبي محدد، بل إلى الطابع السياسي، والشجاعة، والكولاج، والأدب غير الروائي! والواقع أن كل تلك الصياغات التي تنأى بنفسها عن تحديد الإنجاز الأدبي للكاتبة إنما تشير إلى ما سنعرفه من أنها مجرد كاتبة صحفية تكتب «أدبًا غير روائي»! وللمقارنة ليس إلا سنجد أن بيانات الأكاديمية كانت مختلفة تمامًا مع الأدباء الروس الخمسة السابقين الذين فازوا بنوبل، وكان أولهم إيفان بونين عام ١٩٣٣، وأشارت الأكاديمية في حينه -ليس إلى الشجاعة والكرامة- بل إلى: «موهبة الكاتب الفنية الصادقة التي عبر بفضلها عن الإنسان الروسي الاعتيادي». وعام ١٩٨٥ منحت الجائزة لبوريس باسترناك نظير: «إنجازه الضخم في الشعر الغنائي المعاصر». وعام ١٩٦٥ منحت للروائي ميخائيل شولوخوف نظير: «قدرته الفنية الساطعة وتعبيره عن ملحمة القوزاق الروس زمن الحرب الصعب». وعام ١٩٧٠ نال الجائزة ألكسندر سولجينتسين مقابل: «تأكيده على القوة الأخلاقية الكامنة في تقاليد الأدب الروسي العظيم». في كل ذلك سنرى أن قيمة الإنجاز الأدبي

لأولئك الكتاب تعلو بقوة، الأمر الذي لا نجده عندما يدور الحديث عن سفيتلانا ألكسيفتش؛ لأنها صحفية في الأساس لا أكثر، وقد ظهرت الطبيعة البحتة لأعمالها الصحفية منذ صدور كتابها الأول «الوجه غير الأنثوي للحرب» عام ١٩٨٥، الذي اعتمدت فيه على لقاءات حية وشهادات مع نساء من زمن الحرب العالمية الثانية، ثم ظهرت أعمالها الأخرى: «صلاة من أجل تشيرنوبل» و«أبناء الزنك» والمقصود بالزنك هو المادة التي تصنع منها التوابيت لجثث الجنود الروس العائدة من أفغانستان خلال الحرب السوفيتية هناك ما بين ١٩٧٩-١٩٨٩، ومن جديد يقوم الكتاب على جمع شهادات مباشرة عن الحرب مع تعليقات عليها، وهو ما قامت به في كل كتبها التي لا تنتسب إلى الأنواع الأدبية المتعارف عليها بل إلى الصحافة، وهي حقيقة معروفة في بيلاروسيا موطن الكاتبة قبل فوزها بنوبل، وعن ذلك يكتب الناقد «ألكسندر نوفيكوف» قبل عامين من نوبل قائلًا: «لا تبتعد سفيتلانا ألكسيفتش كثيرًا عن التحقيقات الصحفية؛ حتى ليصعب أن نطلق عليها صفة أدبية»[8]. ثم أليس من الغريب ألا يكون لكاتبة من بيلاروسيا عملٌ عن بلدها؟ ولكنها عوضًا عن ذلك تنصرف باهتمامها إلى الكتابة عن روسيا؟! ويظل السؤال قائمًا: إن كانت سفيتلانا ألكسيفتش كاتبة صحفية بشهادة المثقفين من أبناء موطنها، فلماذا إذن منحوها جائزة نوبل في الأدب؟! الإجابة عن هذا

السؤال سنجدها في تصريح واضح للأكاديمية السويدية جاء فيه أن الأكاديمية كانت: «أمام اختيارين: إما مكافأة كاتب لا علاقة له بالعمل السياسي، وإما مكافأة مؤلف ملتزم سياسيًا التزامًا ليس موضع جدال في العالم الغربي»، وعلى حد ما جاء في التصريح فقد كانت سفيتلانا «أكثر المرشحين المناسبين لذلك»! إذن كان الالتزام السياسي بمثل الدول الرأسمالية الغربية –وبما لا يقبل الجدل– الحافز الرئيسي لمنحها الجائزة! لهذا يقول الكاتب الروسي الكبير «زاخار بريليبين»[9] في تصريح لوكالة الأنباء الروسية –في ٨ أكتوبر قبل الإعلان عن فوز الكاتبة: «إذا فازت سفيتلانا ألكسيفتش بجائزة نوبل، فسيكون ذلك بسبب معتقداتها السياسية وليس بفضل موهبتها الأدبية؛ سفيتلانا صحفية جيدة، لكني أعلم تمام العلم أن في روسيا لا يقل عن خمسين كاتبًا يتفوقون على سفيتلانا بصفتهم أدباء، بل إن لدينا في روسيا حتى من الأدباء متوسطي القيمة من يستحقون الجائزة أكثر مما تستحقها هذه السيدة»![10]. وإذا كنا في نهاية المطاف أمام كاتبة صحفية رشحها نشاطها ومعتقداتها السياسية للجائزة، فإن من حقنا أن نسأل: ترى ما طبيعة تلك المعتقدات التي تعتنقها سفيتلانا ألكسيفتش (وليست موضع جدال في العالم الغربي) بحيث يتم منحها «نوبل»؟ ألا يحتمل أن تكون معتقدات جديرة بالتقدير حتى لو اختلفنا معها؟

ترتكز كل أعمال الكاتبة بدرجات مختلفة على تشويه التجربة السوفيتية بكاملها، بإنجازاتها وسلبياتها، وتصوير الاشتراكية على أنها والفاشية الهتلرية كانتا أخطر مذهبين على البشرية في القرن العشرين! ومن حق الكاتبة ألا ترى فرقًا بين الفاشية والاشتراكية ما دامت تصب غضبها على المذاهب السياسة وعلى أسس تلك المذاهب النظرية، لكن لا يحق للكاتبة ولا لغيرها أن تنتقد بكراهية الشعب الروسي وبتحقيره وازدراء تاريخه الحضاري والثقافي. تصرح سفيتلانا علنًا – علاوة على أعمالها– باحتقارها للشعب الروسي الذي أثرى الثقافة بمواهب إنسانية فذة مثل «أنطون تشيخوف» و«جوجول» و«بوشكين» و«ليف تولستوي» الذي كان الإمام محمد عبده يخاطبه في رسائله إليه بقوله: «نبي البشرية».

وفي عملها «أبناء الزنك» تعري الكاتبة وحشية الحرب السوفيتية، وبالطبع ليس لديَّ أي اعتراض على أن يتناول الكاتب أو يفضح الجرائم التي يرتكبها أي نظام سياسي بما في ذلك السوفيتي، لكن هل يمكن لكاتب حقيقي أو نصف حقيقي أن يحقر شعبًا بأكمله؛ لأن النظام الحاكم للشعب نظام فاسد؟ تصرح سفيتلانا علنًا باحتقارها للشعب الروسي وبما هو أكثر، وفي حديث لها بإذاعة صوت الحرية الأمريكية تصف الرئيس الروسي بوتين بالفاشية، وهذا من حقها، لكنها تمضي أبعد من ذلك فتقول: «بوسعنا اليوم أن نتحدث عن بوتين

جماعي؛ لأن بوتين قابع داخل كل مواطن روسي، إننا إزاء حقيقة أن الإمبراطورية الحمراء قد غربت لكن بقي لدينا إنسانها»[11]؛ أي إن الإنسان الروسي -وليس النظام- فاشي بطبيعته! وخلال الأزمة القائمة بسبب القرم بين روسيا وأوكرانيا فإنها تشن حربًا إعلامية على الموقف الروسي (علمًا بأن القرم يعود إلى روسيا فعليًا وتاريخيًا) وتقول: «الروس ممتلئون بالرغبة في الانتقام مما حدث عام ١٩٩١ (تقصد انهيار الاتحاد السوفيتي)، والمدهش أن عدوى الروح الإمبريالية أصابت حتى الشباب»[12]. وتضيف إلى ما سبق: «إنني أقف مع أوكرانيا بقوة ولا أؤيد أولئك الـ٨٤٪ من الروس الذين يسعون لشن الحرب على أوكرانيا، إن الرئيس بوتين والرئيس البيلاروسي لوكاشنكو قائدان فاشيان، وسوف يفتح الرئيس بوتين في سوريا أفغانستان أخرى بالنسبة لروسيا»[13]. أما عن علاقة روسيا ببيلاروسيا فإنها تصفها فقط بأنها العلاقة التي «سحقت فيها روسيا البلد الأصغر»! وهي بذلك تؤجج العداوة بين ثلاثة شعوب هي: روسيا وأوكرانيا وبيلاروسيا التي تنتمي لعرق واحد ويجمعها تاريخ طويل مشترك حضاري وثقافي، ناهيك عن أن ما تقوله كذب صريح. في الوقت ذاته تجدد سفيتلانا دعمها الإعلامي للغرب بقولها: «من الصعب على أوروبا أن تفهم ذلك (تقصد الموقف الروسي من أوكرانيا)، لكن أوروبا والرئيس باراك أوباما يسلكون بشكل متعقل للغاية»![14]. وخلال ذلك لا تخجل

سفيتلانا ألكسيفتش من وصف الشعب الروسي بأنه «شعب من العبيد»![15]، ويعود تحقير سفيتلانا المستمر للشعب الروسي إلى مطلع «البيرسترويكا» (إعادة البناء) عام ١٩٨٧، عندما سنحت الفرصة للمنظمات السياسية الصهيونية للانقضاض على كرامة وإبداع ذلك الشعب، مما أجبر سبعين كاتبًا من أكبر كتاب روسيا لعقد لقاء وإصدار بيان نشرته «ليتراتورنايا روسيا» في ٢ مارس ١٩٩٠ جاء فيه: «أصبح من المألوف أن تلجأ وسائل الإعلام إلى إطلاق مختلف النعوت على الشعب الروسي يوميًا، بدءًا من لفظ «الفاشيين»، و«العنصريين» انتهاء بالتحقير البيولوجي المتمثل في التعبير المفضل «أبناء الكلاب»، ويذكر كل ذلك بلغة الدعاية الهتلرية التي أعدت الروس «عرقًا منحطًا»، كما يتعرض ماضي روسيا وتاريخها كله للتشويه والازدراء، فروسيا عندهم هي «عبدة الألف عام» والإنسان الروسي هو «الإنسان العبد»[16]، وكان من بين الموقعين على البيان أدباء عظام مثل فالنتين راسبوتين، وليونيد ليونوف وغيرهما. الآن تواصل سفيتلانا ألكسيفتش ذلك الدور، ولهذا يقول يوري بولياكوف مدير تحرير جريدة «ليتراتورنايا جازيتا» (الجريدة الأدبية) أكبر صحيفة ثقافية في روسيا: «أعتقد أن أعمال سفيتلانا ألكسيفتش مجرد أعمال صحفية متوسطة المستوى لا تمثل بأية حال إنجازًا أدبيًا ما، وفي تلك الأثناء فإنها لا تتوقف عن التصريح بأنه ما من شيء يعجبها في

روسيا، ولا شك أن الغرب في الوضع السياسي الراهن يسعد بتصريحاتها تلك، ولأجل ذلك منحوا سفيتلانا جائزة نوبل، لكن ليس بفضل الموهبة الأدبية بل لقاء موقفها السياسي»[17].

في ١٠ أكتوبر يكتب الناقد الروسي المعروف «نيكولاي كوفيرين» في ليتراتورنايا جازيتا ويضع النقاط فوق الأحرف بالنسبة للجائزة فيقول: «لم يعد سرًا على أحد، كيف ولماذا ولمن تمنح الجائزة، فقد تحدث عن ذلك باستفاضة الكاتب الفرنسي بيير بورديه في كتابه «المجال الأدبي»، فالجائزة ليست معيارًا تقاس به فنية العمل الأدبي، ولا هي حتى تعد اعتراف المجتمع بالكاتب، إنها فقط وسيلة للتحكم في مسارات الأدب»[18]. ويوجز فلاديمير بوندارينكو المسألة في مقاله «كم تساوي كراهية روسيا؟»[19] فيقول: «الواقع أن سفيتلانا ألكسيفتش تجوب أوروبا داعية للحرب على روسيا، أما مشكلات بيلاروسيا –وطنها - فإنها قلّما أثارت أو تثير اهتمامها! ذلك أن أحدًا في الغرب لا يدري شيئًا عن بيلاروسيا! وقد قضت سفيتلانا السنوات العشر الأخيرة تجوب بلدان أوروبا، متنقلة ما بين باريس وواشنطن وروما ثم عادت مؤخرًا إلى بيلاروسيا؛ لأنها على حد قولها «اشتاقت إلى هواء الوطن»، فإن كانت قد اشتاقت إلى هواء الوطن ففيم كل تلك الكراهية لروسيا؟ المدهش أنه من الواضح أن سفيتلانا أدركت أن بيلاروسيا ملعب صغير لن يجذب

اهتمام العالم إليها، وأن الأهم هنا هو روسيا! وهي لا تخفي ذلك؛ إذ تقول بالنص: «كل الكتب التي نشرتها كانت تجسد رؤية لم يكن من الممكن التعبير عنها في إطار الثقافة البيلاروسية، فنحن في بيلاروسيا أمة صغيرة»! (هل يوجد أديب لا يعبر عن شعبه؛ لأن شعبه أمة صغيرة؟! فيتجه للتعبير عن شعب آخر كبير؟!).
يواصل بوندارينكو حديثه قائلًا: «إننا إذا تناولنا أعمال السيدة سفيتلانا من الزاوية الأدبية فسنجد أنها لا تكتب حتى النثر الأدبي، فهي مجرد كاتبة متوسطة المستوى تسجل تحقيقات صحفية ووثائقية ولا أكثر، تدعو فيها العالم إلى الحرب على روسيا، وهي تقول في ذلك الصدد بالنص: «إننا نتعامل مع الإنسان الروسي الذي عاش في القرنين المنصرمين محاربًا، ولم يعش حياة رخية أبدًا، لهذا فإن الحياة البشرية بالنسبة له لا تساوي قلامة ظفر، والعظمة بالنسبة له تتجسد في وجود دولة مسلحة بالصواريخ من رأسها إلى أخمص قدميها ... وهكذا يظهر أمامنا إنسان عدواني يمثل خطرًا على سلام الآخرين»! ويختتم بوندارينكو مقاله بقوله: «هكذا تمنح جائزة نوبل لكاتب يكتب ويتحدث ويروج لرؤى عنصرية، ويضع نصب عينيه تحقير الشعب الروسي، ولا يعني ذلك إلا تحقير الجائزة نفسها ليس إلا، بذلك سيظل العار يلاحق جائزة نوبل إلى الأبد».

***

8 بوابة الأدب البيلاروسي

http://www.litkritika.by/categories/literatura/raznoe/1274.html

9 زاخار بريليبين أديب روسي معاصر معروف، له ١٣ رواية منها «الخطيئة» عام ٢٠٠٧، و«جئت من روسيا» عام ٢٠٠٨، و«الثمانية» (قصص طويلة) عام ٢٠١١. فاز بالعديد من الجوائز الروسية والعالمية كان آخرها جائزة بوكر الروسية عن روايته «المقيم». نشرت له مجلة المجلة في عدد نوفمبر ترجمة لإحدى قصصه القصيرة الرائعة.

10 وكالة الأنباء الروسية

http://nsn.fm/culture/prilepin-u-nas-dazhe-srednie-pisateli-dostoyny-nobelevki-bolshe-chem-alekseevich-.php

11 حديث سفيتلانا ألكسيفتش لصوت الحرية -الرابط- :

http://charter97.org/ru/ne/151459/14/5/ws/2015

12 فلاديمير بوندارينكو- مقال «كم تساوي كراهية روسيا؟»

13 الرابط:

http://anton-klyushev.livejournal.com/1582351.html?thread=38885647

14 رابط الحديث:

http://www.lgz.ru/blog/Kofirin_Nickolay_blog/aleksievich-nobel-i-politika

15 فلاديمير بوندارينكو- مقال «كم تساوي كراهية روسيا؟» موقع صحافة حرة. في ١٧ أكتوبر ٢٠١٥ -الرابط- :

http://svpressa.ru/culture/articale/128116

16 أحمد الخميسي. كتاب «موسكو تعرف الدموع» - كتاب الأهالي ١٩٩١

17 يوري بولياكوف -الرابط- :

http://svpressa.ru/culture/articale/128116

18 نيكولاي كوفيرين- ليتيراتورنايا جازيتا -١٠ أكتوبر ٢٠١٥

http://www.lgz.ru/blog/Kofirin_Nickolay_blog/aleksievich-nobel-i-politika

19 فلاديمير بوندارينكو- مقال «كم تساوي كراهية روسيا؟»

عاشت الترجمة ومات النص!

بعد عامين من الدراسة في جامعة موسكو أتقنت اللغة الروسية إلى حد مكنني من قراءة أمير الشعراء الروس ألكسندر سيرجييفتش بوشكين (١٧٩٩- ١٨٣٧) والاستمتاع بقصائده وتذوقها بكل أبعادها الموسيقية، حينذاك توقفت طويلًا عند قصيدته «بنيت لنفسي تمثالًا» التي كتبها الشاعر العظيم قبل عام من وفاته، جذبني إليها الشعور العارم بكبرياء الكاتب وأهمية دوره. فيها يقول بوشكين: «لقد بنيت لنفسي تمثالًا ... لن تنمو الأعشاب على الطريق إليه». أي إن الناس سيترددون على تمثال الشاعر بدون انقطاع حتى إن الأعشاب لن تنمو على الطريق إليه من كثرة زواره.

أعجبتني القصيدة، قررت في لحظة حماس أن أترجمها إلى العربية، شجعني على ذلك إلمامي بأوزان الشعر العربي، هكذا عكفت على القصيدة يومين أو ثلاثة إلى أن لم يعد ممكنًا -من وجهة نظري- أي تجويد، أو قضاء «طيلة النهار لوضع فاصلة، وطيلة الليل لحذفها» على حد تعبير أوسكار وايلد عن تجويد الكتابة. صارت القصيدة إذن بين يديَّ ناطقة بلغتي، تركتها عدة أيام لأخرج من حرارة العمل عليها، ثم رجعت إليها أقرأها من جديد، لكن صدمتي كانت كبيرة، ودهشتي أيضًا؛ إذ لم أجد في القصيدة شيئًا، أي شيء مما حفزني في البداية إلى ترجمتها، لا شيء على الإطلاق، كانت في واقع الأمر مجرد كلمات عربية تقابل

بشكل دقيق من حيث المعنى الكلمات الروسية، ولا شيء عدا ذلك، ولو أن أحدًا حاسبني حساب المترجمين العسير لما عثر لي على غلطة واحدة في الترجمة، كان كل شيء سليمًا وصحيحًا، لكن لا شعر ولا فن ولا روح، فهي ترجمة أقرب إلى القول الشائع «نجحت العملية، وتوفي المريض»!

أغضبني، من الناحية الفنية بل والأخلاقية أن تصبح ترجمتي نعشًا لقصيدة بوشكين أمير الشعراء الروس الذي أحرق الأرض تحت أقدام الإقطاع والحكم الاستبدادي في روسيا.

لكن كيف حدث هذا؟ ما هي الأسباب التي أدت إلى ذلك؟ النص سليم مثل بدن مكتمل، لكن بلا روح، أدركت أولًا أنه ليس ثمة مترجم عام، قادر على ترجمة كل شيء كما يظن البعض، وأن هناك أنواعًا من الترجمة وليس ترجمة على العموم، ومن ثم ينبغي أن يكون هناك مترجم مختص في كل فرع داخل كل لغة، على سبيل المثال مترجم علوم عن الإنجليزية، ومترجم أدب عن الإنجليزية، ومترجم فلسفة، وهكذا؛ ذلك أن خبراتي السابقة في ترجمة المقالات السياسية والاجتماعية لم تنفعني بحرف عند ترجمة الشعر. أدركت أيضًا -وهي خبرة قد لا يوافقني عليها كثيرون- أن الشعر لا يقبل الترجمة؛ بمعنى أن ما سيصل منه في أفضل الأحوال هو المعنى العام، أو صور مجتزأة، لكن ليس الشعر بالمفهوم الشامل للشعر.

رقدث القصيدتان أمام عينيَّ: بالروسية حيث تشعر بكل وهج الشعر وألقه وحرارته، وبالعربية حيث لا شيء رغم دقة المعنى، كان ذلك أشبه ما يكون بصورة جامدة لوجه حي، دقيقة لكن لا تنطق، لا تعبر، لا تختلج ملامحها بأي ارتعاشة ملهمة، ولتوضيح ما أقصده إليك مطلع قصيدة أخرى لبوشكين بعنوان الزهرة مترجمة إلى العربية:

زهرة مجعدة بدون رائحة

رأيتها منسية وسط كتاب

وفجــأة امتلأت روحي

بتساؤلات عديـــدة.

والفارق شاسع بين أن تقرأ قصيدة «الزهرة» بالروسية وأن تقرأ تلك الترجمة السليمة التي لا توحي بأي شيء!

وسأضرب مثالًا من لغتنا بأبيات شهيرة من إحدى قصائد المتنبي في مدح سيف الدولة حيث يقول:

عَلى قَدرِ أهلِ العَزْم تأتي العَزائِمُ وَتأتي علَى قَدرِ الكِرامِ المَكارمُ

وَتَعْظُمُ في عَينِ الصَّغيرِ صغارُها وَتَصْغُرُ في عَين العَظيمِ العَظائِمُ

المعنى هنا عند المتنبي بسيط، فإذا ترجمته إلى لغة أخرى فإنه لن يخرج عن قولك: «حسبما تكون كريمًا تكون أفعالك كريمة»، أو كما يفسر عبد الرحمن

البرقوقي البيت ذاته قائلًا[20]: «والمعنى أن الرجال قوالب الأحوال، فإذا صغروا صغرت، وإذا كبروا كبرت». فهل يُعدُّ المعنى الذي ترجمنا إليه البيت شعرًا؟ الحق أن عظمة المتنبي تأتي من صياغته للمعنى، أي إنها تأتي من تكرار حرف الراء، والعلاقة الموسيقية التي يخلقها ذلك التكرار بحساب معين، فهل يمكن ترجمة ذلك التكرار المدروس إلى لغة أخرى مع الحفاظ على المعنى ذاته؟ في اعتقادي أن تلك العملية تحديدًا مستحيلة، وأظن أن ما يصلنا من شعر شكسبير هو في الأغلب أفكاره، وصوره، لكن ليس الشعر ذاته الذي لا يمكن فصله عن لغته، من هذه الزاوية فإن أمير الشعراء الروس بوشكين يشبه شاعرنا العملاق المتنبي، فإذا قرأت بوشكين باللغة الروسية ستجد ذلك التدفق والسلاسة والتراكيب اللغوية والموسيقية التي تأسرك بالكامل، أما حين تترجمه فلا يبقى منه سوى معانٍ بسيطة شاحبة أقرب للنثر، كأنك جردت طائرًا من جناحيه وتريد أن تراه محلقًا!

أقول: إنني استخلصت لنفسي –وليس للآخرين– أن ترجمة الشعر «خيانة» وأحيانًا هي أبعد من ذلك، لكن تلك الخيانة قد تكون «حلالًا» مسموحًا به لضرورتها في التعرف إلى شعراء العالم، لكن من الأهمية بمكان ونحن نمارس الخيانة أن نضع في اعتبارنا أننا نقدم للقارئ صورة الشعر، وليس وجهه الناطق الحي؛ لهذا السبب كانت محاولتي لترجمة قصيدة بوشكين هي الأولى

والأخيرة في ذلك المجال، ولا بأس من الإشارة هنا إلى أن شعر بوشكين -وقد تُرجم الكثير منه إلى العربية- لم يترك أثرًا في الحركة الثقافية المصرية، خلافًا لأعماله الروائية والقصصية ومنها «قصص بيلكين»، و«ملكة البستوني»، و«ناظر المحطة» ورواية «ابنة الآمر» وغيرها. لا يعني كل ما سبق أنني ضد ترجمة الشعر، فقد استفدت استفادة جمة من ترجمات عديدة واستمتعت بها، لكني أتحدث عن تجربتي الذاتية وموقفي الشخصي أو تصوري الخاص، ربما يكون البعض قادرًا على صنع المعجزة أي ترجمة الشعر، إلا أن التراجم الشعرية التي قرأتها واستمتعت بها مثل ترجمة شعر ناظم حكمت، وبول إيلوار، وآخرين، كانت تهبني القليل جدًا من الشعر الذي يشبه رائحة الورد بعد ذبوله.

وإذا تركنا الشعر، يبقى عشقي للقصة القصيرة الذي قادني للبحث عن أعمال للكتاب الروس وترجمتها، خاصة أعمال الكتاب الذين تم التعتيم عليهم في الاتحاد السوفيتي. المشكلة الأولى التي واجهتني - وهي المشكلة الأولى في الترجمة عامة- هي الاختيار؛ ذلك أن المترجم هو في اعتقادي مؤلف بلغة أخرى، بمعنى أن النص الذي يتخيره المترجم هو النص الذي يتمنى أن يصل إلى الناس، وأحيانًا هو النص الذي كان المترجم يود لو أنه كان مؤلفه لولا أن كاتبًا آخر سبقه إلى ذلك.

وإذا كانت الترجمة تأليفًا غير مباشر يُسهم في تغيير

الوعي، فيصبح السؤال هنا هو: ماذا نترجم؟ وأي وعي نشارك في نشره؟ في مرحلة ما كانت ترجمة نص دستور ١٨١٨ الفرنسي التي قام بها الطهطاوي تمثل عملًا مهمًا في تطوير المجتمع؛ لأن ذلك الدستور تضمن بمقاييس عصره مبدأ أن الأمة -وليس الحاكم المستبد- هي مصدر السلطات. كان اختيار الطهطاوي لترجمة ذلك الدستور انحيازًا لمصالح الأمة، وبترجمته سعى الطهطاوي لنشر الوعي بأهمية تقييد الحاكم بصلاحيات تشريعية وتنفيذية وقضائية، في حينه كان تطور المجتمع العربي في أمسِّ الحاجة لترجمة كتلك التي اختارها الطهطاوي في سياق رؤية توخت وضع مقاليد الأمة بيدها، وقد لا يسترشد اختيار النص بذلك النفع المباشر الاجتماعي أو العلمي ولكن باعتبارات جمالية وفكرية ومعرفية أخرى في سياق الرؤية نفسها التي تضع في حسبانها جدوى الثقافة على الأمة، ولا شك أن كل نص يرسخ الجمال في مواجهة القبح هو عمل يرقى بالإنسان، ألم يؤمن دوستويفسكي بأن: «الجمال سينقذ العالم»؟

الترجمة في اعتقادي اختيار، بل وموقف، تلك هي أولى المشكلات التي ينبغي أن يتصدى لها المترجم، أحيانًا أرى البعض يقومون بترجمة قصص فرنسية، وموضوعٍ علميٍّ، وآخر سياسيٍّ، ورابعٍ في الفلسفة، فأقول لنفسي: هذا مترجم حرفي ـ تقني، أما المترجم المفكر فلابد لأعماله أن تعكس رؤيته الشاملة الخاصة

به، وأن يتكامل ما يُترجمه في منظومة واحدة، هذا هو المترجم المفكر.

قلت إن القصة القصيرة استوقفتني خلال وجودي في روسيا، خاصة أعمال الأدباء الذين تم تجاهلهم وإبعادهم عن دائرة الضوء لاختلاف رؤاهم السياسية والاجتماعية عن الرؤية الرسمية، ومقاومتهم لطابع الدولة الشمولية، صادفتني حينذاك أعمال عظيمة لكتاب كبار حقًّا مثل «أندريه بلاتونوف» المجهول لدينا تقريبًا، و«يوري كازاكوف»، و«فاسيلي شوكشين» وغيرهم. واستولى عليَّ شعور بضرورة نقل تلك الأعمال إلى العربية، ليس لمجرد أنها كانت أعمالًا محظورة، بل ولقيمتها الأدبية والفنية أساسًا، وعندما عكفت على ترجمة تلك القصص كانت المعضلة الأولى التي واجهتني وأظن أنها تواجه كل مترجم هي التردد بين نقل المعنى، وبين نقله مع تحسينه أو تحويره ليصبح مقبولًا لدى المتلقي.

إلا أن فتح باب «تحسين» أو «تقريب» النص إلى المتلقي منزلق قد يحطم رقبة النص الأصلي، هذا هو بالضبط ما قام به طانيوس أفندي عبده الذي ترجم مسرحية شكسبير «هاملت» عام ١٨٩٧ لتقديمها على المسرح وطبعها عام ١٩٠٢، فقد لاحظ طانيوس أفندي عند عرض المسرحية أن الجمهور كان مستاءً أشد الاستياء من الظلم الذي وقع على «هاملت»، فما كان منه إلا أن عدل نهاية المسرحية بحيث يفوز هاملت بعرش والده ويواصل حياته السعيدة! لذلك وصف د.

محمد يوسف نجم هذه الترجمة بأنها تشويه ومسخ للعمل، ونفى الكثيرون عنها صفة الترجمة، وعدوا أول ترجمة لمسرحية «هاملت» هي التي قام بها لاحقًا الشاعر خليل مطران، هناك حيث تطابقت الترجمة مع النص.

ولدينا فيما يخص ترجمة الروسي مثال واضح على ذلك، فقد قام سامي الدروبي بترجمة الأعمال الكاملة لدوستويفسكي من الفرنسية إلى العربية، لكن عندما تولى الصديق د. أبو بكر يوسف مراجعة تلك الأعمال على الأصل الروسي تمهيدًا لإعادة طباعتها في موسكو اكتشف اجتهاد سامي الدروبي الضخم لتحسين أسلوب دوستويفسكي على نحو لم يكن يتطابق مع النص الروسي في مواضع غير قليلة.

هناك مثال آخر هو الترجمة التي قامت بها فاليريا بورخوفا للقرآن الكريم من العربية إلى الروسية، وفيها أضافت المترجمة كلمات زائدة على الأصل لمجرد إضفاء الطابع الشعري على النص، ومن أمثلة ذلك الآية الكريمة: {إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجًا} فقد ترجمت بورخوفا معاني الآية الكريمة كالتالي: «ورأيت الناس الصالحين يدخلون في دين الله أفواجًا» وأضافت الصالحين من عندها لمجرد وقعها الموسيقي المتسق مع الكلمات السابقة واللاحقة[21]، أي بهدف تقريب النص إلى المتلقي الروسي!

هناك طريقة أخرى لتحسين النص، ألا وهي تعريب المعنى والصور لتصبح مفهومة بيسر لدى القارئ العربي. على سبيل المثال فإننا للتعبير عن المفاجأة عند رؤية شخص لم نكن نتوقعه نقول: «طلع لي كما العفريت» أي بغتة. لكن الروس يقولون: «طلع لي كما يسقط الثلج على الرأس». وقد لا يستريح القارئ المتلقي للتعبير الروسي «كما يسقط الثلج على الرأس»؛ لأنه تعبير غير مألوف، لكن الأصح أن نتمسك بالتعبير الوافد؛ لأنه ينقل معه ثقافة أخرى، فالثلج في روسيا عنصر حيوي من عناصر الطبيعة. في هذا السياق عندنا أيضًا مثل يقول: «إذا عشقت اعشق قمر، وإذا سرقت اسرق جمل»، في اللغة الروسية مثل يكاد أن يكون مطابقًا لهذا المثل العربي؛ يقول الروس: «إذا عشقت اعشق جميلة وإذا سرقت اسرق مليون». هنا يبدو الإغراء قويًا بترجمة هذا المثل باستخدام الصيغة العربية؛ حيث إن المعنى واحد، ولكن حتى ذلك يبدو لي خطأ؛ لأن هناك فارقًا كبيرًا بين مجتمع تدخل في أسس تذوقه الجمالي صورة القمر كمرجعية جمالية، ومجتمع تدخل في أسس تذوقه الجمالي المرأة كقيمة جمالية، أيضًا هناك فارق بين مجتمع يقدر الثروة بالإبل نتيجة لظروف الطبيعة الصحراوية وأهمية الجمل فيها، وبين مجتمع آخر يقدر الثروة بالعملة النقدية! وفي واقع الأمر فإننا نواجه -في هذه المعضلة الصغيرة- ثقافتين، وليس لغتين، ومن ثم يجب أن تعكس الترجمة

ليس المعنى فحسب –حتى لو جاء متطابقًا– بل الصور ذاتها ومفردات تلك الصور.

والخلاصة أن مختلف وسائل التحسين تستهدف بشكل أو بآخر جعل النص مقبولًا وفق ذائقة المتلقي، أي وفق تقاليده الثقافية والجمالية ومعارفه ودرجة تطوره. على حين أن الترجمة ليست تقريب النص إلى القارئ لكن نقل النص إليه بكل ثراء واختلاف عناصره الثقافية والتاريخية، في ذلك تحديدًا تكمن قيمة الترجمة، فالمترجم لا ينقل إلينا فكرة فقط، أو بناء قصصيًا، بل ثقافة وطقوس مجتمع بأكمله، وعندما كان الأدب الروسي يُترجم إلى العربية عبر لغة وسيطة هي الفرنسية والإنجليزية على الأغلب، كان المترجمون يقعون في الخطأ التالي عندما ينقلون الصورة التالية: «جلسوا وشربوا الشاي بالسكر». ذلك أن هذه الصورة لا تنقل إلينا طقسًا روسيًا شديد الخصوصية! ذلك أن الروس حين يجلسون لاحتساء الشاي يضعون بجواره قطع سكر صلبة ويمتصونها خلال شرب الشاي! الترجمة الأولى مخلة؛ لأنها لا تنقل طقسًا خاصًا مميزًا وتحيله إلى التقليد الشائع «شربوا الشاي بالسكر» فتسلبه خصوصيته! لهذا فإن الترجمة تتطلب ليس فقط الإلمام باللغة بل وبثقافة وتقاليد الشعب الذي نترجم آدابه.

قلت فيما سبق إنني هجرت ترجمة الشعر إلى القصة، الآن أقول كيف يمكن لأي منا أن يهجر الترجمة عمومًا بضمير مستريح! فكرت في ذلك بعد أن عكفت على

ترجمة واحدة من روائع القصص الروسية وهي «كان بكاؤك في الحلم مريرًا» للكاتب يوري كازاكوف، القصة تتحدث عن أب يقوم برحلة مع ابنه الصغير إلى الغابات؛ حيث يلهو الطفل بين الأعشاب وينابيع المياه، هناك قرب نهر صغير يجد الطفل نقرة ماء فيستغرق في تأمل ما فيها، ويشير الكاتب إلى أن النقرة احتوت على «أسماك وليدة لتوها»[22].

بدون تفكير ترجمت العبارة من الروسية كما وردت «أسماك وليدة لتوها». بعد قليل أخذت أفكر: لكن الأسماك لا تلد؟! بالروسية قد يصلح القول أن الأسماك وليدة لتوها، لكن بالعربية؟! كان البديل السريع المتاح أمامي هو «الأسماك المفقوسة لتوها»، وهي عبارة كانت كفيلة بتدمير كل شاعرية نسيج القصة الناعم، لكي لا أصدِّع رأس القارئ أقول إنني نحو يومين ظللت أبحث عن مخرج حتى كتبت «الأسماك الخليقة لتوها». فضلت كلمة الخليقة من عملية الخلق، وحتى ذلك التصرف لم يسلم فيما بعد من الانتقاد؛ إذ قيل لي: وهل هي خليقة من تلقاء ذاتها؟ أليست مخلوقة؟ لكني لم أسترح لكلمة المخلوقة نظرًا لما تثيره من تداعيات مع كلمة «مخلوق» بمعنى إنسان ومخلوقة بمعنى امرأة.

مصاعب الترجمة هذه –إذا عكف أحد على الترجمة بجدية– هي التي جعلتني فيما بعد أتردد طويلًا في تكرار التجربة، وهي التي تدفع بي للابتعاد عن الترجمة خاصة الأدب، لكني لا أنكر سعادتي الغامرة حين أعود

من حين لآخر إلى قراءة بعض القصص التي ترجمتها فأجد أنها كالروح الحية تتحرك في بدن لغوي قوي، كل ذراع في مكانها وكل عين في موضعها وكل كلمة في محلها، هي سعادة لكنها تتطلب الكثير من المكابدة والجهد.

***

---

20 شرح ديوان المتنبي: عبد الرحمن البرقوقي – المجلد الثاني – دار الكتاب العربي لبنان.

21 د. علاء الدين فرحات – رسالة دكتوراه من معهد بوشكين بموسكو عام ١٩٩٦ موضوعها «الترجمات الروسية للقرآن الكريم». الفصل الرابع ترجمة فاليريا بورخوفا للقرآن الكريم.

22 د. أحمد الخميسي – رائحة الخبز – سلسلة آفاق الكتابة – الهيئة العامة لقصور الثقافة – ١٩٩٩

حكاية ذبابة حمقاء

لم أحب كاتبًا في حياتي كلها مثلما أحببت أنطون تشيخوف، ولم أقم بزيارة لمدفن كاتب غير تشيخوف، لازمته منذ أن تعرفت إليه إلى الآن صديقًا حيًا أحدثه وأناقشه وألجأ إلى عالمه ساعة الضيق. هناك أدباء تقتصر محبتك لهم على عظمة أعمالهم مثل شكسبير الذي لا نعرف شيئًا مؤكدًا عن حياته الشخصية، وهناك أدباء ليس في حياتهم ما يجتذبك إليهم شخصيًا على الرغم من أنهم عمالقة، ولنقل مثلًا الروائي الأمريكي أرسكين كالدويل، أو حتى العظيم سرفانتس مُبدع «دون كيشوت».

عشقتُ تشيخوف أديبًا مع الملايين من قرائه، لكنه علاوة على ذلك ربطني إليه بتكوينه الإنساني المرهف الذي يشبه جوهرة نادرة منذ أن قرأت في مسرحيته «الخال فانيا» عبارته: «في الإنسان لابد أن يكون كل شيء جميلًا: وجهه وملابسه، روحه وأفكاره»! وأقوال أخرى مسكوبة كالنور في قصصه: «الإنسان الطيب يخجل حتى أمام كلبه»! و«أي ثراء يتفتح في الروح عندما تَعشق؟ أي حنان وأية رقة؟! حتى إنك لا تصدق أن بوسعك أن تحب هكذا!»، ثم: «من الأفضل للمرء أن يكون الضحية على أن يكون الجلاد»! و«كلما ازداد نقاء المرء زادت تعاسته». وقوله: «يمكن للإنسان حتى أن يمرض إذا علم أن هناك من ينتظر شفاءه كفرحة كبرى»! وأخيرًا قوله: «يجب أن تكون حياة الإنسان

مهيبة وجميلة كقبة السماء»!

لولا أن حياة تشيخوف معروفة ومصادرها متوفرة لاستعرضت هنا جانبًا من حياة الكاتب العبقري الذي كان جده قنًا مملوكًا لإقطاعي روسي وتمكن بإرادة مذهلة من أن يراكم المال حتى افتدى حريته بصك رسمي! تركت هذه القصة في تشيخوف أثرًا لا يُمحى حتى أنه قال فيما بعد: إنه -خلال حياته كلها- لم يفعل شيئًا سوى أنه «حرر نفسه من العبد قطرة فقطرة»!

يهمني هنا الإشارة إلى قضية تشيخوف الرئيسية التي ميزت إبداعه عن غيره من الأدباء، ألا وهي سؤاله الملح والعميق والبسيط: ماذا نفعل بحياتنا؟ برز ذلك منذ الأعمال الأولى لتشيخوف، ثم نما في قصص سنوات النضج مثل «حكاية مملة» وفي مسرحياته «الأخوات الثلاث» و«بستان الكرز». كان هذا السؤال حجر الزاوية في إبداع تشيخوف كله، سنجده مطروحًا في القصة المسماة «حكاية السيدة ن . ن»، وفيها تحدث الفتاة نفسها: «عشت في رخاء ومرح بدون أن أحاول فهم نفسي وبدون أن أعرف ماذا أنتظر؟ وماذا أريد؟ بينما الوقت يمضي، ويمضي». تبكي وتضغط صدغها بيدها «يا إلهي إلهي... لقد هلكث الحياة»! هذا الخوف من تبدد الحياة عبثًا وبدون جدوى ظل يتردد لدى تشيخوف كما في قصة «زوجة» حين تقول ناتاليا: «كان يمكن لهذه الحياة أن تكون رائعة، يا لها من حياة لا يمكن استعادتها الآن»! وفي قصة «كمان روتشيلد»

يحدث ياكوف نفسه وهو يتأمل حياته «لماذا تنقضي الحياة التي تُعطَى للإنسان مرة واحدة بدون فائدة»؟ كيف ينبغي أن نحيا؟ ما الذي علينا أن نفعله لكي لا تُفلت الحياة الثمينة من بين أيدينا؟ هذا هو سؤال تشيخوف الذي يطرحه دائمًا مشبعًا بالعطف على الناس وبالأمل في حياة أفضل، ولأنه سؤال يتجاوز القوميات والمجتمعات إلى الإنسانية كلها قال ستانسلافسكي: إن مؤلفات تشيخوف «ستتخطى الأجيال، ولن تتخطاها الأجيال».

أقدم للقارئ هنا نصين لم يسبق ترجمتهما أو نشرهما من أعمال تشيخوف، الأول «حكاية مهداة إلى ذبابة حمقاء» الذي ينتسب إلى النصوص الأولى التي كتبها تشيخوف وهو في السادسة والعشرين بروح السخرية التي فارقته فيما بعد. النص –القصة- يصور موقف الكاتب المبكر من أدعياء الثقافة، هو الموقف ذاته الذي عبر عنه من قبل في قصته «القناع»، وفيها عرض لمجموعة من المثقفين داخل مكتبة بأحد النوادي؛ حيث أقيم حفل تنكري، يتصادف وجود أحد الأثرياء متنكرًا بقناع داخل المكتبة، يلهو ويزعق فينهره المثقفون إلى أن يكتشفوا أنه الرجل الثري فيصيبهم الذعر ويتسللون على أطراف أصابعهم من المكتبة لكي لا يزعجوا بوجودهم إغفاءة الثري! بعد قصة «القناع» بنحو ثلاثة عشر عامًا يكتب تشيخوف في فبراير ١٨٩٩ إلى أحد أصدقائه قائلًا: «ليس الحاكم وحده هو المذنب، الصفوة

المثقفة بأسرها مذنبة، أنا لا أؤمن بتلك الصفوة، إنها منافقة، كاذبة، مهووسة، قليلة التربية، كسولة. لا أؤمن بهم حتى لو عانوا واشتكوا من أن جلاديهم من بين صفوفهم». بالنص التالي كان تشيخوف يسخر من أولئك:

«حكاية ذبابة حمقاء»

«ذبابة طارت في أرجاء الغرفة تتشدق بصوت مرتفع بأنها تعمل في الصحف، أخذت تئز في الجو: «أنا كاتبة! أنا صحفية! أفسحوا الطريق أيها الجهلاء!». سمع البعوض والبق والصراصير والبراغيث أزيز الذبابة، شعروا ناحيتها باحترام خاص، ذهبوا يدعونها إلى بيوتهم لتناول الغداء بل وأخذوا يقرضونها المال، أما العنكبوت الذي يخشى الظهور علنًا فقد انزوى في ركن وقرر ألا يلوح أمام عيني الذبابة.

استفسرث البعوضة -التي تتمتع بجرأة كبيرة- من الذبابة:

- في أية صحف تكتبين يا ذبابة إيفانوفنا؟

- تقريبًا في كل الصحف! حتى إن هناك بعض الجرائد التي أضفي عليها بدوري الشخصي صبغتها العامة ونبرتها بل واتجاهها العام! من دوني لكانت صحف كثيرة قد فقدت طابعها المميز!

- وما الذي تكتبينه في الصحف يا ذبابة إيفانوفنا؟

- أنا أترأس قسمًا خاصًا.

- أي قسم؟

- نعم.. أي قسم؟!

وأشارت الذبابة الكاتبة إلى بقع كثيرة من وسخ الذباب ... على سطح ورقة جريدة!».

***

النص الثاني لتشيخوف جزء من رحلته التي قام بها إلى جزيرة سخالين الواقعة عند الشواطئ الشرقية لآسيا؛ حيث كان المحكومُ عليهم يقضون مدد العقوبة في ظروف وحشية. قام تشيخوف بتلك الرحلة عام ١٨٩٠ في عربات تجرها الخيول، ثم سجل رحلته في كتاب من ثلاثمائة وخمسين صفحة بعنوان «جزيرة سخالين» صدر عام ١٨٩٣، كما ألهمته الرحلة بعضًا من أروع قصصه التي ظهرت فيما بعد. قام تشيخوف برحلته وهو في قمة نضجه الأدبي وشهرته، فأجرى أول إحصاء لتعداد السكان في تلك الجزيرة، ورصد الأمراض المنتشرة بينهم، والأدوية التي يتناولونها، وأصناف العقاب التي تحل بهم، وأنواع العمل الذي تقوم به النساء والأطفال، وظروف المعيشة في السجون.

قبل قيام تشيخوف برحلته حاول صديقه «سوفورين» أن يثنيه عنها نظرًا لحالة تشيخوف الصحية ولمتاعب الطريق الشّاق، فكتب تشيخوف إليه يقول: «تخبرني في رسالتك إنه لا يوجد في سخالين أي شيء مثير للاهتمام ... لكن سخالين في الوقت

الحاضر هي المكان الوحيد الذي يمكننا أن ندرس فيه كيف يتم استخدام المحكوم عليهم في تعمير المناطق المهجورة ... إن سخالين موضع لعذاب لا يطاق، عذاب لا طاقة لمخلوق به إلا الإنسان سواء أكان حرًا أم مستعبدًا ... ويتضح لي من الكتب التي قرأتها حتى الآن والتي أقرأها حاليًا أننا قد أغمضنا أعيننا عن ملايين البشر الذين يتعفنون هناك في السجون بدون هدف أو تفكير وبصورة بربرية».

هكذا كان تشيخوف يرى دور المثقف، ليس في التباهي والادعاء، بل في عمل صادق من أجل الناس والمجتمع، من ثَمَّ اتجه إلى سخالين وهو مصاب بالسل، وقام بإحصاء عدد السكان في مجموعة من الأماكن والتعرف إلى ظروفهم المعيشية وصمم بنفسه بطاقات خاصة لجمع المعلومات وتصنيفها. يقدم لنا النص التالي صورةً مرعبة، لحياة غريبة، وأناس مسحوقين، على جزيرة نائية. مع ذلك سيشعر القارئ أن النص يتنفس بروح تشيخوف العطوف، الساخرة برقة، الرحيمة، وبقدرته المذهلة كأديب يلحظ أدق التفاصيل، ها هو جزء من أوراقه التي لم تترجم من قبل.

من «جزيرة سخالين»

-١-

لكي أستطيع –حسب الإمكان- زيارة كل نقاط التجمعات السكانية والتعرف عن قرب إلى حياة

المنفيين هنا، لجأتُ إلى وسيلة كانت الوحيدة الممكنة في وضعي الحالي.

قمتُ بإحصاء السكان في القرى التي تواجدت فيها، مررتُ على كل الأكواخ، سجلتُ أسماء أصحابها، وأفراد عائلاتهم، والقاطنين، والعاملين. وقد تفضلوا بأدب فعرضوا عليَّ مساعدين من باب اختصار الوقت وتسهيل العمل، لكن بما أن هدفي الرئيسي لم يكن فقط نتائج الإحصاء الذي أقوم به، بل الانطباعات التي أتلقاها خلال ذلك، فإنني لم ألجأ إلى مساعدة الآخرين إلا في حالات نادرة.

من الصعوبة بمكان في واقع الأمر أن نطلق كلمة إحصاء على عمل قام به شخص واحد خلال ثلاثة شهور، فنتيجة ذلك التعداد لا يمكن أن تكون دقيقة أو وافية، مع ذلك ربما تكون أرقامي هذه نافعة للبعض نظرًا لعدم توفر أية معطيات أخرى أكثر جدية، لا في السجلات ولا في الدواوين الحكومية لجزيرة سخالين.

استخدمتُ في الإحصاء بطاقات تم طبعها خصيصًا من أجلي في مطبعة إدارة الشرطة، أما عملية التعداد ذاتها فكانت تجري كالتالي: في السطر الأول من كل بطاقة سجلتُ اسم المركز السكاني أو القرية. في السطر الثاني رقم المسكن حسب القوائم الحكومية. في السطر الثالث حالة الشخص: محكومٌ عليه بالأشغال الشاقة، أو مستوطن، أو فلاح منفي، أو حر. كان المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة حين أسألهم عن وضعهم يجيبون

بقولهم: «عامل». فإذا كان قبل الحكم عليه من جنود الجيش فإنه يضيف: «من الجنود يا صاحب السعادة». وحين يقضي الشخص مدة الحكم أو حسب تعبيره «حين تنتهي مدة الخدمة»، فإنه يصبح مستوطنًا في الجزيرة. لكن كلمة مستوطن هنا لا تتميز كثيرًا عن كلمة مواطن مع الحقوق التي تصاحب الوضعية الجديدة، وردًا على سؤالي: ما هو وضعك؟ يجيب المستوطن عادة هكذا: «حُرٌّ».

في السطر الرابع أسجل اسم الشخص واسم والده ولقب العائلة، بذلك الصدد أتذكر شيئًا واحدًا، أنني حسبما أظن، لم أسجل بشكل صحيح اسمًا واحدًا من أسماء النساء التتاريات هناك؛ إذ يصعب أن تتوصل لشيء واضح مع العائلات التتارية؛ حيث الكثير من البنات، والأب والأم بالكاد يفهمان باللغة الروسية، من ثم كنتُ مضطرًا أن أعتمد على التخمين وأنا أسجل التتارية التي تكتب حتى في الملفات الحكومية بشكل غير صحيح، ويحدث أن تلتقي برجل روسي أرثوذكسي وتسأله: ما اسمك؟ فيجيب بجدية قائلًا: «كارل». إنه أفاق متشرد استبدل في الطريق باسمه اسم شخص ما ألماني. أذكر أنني سجلتُ حالتين من هذا النوع: كارل لانجر، وكارل كارلوف، وقد التقيت بمحكوم بالأشغال الشاقة يدعي أن اسمه نابليون. صادفت أيضًا امرأة متشردة تقول إن اسمها «براسكوفيا» وهي ماريا. أما فيما يتعلق بألقاب الأشخاص، فقد وجدت في سخالين

ألقابًا كثيرة مثل بوجدانوف، وبيسبالوف، وألقابًا أخرى كثيرة مضحكة مثل: «الكافر»، و«أبو معدة»، و«النطع». وكما قالوا لي فإن ألقاب العائلات التتارية في جزيرة سخالين تظل تشير بالرغم من حرمان أصحابها من كافة الحقوق إلى مراتب سامية، لا أدري مدى صحة ذلك، لكني سجلت عددًا غير قليل من السلاطين، وأمراء الخانات. الاسم الأكثر شيوعًا بين المتشردين هو إيفان، واللقب هو «لا أذكر». وإليكم أسماء وألقاب بعض أولئك المتشردين: «مصطفى لا أذكر». «فاسيلي بلا وطن». «فرانتس لا أذكر عشرون عامًا» (الرقم هنا جزء من اللقب ذاته)! «ياكوف عديم القلب». «إيفان المتشرد ٣٥ سنة» (الرقم جزء من اللقب).

في السطر الخامس كنت أسجل السن؛ النساء اللواتي تجاوزن الأربعين يتذكرن أعمارهن بصعوبة، ويجبن على سؤالي وهن يفكرن. الأرمن من خليج يريفان لا يعرفون أعمارهم على الإطلاق، وقد أجابني أحدهم على النحو التالي: «ربما أبلغ من العمر ثلاثين سنة، وربما أكون قد بلغت الخمسين بالفعل». في تلك الحالات كنت أحدد العمر تقريبًا بالنظر إلى الشخص، ثم أقوم بمراجعة ذلك على الأوراق الأخرى، أما الذين كانوا أقل من خمس عشرة سنة أو أكثر قليلًا، فكانوا في العادة يُكبرون أعمارهم. واحدة منهن كانت في سن عروس، أو أنها مارست الدعارة منذ زمن بعيد وتدعي أن عمرها لا يزيد عن ثلاثة عشر أو أربعة عشر عامًا. السر في ذلك أن

الأطفال والمراهقين تحت سن الخامسة عشرة في الأسر الفقيرة يحصلون على نباتات للعلف من الإدارة؛ لذلك كانوا هم وآباؤهم لا يقولون الحقيقة.

في السطر السادس كنت أسجل الديانة. السابع محل الميلاد. وردًا على سؤالي أين ولدت؟ كنت أتلقى الإجابة فورًا دون صعوبة، لكن المتشردين كانوا يجيبون على السؤال بنوع من الحذر وبكلام يحتمل معنيين أو بقولهم «لا أتذكر أين ولدت». حين سألتُ فتاة شابة تدعى «نتاليا لا أذكر» من أية محافظة أنت؟ قالت لي: «من كل محافظة شوية»!

السطر الثامن كنت أسجل فيه: في أي عام وصلتَ إلى سخالين؟ وكان من النادر أن يجيبني أحد على هذا السؤال فورًا أو بدون توتر، وعلى الرغم من أن العام الأول في سخالين هو عادة عام التعاسة المرعبة إلا أنهم إما لا يعرفون في أي عام جاءوا إلى هنا وإما أنهم لا يتذكرون. حين سألت امرأة محكوم عليها بالأشغال الشاقة: في أية سنة جاءوا بك إلى سخالين؟ أجابتني بخمول بدون أن ترهق نفسها بالتفكير: «من يدري؟ لابد أنها سنة ثلاثة وثمانين». تدخل في الحديث زوجها ولعله كان فقط يسكن معها قائلًا لها: «مال لسانك شغال على الفاضي؟ أنتِ جئتِ إلى هنا سنة خمسة وثمانين». وافقته المرأة وهي تتنفس بارتياح: «ممكن في خمسة وثمانين». وحين بدأنا معًا في حساب السنوات اتضح أن الرجل كان على حق. الرجال عادة لا يشعرون

بالحرج الذي تشعر به النساء، ومع ذلك فإنهم لا يجيبون فورًا ويفكرون بعض الوقت قبل أن ينطقوا. أسأل أحد المستوطنين: في أي سنة جاءوا بك إلى سخالين؟ فيرد عليَّ بدون ثقة وهو يختلس النظر إلى صاحبه: «أنا جئت في نفس الدفعة التي جاء فيها صاحبي جلادكي، الدفعة الأولى من المتطوعين التي جاءت إلى هنا عام ١٨٧٩». أسجل ما قاله، يحدث أحيانًا أن أتلقى إجابة من هذا النوع: «أنا قضيت ست سنوات أشغال شاقة، ولي ثلاث سنوات مستوطن ... احسبها أنت بقى». أقول له: إذن أنت في سخالين للعام التاسع؟ يقول: «لا.. لا.. قبل هذا قضيت سنتين في السجن المركزي». أو يحدث أن أسمع إجابة من هذا النوع: «أنا جئث في السنة التي قتلوا فيها ديربين»، أو: «جئت في سنة وفاة ميتسول».

في السطر التاسع كنت أسجل العمل الأساسي للشخص أو حرفته. في السطر العاشر القراءة والكتابة. عادة كان السؤال يُطرح كالتالي: «هل تُتقن قواعد القراءة والكتابة؟»، لكني كنت أستفسر على النحو الآتي: «هل تستطيع القراءة؟». وقد أنقذتني هذه الصيغة من الإجابات غير الدقيقة؛ لأن الفلاحين الذين لا يستطيعون الكتابة لكنهم يفكون الخط المكتوب عادة ما يقولون إنهم أميون، وهناك فلاحون يدفعهم التواضع للتظاهر بأنهم جهلة فيقولون: «ومن أين ستأتينا القراءة؟ ما الذي يمكن لأمثالنا نحن أن يعرفوه؟» فقط

عند تكراري للسؤال يقولون: «كنتُ في وقت ما أفك الخط لكن الآن نسيت، نحن مجرد أناس جهلة، فلاحون باختصار». ومن كان نظرهم ضعيفًا، أو أصابهم العمى، يعدون أنفسهم جهلة أيضًا.

السطر الحادي عشر يخص الحالة العائلية؛ متزوج، أرمل، عازب؟ فإذا كان متزوجًا، فأين؟ في بلدته ... أم هنا في سخالين؟ مع ذلك فإن كلمة متزوج في سخالين، أو أرمل، أو عازب، لا تحدد الوضع العائلي الفعلي للشخص؛ ففي حالات كثيرة ستجد الكثيرين من المتزوجين يقاسون من حياة الوحدة بدون معاشرة زوجية؛ نظرًا لأن زوجاتهم يعشن في بلداتهن البعيدة، ولا يوافقن على الطلاق. أما العزاب والأرامل فإن لهم عائلاتهم هنا، ولديهم أولاد من نسلهم؛ لذلك كنت أسجل كلمة «وحيد» لتحديد وضع الذين يعيشون بمفردهم رغم أنهم مسجلون بصفتهم متزوجين.

في سخالين فقط وليس في أي مكان آخر في روسيا يتمتع الزواج غير الشرعي بهذا الانتشار الواسع النطاق والعلني متجسدًا في شكل غير مألوف. المعاشرة غير القانونية، أو كما يطلقون عليها هنا المعاشرة الحرة لا تثير استياء أحد في الإدارة الحكومية أو الإدارة الدينية، بل ويتزايد هنا ذلك النوع من العلاقات ويلقى التأييد. هناك قرية لن تعثر فيها كلها على معاشرة واحدة تحت غطاء قانوني، ويقيم الأزواج «الأحرار» حياة منزلية مشتركة على الأسس ذاتها التي يقوم عليها

الزواج القانوني وينجبون أطفالًا للجزيرة، ومن ثم ليس هناك ما يدعو عند تسجيلهم لوضع قواعد خاصة بهم.

أخيرًا السطر الثاني عشر: هل يتلقى الشخص إعانة من الحكومة؟ أريد هنا من خلال الإجابات على ذلك السؤال أن أوضح أية شرائح من السكان لا يسعها أن تعيش من دون دعم الحكومة المالي، وبعبارة أخرى أريد أن أطرح السؤال التالي: من الذي يُطعم الجزيرة؟ الدولة؟ أم أن الجزيرة هي التي تُطعم نفسها؟ بداية يتلقى كل المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة إعانات في شكل طعام، أو أمتعة، أو نقود، وكذلك الذين يستوطنون في السنوات الأولى اللاحقة على قضائهم فترة الحكم، وأيضا العجزة، وأطفال أشد العائلات فقرًا، وعلاوة على المسجلين رسميًا باعتبارهم رجال معاشات، سجلتُ أيضًا الذين يعيشون على حساب الدولة والمنفيين الذين يحصلون على أجور مقابل الخدمات التي يقومون بها مثل المدرسين والمشرفين والكتبة وغير ذلك.

كنتُ أتنقل من كوخ إلى كوخ بمفردي، أحيانًا كان يرافقني أحد المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة، أو مستوطن يشعر بالملل فيأخذ على عاتقه دور المرافق، وكان يمضي خلفي أو يتبعني مثل ظلي من على مسافة محددة مراقب يحمل مسدسًا أرسلوه ورائي احتياطًا ربما أحتاج إليه، وكان جبينه يتصبب عرقًا على الفور إذا توجهت إليه بسؤال ما، ويجيبني: «لا أستطيع أن

أعرف يا صاحب السعادة». عادة كان مرافقي هذا يمشي حافي القدمين بدون غطاء للرأس، يتقدمني وهو يحمل المحبرة، يفتح بضجة باب الكوخ، يسرع هامسًا بشيء لساكن الكوخ، الأرجح أنه ما يتصوره بشأن الاستمارة التي أقوم بتعبئتها.

في مستعمرة المستوطنين يحظى كل مائة رجل بثلاثة وخمسين امرأة، هذه النسبة صحيحة فقط بالنسبة لمن يعيشون في الأكواخ. هناك أيضًا بعض الرجال الذين يبيتون داخل السجون، وهناك الجنود من العازبين، الذين يلزمهم -وفق تعبير أحد المديرين هنا- «موضوع لإشباع حاجاتهم الطبيعية» ... ويأتي إلى الجزيرة ليس فقط المومسات والمجرمات، فقد أصبح من السهل على نساء المجرمين وبناتهم اللواتي يردن اللحاق بآبائهن وبأزواجهن أن يأتين إلى هنا بفضل الإدارة المركزية للسجون والأسطول الذي شق طريقًا مريحًا بين القسم الأوروبي من روسيا وسخالين. منذ فترة قصيرة، لحقت امرأة بزوجها باختيارها، فكان نصيبها إشباع حاجة ثلاثين مجرمًا. في الوقت الحالي فإن وجود نساء من هذا النوع الحر أصبح أمرًا مميزًا للجزيرة، وأمسى من الصعب أن نتصور مراكز سكانية مثل: «ريكوفسكي»، أو «نوفو- ميخايلوفكا» بدون تلك الشخصيات المأساوية التي «جاءت لكي تتدارك حياة زوجها ففقدت حياتها هي». من هذه الزاوية قد تشغل سخالين موقعًا متقدمًا بين المنافي كلها عبر التاريخ.

وسأبدأ بالنساء اللواتي حُكم عليهن بالأشغال الشاقة؛ في الأول من يناير عام ١٨٩٠ كانت نسبة النساء المجرمات في المناطق الثلاث بالجزيرة تساوي تحديدًا ١١.٥٪ من إجمالي المحكوم عليهم، ومن وجهة نظر تعمير تلك المناطق كان لتلك النساء ميزة مهمة: فكلهن يأتين إلى الجزيرة في عمر الشباب نسبيًا، والغالبية العظمى منهن نساء من النوع الحار؛ حُكم عليهن بسبب جرائم الحب الرومانس، أو جرائم ذات طابع عائلي. تقول الواحدة منهن: «جئت لأني قتلت زوجي»، أو تقول: «جئت لأني قتلت حماتي»، كلهن قاتلات، ضحايا للحب، أو الاستبداد الأسري، وحتى اللواتي جئن بسبب إضرام حريق أو تزييف نقود، حُكم عليهن في واقع الأمر بسبب الحب؛ لأن العشاق هم الذين اجتذبوهن للجريمة. إن عنصر الغرام يقوم بالدور الحاسم في حياتهن المحزنة قبل وبعد المحاكمة، وفي رحلة السفن -أثناء نقلها النساء إلى المنفى- تروج بين النساء شائعة أنهم في سخالين سيزوجونهن غصبًا عنهن، ويشعرن بقلق شديد من جراء ذلك، وحدث أن بعضًا من أولئك النسوة توجهن برجاء إلى إدارة السفينة للتدخل ومنع تزويجهن بالقوة. منذ نحو ١٥-٢٠ سنة مضت كانت النساء المحكوم عليهن بالأشغال الشاقة يلتحقن ببيوت للدعارة فور أن يهبطن إلى الجزيرة، وقد كتب فلاسوف في تقرير له يقول: «في جنوب سخالين يتم تسكين النساء في الجناح الذي تقع فيه المخابز، ثم أصدر مدير الجزيرة

أمره بتحويل القسم النسائي إلى بيت للدعارة». أما الحديث عن عمل ما فلم يكن أمرًا واردًا؛ ذلك أن النساء المذنبات أو اللواتي لا يستأهلن نعيم الرجال كن وحدهن يخدمن في المطبخ، أما الأخريات فكن يُشبعن الاحتياجات، ويسكرن حتى الثمالة، وفي نهاية المطاف كانت النساء –حسبما كتب فلاسوف– يبلغن من العهر درجة أنهن يبعن أطفالهن في نوبة سكر من أجل قليل من الكحول.

الآن حين تصل دفعة من النساء فإنهم يسيرون بهن فيما يشبه الاحتفال من رصيف الميناء حتى السجن. على الطريق تجرجر النساء أقدامهن بتعب، منحنيات تحت وطأة الحقائب والأربطة، لم يثبن بعد إلى رشدهن من أمراض البحر، وخلفهن حشد من النسوة والرجال والأولاد وأفراد من الإدارة كما يحدث في الأسواق عند تقديم عرض لمهرج، ويسير الرجال وفي رءوسهم فكرة واضحة بسيطة: لابد لنا من امرأة للبيت. أما النساء فينظرن إن كانت في الدفعة الجديدة امرأة من القرى التي جئن هن منها. الكتبة والمفتشون يبحثون عن «البنات». هذا المشهد يحدث عادة عند المساء، توضع النساء في زنزانة تم إعدادها من قبل ويغلق عليهن الباب، ثم تنطلق الأحاديث طيلة الليل بين الرجال في السجن وفي المركز عن الدفعة الجديدة من النسوة، وعن روعة الحياة العائلية، وعن أنه يستحيل تدبير شئون البيت والحياة بدون امرأة. في الليالي الأولى

والسفينة ما زالت في الميناء لم ترجع بعد تمضي عملية تقسيم النساء على المناطق، يبدأ التقسيم بحصة كبار الموظفين، وتحصل المناطق التابعة لهم على نصيب الأسد من حيث الكمية أو النوعية. المناطق الأبعد قليلًا تحصل على الأقل جودة، أما في الشمال فتجري عملية انتقاء دقيقة جدًا: هنا كأنما عبر فلتر للتنقية تبقى فقط الأكثر شبابًا وجمالًا؛ لذلك فإن الحياة في جنوب سخالين تكون عادة من نصيب العجائز تقريبا، أو اللواتي «لا يستأهلن نعيم الرجال».

في مركز «كورساكوف» توضع النساء القادمات لتوهن في بناية خشبية خاصة، ويقرر مدير المنطقة والمشرف على القرية من هو الفلاح أو المستوطن الذي يستحق الحصول على امرأة، عادة تكون الأولوية للرجال ذوي السلوك الحسن الذين يدبرون شئونهم ويعتنون بأكواخهم، تتلقى تلك الصفوة القليلة العدد أمرًا بالحضور في يوم محدد وفي ساعة معينة إلى السجن في المركز لاستلام النسوة، في اليوم المحدد على امتداد الطريق العمومي نحو المركز، ترى هنا وهناك «الخطباء» حسبما يطلقون عليهم هنا بنوع من السخرية: أحدهم يرتدي قميصًا أحمر، والآخر يضع على رأسه قبعة غير مألوفة، والثالث في حذاء لامع بكعب عالٍ اشتراه منذ فترة قصيرة من مكان وفي ظروف مجهولة، وحين يصل الرجال جميعًا إلى المركز يدخلونهم معًا إلى البناية الخشبية ويتركونهم فيها مع

النساء. في الربع أو النصف ساعة الأولى يدفع المرء من الخجل والحرج إتاوة الزواج، يتسكع الرجال صامتين وهم يختلسون النظر بصرامة إلى وجوه النسوة، ينتقي كل واحد امرأة، المهم ألا يكون أنفها في السماء، ألا تكون ابتسامتها مستهزئة، أن تكون جادة تمامًا، وأن تشعر بالعطف على قبح الرجال، وسنهم المتقدمة، وهيئتهم كمحكوم عليهم، يتسكع الرجل ويحدق ويريد أن يخمن مِن وجوه النسوة: أية واحدة منهن تصلح ربة دار طيبة؟ أتكون واحدة من الشابات؟ أم من المتقدمات في السن؟ يجلس بالقرب من إحداهن ويشرع في مخاطبتها بكلام من قلبه، تسأله: هل عنده إبريق للشاي؟ بم تغطي سقف الكوخ؟ بالتبن أم بألواح الخشب؟ يجيبها الرجل أن لديه إبريقًا وحصانًا وعجلة عمرها سنتين، وأن الكوخ مسقوف بألواح خشبية، بعد ذلك الاختبار حين يشعر الاثنان بأن كل شيء على ما يرام، تحزم المرأة أمرها وتسأله: «طيب.. لكن.. ألن تسيء معاملتي؟».

هكذا ينتهي هذا المقطع الذي رسمه تشيخوف من صورة للإنسانية حين تهبط في معاملتها لبعضها بعضًا إلى حد البربرية.

ذات يوم قام الأديب ألكسندر كوبرين بزيارة إلى تشيخوف في بيته بيالطا، وقال له تشيخوف وهما يجلسان في حديقة البيت: «لقد غُرست كل شجرة هنا في حضوري، وكان المكان من قبلي خربًا مليئًا بالأحجار

والأشواك، وجئتُ أنا إلى هنا وجعلت من هذه البقعة ركنًا مهذبًا جميلًا. أتدري؟ بعد ثلاثمائة أو أربعمائة سنة ستصبح الأرض كلها حديقة غناء». كان حلم تشيخوف كله أن تغدو الأرض «حديقة غناء» وأن تصبح حياة الإنسان «مهيبة وجميلة كقبة السماء».

***

نجوم كثيرة ... وقمر واحد

التقيت في روسيا بأدباء كثيرين، في أغلب الأحيان حدث ذلك بالمصادفة أو بحكم عملي كمراسل صحفي، التقيت بجنكيز أيتماتوف، والشاعر المعروف يفجيني يفتوشنكو، والروائي الشهير فالنتين راسبوتين، والكاتب أناتولي سفرونوف وغيرهم. قابلت أيضًا الشاعر العظيم رسول حمزاتوف، وكانت قصائده ملء السمع والبصر؛ كان لقائي الأول به في شارع «بافارسكايا» بمقر اتحاد الكتاب في بيت قديم من طابقين كان ملكًا للروائي العظيم ليف تولستوي، ويقال إنه في ذلك البيت بدأ كتابة روايته الشهيرة «الحرب والسلام». قدمتني الصديقة «أولجا فلاسوفا» إلى الشاعر الكبير، فاقترح على الفور أن نتجه لمطعم الاتحاد بالطابق الأرضي لنتغدى معًا وسار أمامنا وهو يضحك ويمزح بصوت مرتفع. كان حمزاتوف ممتلئًا قصير القامة، رأسه ضخم وصوته غليظ، مفعمًا بالطفولة والمودة، يحرك يديه كثيرًا، وتتبدل تعابير وجهه كل لحظة بحيوية وعمق إنساني غريب، أحببته منذ أن التقيت به.

في الغربة كنت كثيرًا ما أشعر أنني مثل عود قصب -لا ينمو إلا في دفء الشمس- لكنه غُرز بالقوة في صقيع بارد، فلا هو أصبح نباتًا آخر ولا الأرض صارت منه دافئة، وعندما كانت تعتصرني لحظات الغربة تلك كنت أبحث عن صوت رسول حمزاتوف الجهير الطيب، وما أن أكلمه في الهاتف حتى أشعر بالطمأنينة، كان يكفيني

وأنا أذرع شوارع موسكو المكسوة بالثلوج البيضاء أن أتذكر أن حمزاتوف يحيا ويتنفس هنا في مكان ما لكي أشعر على الفور أن قوى الخير أكبر من الشر، وأن هذا العالم لابد أن يصبح يومًا ما أفضل وأجمل.

كلمته ذات يوم فعاتبني لأنني لا أتصل به إلا قليلًا، قلت له: «أخشى أن آخذ من وقتك وأشغلك عن قصيدة أو عمل». هتف بي: «يا أحمد، أنا أمنح أصدقائي وقتي المشغول، أما الغرباء فأترك لهم أوقات الفراغ»!

عاش حمزاتوف أشهر من وطنه الصغير «داغستان» التي تقع في القوقاز بجنوب روسيا، وكان وطنه يُنسب إليه، فيقال «داغستان حمزاتوف»! ولم يعشق حمزاتوف وطنًا سوى بلده الجبلي الصغير الذي دخله العرب في القرن السابع الميلادي، وظلت الثقافة العربية تسوده نحو ألف عام، في إحدى قصائده الجميلة يقول حمزاتوف:

«نجوم كثيرة ... وقمر واحد

نساء كثيرات ... وأم واحدة

بلاد كثيرة ... ووطن واحد!»

ولد رسول حمزاتوف في قرية صغيرة بين أحضان الجبال، وكان والده ينظم الشعر باللغة الآفارية القومية وباللغة العربية أيضًا، حتى أن هناك ساحة ونصبًا تذكاريًا باسم والده في العاصمة محج قلعة، قال لي حمزاتوف ذات مرة ضاحكًا إن والده كان إذا كتب

قصائد غزل في نساء أخريات فإنه كان يكتبها باللغة العربية لكي لا تفهمها أمه إذا عثرت عليها!

لمع اسم حمزاتوف مع صدور أول ديوان له عام ١٩٤٣، وكانت قصائده ومضًا جديدًا حارًا من كبرياء أهل الجبال الذين عاشوا يثقون أن الرصاصة أعز على القوقازي من جرعة الماء ورغيف الخبز، وظلوا أمدًا طويلًا يسترجعون صيحة الإمام شامل «قدسوا الحرية يا أهل الجبال ودافعوا عنها كأنها أمهاتكم، لا يغرنكم ذهب ولا ثروة، فليس لكم حياة من دون الحرية يا أهل الجبال»! هو الإمام الذي خاض حربًا ضد القياصرة استمرت نحو ربع قرن (١٨٣٦- ١٨٥٩)، حتى أجبرته موازين القوى على الاستسلام أمام قوات العقيد «لازاريف» قائد قوات القيصر ألكسندر الثاني. وبعد مائة عام ينشد المغني الشيشاني عليم سلطانوف للإمام غنوة يقول له فيها: «ما من مصير أشد قسوة من البسالة المحكوم عليها بالموت». هي الحرب ذاتها التي كتب عنها فريدريك أنجلس في مقاله «فرص الحرب» قائلًا: «إننا لم نشهد مع تعاقب عدة أجيال حروبًا حقيقية في وسط أوروبا تشارك فيها الشعوب بنفسها، لكننا رأينا هذه الحروب فقط في القوقاز والجزائر؛ حيث استمر النضال لحوالي عشرين عامًا».

خرج حمزاتوف من هذا التاريخ المشبع بالكبرياء، وكان طبيعيًا أن يكتب: إن صهوة الخيل في القوقاز هي وسادة الرجال الذين يولدون فرسانًا على سروج الخيل

أو يرقدون تحت الثرى. وكان لحمزاتوف بيتان، واحد في محج قلعة عاصمة داغستان، والثاني في شارع جوركي بموسكو. دعاني ذات يوم إلى الغداء معه وقدم لي زوجته قائلًا: فاطمة. ثم جاءت ابنته الكبرى فأشار إليها قائلًا: فاطمة. ثم أقبلت ابنته الثانية فسألته ضاحكًا: فاطمة أيضًا؟ قهقه قائلًا: لو كانت هذه هي أيضًا فاطمة لأصبحت أنا أستاذًا في العلوم الفاطمية!

كانت كل أحاديثه شعرًا منثورًا. سألته مرة: تعيش في داغستان عشرون قومية لكل منها لغتها الخاصة. ألا تحلم بأن يحل يوم تتكلم فيه داغستان لغة واحدة؟ أجابني على الفور وهو يبتسم: عشرون لغة! السماء مليئة بالنجوم فهل تصبح السماء أجمل إذا نحن جمعنا النجوم كلها في شمس واحدة؟! لم لا ترى جمال التنوع؟

عندما أخذت الدولة السوفيتية في الانهيار كتب حمزاتوف: «أصبح سعر الطماطم أغلى من سعر البشر، وصار كل شيء يباع ويشترى، الضمير والبطولة، الموهبة والجمال، النساء والأطفال، الشعر والموسيقى، الأرض والأمومة». وامتدت حرائق الانهيار إلى أطراف روسيا وإلى جنوبها؛ حيث الشيشان وداغستان وأحسست عن بعد بألمه من بوادر تمزق وطنه الصغير بالصراع والحرب. كلمته فقال لي: «لقد بدأت البغضاء تشق طريقها إلينا، البعض يريد تقسيم داغستان من شدة التخمة والشبع، والبعض الآخر من شدة الجوع،

وعندما تزداد وطأة الأحمال يأخذ البؤساء في سحق بعضهم بعضًا بينما ينتشي الأثرياء ويمعنون في السفاهة»!

في مايو ١٩٩٥ قمتُ برحلة إلى الشيشان لتغطية الحرب الشيشانية الروسية لصحيفة عربية، وكان الوصول إلى الشيشان مباشرة مستحيلًا، كان عليَّ أن أمر أولًا بداغستان وطن حمزاتوف ومن الحدود هناك إلى الشيشان، سافرت من موسكو بالطائرة وهبطت في مطار محج قلعة، خرجت إلى وسط المدينة وحجزت حجرة في فندق «لينينجرادسكايا» وضعت حقائبي ثم خرجت بعد ذلك لأتفرج على محج قلعة، أدهشتني وأنا أنعطف من شارع لآخر أنغام الموسيقى العربية المنبعثة من محلات وأكشاك بيع الشرائط الموسيقية! كنت أسير وتتناهى لسمعي طوال الوقت أغنيات فيروز وعبد الحليم حافظ ومحمد عبد الوهاب والموشحات السورية والأغنيات العراقية وابتهالات الشيخ النقشبندي وتلاوة قرآنية للشيخ الحصري! خلال الأيام التي عشتها في محج قلعة تعرفت إلى أسرة داغستانية كان ابنها الأكبر طبيبًا فتحدث معي عن تقاليد وعادات بلده. في اليوم التالي دعاني لحضور عرس داغستاني، وقال لي في الطريق: إن الفتاة عندهم لا تستطيع الزواج بدون موافقة أسرتها لكن مع وضع رأيها في الاعتبار. وما زالت عند بعض القوميات عادة فض بكارة الفتاة ليلة زفافها على يدي خالاتها أو عماتها والاحتفال بطهارة

العروس بإطلاق الرصاص في الهواء. أما العرس ذاته فيستمر أربعة أيام، ويبدأ بمسيرة العروس إلى بيت زوجها محاطة بأهلها من الرجال وقد تمنطقوا بالسيوف، والنساء حولها يضربن على الدفوف وينشدن لها:

«يا قمر الجبال ... حلالك حلالك

تكسرت المرايا ... من شدة جمالك».

عندما تطأ العروس بيت زوجها يلقاها أهله، وهم ينثرون القطع النقدية على وشاح رأسها الأبيض وفي الهواء، ثم تتقدم أم زوجها فتضع ملعقة من العسل الأبيض في فم العروس بشرى بحياة حلوة.

تُعد داغستان مركز الثقافة وسط جمهوريات القوقاز الأخرى. ومنها خرج الإمام شامل، الذي وُلد في قرية «جميري» بين أحضان الجبال الداغستانية، ثم قاد عام ١٨٣٤ أكبر ثورة في تاريخ القوقاز، ونجح في إقامة أول دولة (إمامة) تضم شعوب القوقاز، وجعل اللغة العربية لغتها الرسمية في المكاتبات والمراسلات والاتفاقيات والخطابات الموجهة إلى النواب، وعندما أراد الإمام أن يضع دستورًا لدولته أسعفه محمد علي باني نهضة مصر فأرسل إليه ضابطًا مصريًا فوضع له «نظام» (أي دستور) تلك الدولة! وكان نضال الإمام شامل قد اتسع إلى تهديد تركيا التي كان محمد علي يسعى هو أيضًا للتحرر منها، فاتخذ من الإمام شامل حليفًا له.

اتجهتُ إلى الشيشان والتقيت هناك بجوهر دودايف

رئيس الجمهورية حينذاك، وأصلان ماسخادوف رئيسها لاحقًا، وعشت مع المقاتلين أيامًا تحت القصف، ثم رجعت إلى داغستان، وبينما أنا أتجول في شوارعها في اليوم السابق على عودتي لموسكو إذا بي أرى أمامي رسول حمزاتوف!

رحب بي بحرارة وهو مندهش من وجودي في بلده، وقال لي: «ما الذي تفعله هنا؟ الناس يهاجرون من مناطق الصراع وأنت تأتي إليها؟». قلت له: إن الصحيفة التي أعمل مراسلًا لها كلفتني بتغطية الحرب الروسية الشيشانية. اغتم قليلًا وقال: «لم أعد الآن أفارق بيتي في محج قلعة، لقد تمت الجريمة الكبرى على يدي جورباتشوف، ثم الرئيس الروسي بوريس يلتسين. انتهت الاشتراكية والديكتاتورية برحيل بريجنيف وتشيرنينكو، لكن السوق والديمقراطية مع جورباتشوف ويلتسين لم تأتنا بخير. كان الناس فيما مضى يشعرون بوطأة الكذب والخداع، أما اليوم فيشعرون بوطأة الكذب والخداع والقسوة والكراهية والحرب، المأساة أنهم نفس الممثلون القدامى وقد غيروا الأقنعة وشرعوا يقومون بأدوار جديدة، لقد وُلدت شمولية جديدة بديلًا عن الشمولية القديمة، وكان من المستحيل أن تشتعل الحرب في الشيشان لولا الديكتاتورية الجديدة، المؤسف أن الكثيرين بدلوا مواقفهم في غمضة عين». صمت وأضاف: «يمكن للمرء أن يبدل قبعته ... لكن لا يمكن أن يبدل رأسه»!

كنت أعلم أن زوجته الرقيقة فاطمة قد تُوفيت ولم أشأ أن أنكأ جرحه، بعدها بسنوات قليلة رحل حمزاتوف عن عالمنا، وقبل أن يموت بأسابيع ترك ملاحظة يقول فيها: «كانت حياتي مسودة كنت أتمنى لو أتيح لي الوقت لتصحيحها، إن كنت قد أخطأت في شيء فإن عذري أنها المرة الأولى التي أحيا فيها على سطح الكرة الأرضية».

كثيرًا ما أتذكر حمزاتوف بحب غامر وحينذاك أسأل نفسي: «ترى كم من البشر قد يُتاح له أن يحيا مسودة عظيمة كتلك التي عاشها الشاعر الكبير؟ كل لحظة فيها كانت شعرًا خالصًا ومحبة للعالم؟».

***

سولجينتسين أسطورة مواجهة

كاتب روسي صارع ليس دولة بل دولتين، كافح ليس نظامًا سياسيًا واحدًا بل نظامين، لم تستطع الشيوعية السوفيتية أن تكسر قلمه، ولم تتمكن الرأسمالية الروسية من شرائه بالأوسمة والمال، فأصبح نموذجًا للأديب المقاتل حين يضع نصب عينه هموم شعبه وحياته، وليس استرضاء النظام أو تفادي الصدام معه، إنه ألكسندر سولجينتسين، الذي قطع طريقًا مشابهًا للطريق التي قطعها جنكيز أيتماتوف، فقد جاء هو الآخر من وسط فقير، وعاش طفولة حرمان وعوز شديدين، لكنه تعرض للاعتقال والتنكيل، وظل مخلصًا للحقيقة.

ولد سولجينتسين في ١٩١٨ في مدينة كيسليفود بالقوقاز، توفي والده –وكان فلاحًا روسيًا بسيطًا- قبل مولده، وعاش مع والدته في فقر مدقع، وأنهى مدرسة متوسطة في «روستوف»، ثم التحق بكلية الرياضيات والفيزياء، وعام ١٩٤٠ انتسب إلى كلية الآداب بمعهد الفلسفة بموسكو.

عند اندلاع الحرب العالمية الثانية تم استدعاؤه للخدمة العسكرية ونال وسامًا من الدرجة الثانية، لكنهم اعتقلوه في فبراير ١٩٤٥ وهو برتبة نقيب بسبب آرائه المعادية لستالين والقيادة السوفيتية، التي عبر عنها في رسائل لأحد أصدقائه. حُكم على الكاتب بالسجن لمدة ثمانية أعوام وهو في السابعة والعشرين من عمره وفقًا

للمادة رقم «٥٨» الشهيرة زمن ستالين. قضى سولجينتسين فترة من مدة الحكم في سيبريا أقسى مكان للسجون والمنافي، ثم نُقل إلى معسكرات العمل الإجباري بضواحي موسكو، وقضى الثلاث سنوات الأخيرة من ١٩٥٠ حتى ١٩٥٣ في معسكرات مشابهة في كازاخستان. قبل خروجه من السجن اكتشف سولجينتسين أنه مصاب بسرطان في المعدة، وأجريت له عملية جراحية داخل المعسكر بإمكانيات طبية ضعيفة، لكن سولجينتسين استجمع عزيمته وأحلامه وكافح المرض اللعين وانتصر عليه!

في اليوم الذي خرج فيه من سجنه خطرت له فكرة روايته الشهيرة «جناح السرطان» التي كتبها فيما بعد وجلبت له الشهرة، وصور فيها انتصار الإرادة الإنسانية على المرض في أشق الظروف مستحضرًا تجربته الخاصة، وكان سولجينتسين قد بدأ كتابة الشعر مبكرًا، وطرأ أول مشروع روائي له وهو شاب في التاسعة عشرة. الآن يخرج إلى الحرية، يكتب «جناح السرطان». ويتبادل المثقفون والأدباء قراءة روايته في السر، ثم يكتب سولجينتسين روايته الثانية الجميلة «الدائرة الأولى»، وتظل الروايتان ممنوعتين داخل الاتحاد السوفيتي، ويتم تهريب الروايتين إلى خارج البلاد فتجدان تقديرًا واسعًا في الغرب الذي تعرَّف للمرة الأولى على حقيقة معسكرات العمل السوفيتية.

عام ١٩٥٦ ينتقل الكاتب إلى مقاطعة «فلاديمير»

ويقوم هناك بتدريس الفيزياء والرياضيات في مدرسة بقرية صغيرة، ويكتب عن البيت المتواضع الذي عاش فيه روايته «حوش ماتريونا».

في تلك السنوات توفي ستالين وصعد نيكيتا خروتشوف إلى الحكم وشن حملة على ديكتاتورية ستالين وحكمه وبدأت المرحلة التي عُرفت بمرحلة «ذوبان الثلوج». عام ١٩٦٢ سمح الرئيس خروتشوف بنشر رواية سولجينتسين «يوم من حياة إيفان دنيسوفيتش» في المجلة الأدبية «نوفي مير»؛ الرواية تصور حياة نجار روسي بسيط يكافح من أجل البقاء على قيد الحياة في معسكر للعمل الإجباري. بفضل هذه الرواية تحول اسم سولجينيتسين إلى عَلَم، وسارعت دور النشر الغربية بترجمة الرواية ونشرها على أوسع نطاق، وغدَا الكاتب أحد أشهر الأدباء في الخارج، أما داخل الاتحاد السوفيتي فقد أحدثت الرواية أثرًا يشبه الانقلاب الفكري والأدبي، وعندما التقى الزعيم السوفيتي نيكيتا خروتشوف بالكاتب في ١٢ أكتوبر ١٩٦٢ صرح بقوله: «أعترف أنني كنت أقرأ الرواية في البداية بروح متحاملة، لكنها اجتذبتني بعد ذلك شيئًا فشيئًا، وأعدها عملًا قويًا للغاية، هي لا تستدعي المشاعر الثقيلة رغم أنها مليئة بالمرارة ... بل إنها رواية تدعو للثقة بالحياة حسب اعتقادي ومكتوبة من منطلق حزبي».

وتوالت على سولجينتسين آلاف الرسائل من قراء

ومعتقلين سابقين يصفون تجاربهم في تلك المعسكرات، أصبحت تلك الرسائل ذخيرة اعتمد عليها الكاتب فيما بعد عندما كتب روايته «أرخبيل جولاج» (جزر المعتقلات) التي رصدت عمليات التنكيل السوفيتية من ١٩١٨ حتى ١٩٥٦، ورغم امتداح خروتشوف لرواية «يوم من حياة إيفان دنيسوفيتش» إلا أنهم منعوا إعادة طباعتها، كما منعوا نشر أعمال سولجينتسين الجديدة! لكن ذلك الحصار لم يدفع الكاتب لليأس، فواصل الكتابة بصبر ودأب تسعة أعوام أخرى ما بين ١٩٥٨ حتى ١٩٦٧ بدون أن ينشروا له حرفًا! عام ١٩٦٩ قرر اتحاد الكتاب السوفيت طرد سولجينتسين من عضوية الاتحاد، بعدها بعام واحد نال الكاتب جائزة نوبل العالمية، وجاء في حيثيات منحه الجائزة أن الكاتب «يمثل القوة الأخلاقية ويواصل بها تقاليد الأدب الروسي».

يمتنع سولجينتسين عن السفر لاستلام الجائزة خشية ألا تسمح له السلطات السوفيتية بالعودة إلى روسيا، السلطة –عهد ليونيد بريجنيف- عدت منح الكاتب جائزة نوبل عملًا سياسيًا عدائيًا من جانب الغرب. في ٧ يناير ١٩٧٤ صرح الرئيس ليونيد بريجنيف في اجتماع للمكتب السياسي للحزب بقوله «صدرت رواية جديدة لألكسندر سولجينتسين بعنوان «أرخبيل جولاج» وحتى الآن لم يقرأها أحد، لكن محتواها معروف مسبقًا، إنه هجاء فظ للسوفييت ... ومن ثم فإن لدينا كل المسوغات الكافية لنضع سولجينتسين في السجن، فقد

تجرأ على تاريخنا السوفيتي وعلى السلطة، لقد تمادى كثيرًا هذا العنصر المعربد المسمى سولجينتسين ولم يعد يأبه بأي شيء».

على الفور تم إلقاء القبض على الكاتب الكبير في ١٢ فبراير ١٩٧٤ وهو في السادسة والخمسين من العمر بتهمة «خيانة الوطن»! بعدها يتم نفيه إلى ألمانيا الغربية، ويقرر سولجينتسين أول الأمر أن يعيش في «زيورخ» بسويسرا، لكنه سرعان ما يرحل إلى باريس التي صدر فيها الجزء الأول من روايته «أرخبيل جولاج»، ومن هناك شد رحاله إلى أمريكا واستقر هناك، وفي أمريكا كتب عام ١٩٧٦ ملحمته «العجلة الحمراء». استقبل الغرب الكاتب الكبير بحفاوة بالغة وترجم أعماله إلى كل اللغات الأوروبية، وتوقع في المقابل أن يقدر سولجينتسين كل ذلك الاهتمام، لكن الكاتب فاجأ الجميع في خطاب له في هارفارد عام ١٩٧٨ بقوله: «إن ديمقراطية التعددية الحزبية لا تصلح بالحتم لكي تكون نموذجًا لكل البلدان الأخرى». وتعددت التصريحات التي أظهرت أن سولجينتسين لا يتفق مع كل ما يسود النظم السياسية الغربية من مفاهيم.

وكما فتحت قيادة خروتشوف في حينه الباب لنشر بعض أعمال سولجينتسين فإن صعود جورباتشوف إلى الحكم ١٩٨٥ وإعلانه إعادة البناء فتح الباب لإعادة نشر روايات سولجينتسين في الداخل، كما أعيد الاعتبار والجنسية إلى الكاتب الكبير في أغسطس ١٩٩٠، ووجه

الرئيس جورباتشو الدعوة للكاتب الكبير لكي يعود إلى بلاده، وفي سبتمبر من العام ذاته نشر سولجينتسين كتيبًا صغيرًا بعنوان «كيف نعيد بناء روسيا؟»، وزعت منه سبع وعشرون مليون نسخة داخل الاتحاد السوفيتي! وهو رقم لم يصل إليه أي كاتب من قبل، في كتابه ذلك يستعرض سولجينتسين رؤاه ككاتب روسي قومي يتمسك بإحياء القومية الروسية، وترسيخ النزعة السلافية، والانطلاق من الديانة المسيحية، والأخذ بالتطور العلمي والثقافي، وتقديس كرامة الإنسان وحريته.

في مايو ١٩٩٤ عاد سولجينتسين إلى روسيا لكن بطريقته الخاصة، ليس هبوطًا في مطار موسكو ليستقبله الصحفيون والكاميرات استقبال النجوم، لكنه يرجع بالقطار يمر شهرًا كاملًا على القرى الروسية الفقيرة، استقبله الشعب الروسي والفلاحون والمثقفون كما يليق بكاتب عظيم، وللمرة الأولى تُجمِع وسائل الإعلام على أنه «ضمير الأمة» وأنه «آخر الكتاب الروس العظماء». ترحب بعودته صحيفة إزفستيا بالبنط العريض «الكاتب الذي هزم الدولة السوفيتية»، أما صحيفة «سفودنيا» فتستقبله بعنوان عريض على صدر صفحتها الأولى: «آخر المعلِّمين الذين أشعلت كلماتُهم النار في قلب البشر».

يعود الكاتب إلى بلاده، ويحرص الرئيس الروسي الجديد بوريس يلتسين على لقائه، لكن الكاتب –وليس

الرئيس- هو الذي يؤجل اللقاء! ويظل سولجينتسين يتأمل حصاد تجربة الإصلاحيين الروس الذين قوضوا الدولة السوفيتية فتذهله الحقائق حين يجد أن هناك نحو أربعين مليون مواطن روسي أصبحوا يعيشون تحت خط الفقر، وأن الخصخصة المعلنة لم تكن سوى نهب منظم لمقدرات الاقتصاد الروسي وبيعه بأرخص سعر للعصابات والأجانب بدون أن يعود ذلك بشيء على الشعب، أخيرًا يعلن الكاتب موقفه من البريسترويكا ودعاة الإصلاح قائلًا لصحيفة موسكوفسكي نوفستي: «إن عملية إنقاذ الدولة المنهارة في عهد جورباتشوف لم تتضمن سوى إسقاط مفهوم الدولة لا أكثر، أما في عهد بوريس يلتسين فإن الإصلاحات لم تتجاوز الفوضى ونهب ثروات البلاد بدون حد، فمنذ عام ١٩٩٣ فاقت نسبة الوفيات في روسيا نسبة المواليد بنحو مليون نسمة تقريبًا، ترى أكنا نخسر مليون نسمة من شعبنا سنويًا لو أننا دخلنا حربًا أهلية؟!»، ويصل الكاتب إلى القول: «لم يتمكن حتى الشيوعيون على مدى سبعين عامًا من أن يفعلوا بروسيا ما ارتكبه الديمقراطيون الجدد في حقها»!

عام ١٩٩٦ يقرر الرئيس يلتسين منح الكاتب أعلى وسام في الدولة، كان بوسع الكاتب الكبير أن يحتفظ بصورته في إطار الأسطورة التي كافحت الشيوعية، وأن يظل يتكسب من أسطورة حياته الماضية مكتفيًا بنعيمها، وبدون أن يدخل في صراع مع النظام

الرأسمالي الجديد، لكن سولجينتسين يرفض أعلى وسام يقدمه إليه الرئيس، ويرسل برقية إلى بوريس يلتسين تنشرها الصحف الروسية بذهول «أعتذر عن قبول وسام من سلطة قادت روسيا إلى الخراب»! هكذا أكد الروائي الكبير أنه لم يعد إلى بلاده لكي يتكسب من قصة نضال قديمة، لكنه ما زال مؤرقًا بالحقيقة والعدالة، ويظل الكاتب العظيم غريبًا داخل الرأسمالية كما كان غريبًا داخل الشيوعية!

وسرعان ما يخفت اهتمام السلطات والإعلام بالكاتب الذي لا يني يقول الحقيقة، يشعر سولجينتسين بالتجاهل الرسمي له، فيضرب على نفسه نطاقًا من العزلة في بيته البعيد بضواحي موسكو، وتمر أعياد ميلاده الأخيرة بدون إشارة رسمية إلى وجوده.

في يونيو ٢٠٠٦ يدلي الكاتب بحديث إلى صحيفة «موسكوفسكي نوفستي» يثير غضب الغرب عليه، ويقول فيه: إن «حلف الناتو يضاعف قواه العسكرية بشكل حثيث في شرق أوروبا، ويفتح في الجنوب الطريق للثورات الملونة، ويمد أياديه إلى وسط آسيا مستهدفًا بكل ذلك حصار روسيا وسلبها سيادتها».

وتنفتح على الكاتب حملة مسعورة في الصحافة الروسية، يصبح الكاتب الذي تحدى الشيوعية والرأسمالية الروسية وأطماع التوسع الأمريكية مجرد «خائن»! هكذا تتهمه الصحفية فاليريا نودوفورسكايا وتكتب أن موقفه «خيانة وعودة للنغمة السوفيتية

القديمة»! ويجد سولجينتسين نفسه-ويالغرابة- متهمًا بما عاش يحاربه أي بأنه «سوفيتي»! وحين ينشر الكاتب كتابه «معًا عبر مائتي عامٍ» ويتناول فيه العلاقة بين الروس واليهود تهيج عليه الأوساط الصهيونية في روسيا وتعده «يقدم الذرائع لمعاداة السامية».

بالرغم من كل شيء ارتجت روسيا كلها والعالم عند رحيل سولجينتيسن عام ٢٠٠٨، وجاء في برقية الرئيس الروسي بوتين لأرملة الكاتب ونجله الأكبر: «إن الشعب الروسي كله ونحن الذين عاصرناه نشعر بالفخر؛ لأن سولجينتسين كان ابنًا لشعبنا»، وتنعيه الصحف العالمية كلها، تكتب «التايمز» تحت عنوان «ضمير أمة» تنوه بإبداعه ومواقفه الصلبة عبر كل العهود، وتكتب أسوشيتد برس قائلة: «لقد أيقظ إبداع سولجينتسين في ملايين القراء الإيمان بأن جرأة وشجاعة إنسان واحد يمكن أن تقف في وجه إمبراطورية شمولية كاملة»! وتشير «الديلي تلجراف» إلى أن سنوات الغربة التي قضاها سولجينتسين في الخارج «لم تحوله إلى مواطن غربي، كما أن عداءه للاتحاد السوفيتي لم يحوله إلى نصير للنظام الأمريكي». وينعيه دامير عزت الدين نائب رئيس مجلس المفتيين الروس قائلًا: «كان المسلمون الروس يعدون ألكسندر سولجينتسين وسيعدونه إنسانًا وأديبًا عظيمًا دافع عن كرامته في أصعب الظروف، وضرب مثالًا لضرورة أن يبقى الإنسان مكافحًا من أجل حقوقه وحريته».

كان سولجينتسين آخر الكتاب الروس العظام، عاش حياة كانت مثالًا نادرًا للقوة الروحية غير المحدودة التي قد يتمتع بها إنسان في مواجهة العالم، لم يشغله سوى الدفاع عن الحقيقة، وعن آمال شعبه، فأصبح بكل ذلك أسطورة أدبية وإنسانية لا تتكرر.

***

نظرة على الأدب الروسي الحديث

اختلفت صورة الأدب الروسي الحديث على مدى ربع قرن بدأ منذ زوال الاتحاد السوفيتي بإعلان رسمي في ٨ ديسمبر ١٩٩١حتى يومنا، ويتفق النقاد الروس على وضع الاتجاهات الأدبية الجديدة تحت عنوان عريض هو «أدب مرحلة التحول» الذي خلع خلال ربع قرن جذوره من الماضي لم يستقر بعد على دروب واضحة، وعندما يدور الحديث عن الاتجاهات الحديثة في الأدب الروسي المعاصر، فإن المقصود هو الظواهر والنزعات الفكرية والفنية المختلفة التي ظهرت خلال تلك الفترة بعد فك الارتباط الوثيق بين الأدب وتوجهات النظام السياسي الحاكم، هو إذن أدب «مرحلة التحول» ... إلى ماذا وإلى أين؟ الإجابة تستدعي أن نعرف ولو في عجالة «التحول من ماذا؟» وقد يكون القارئ على اطلاع بصورة الحريات والثقافة القاتمة في العهد السوفيتي، لكنه على الأرجح لم يضع يده على حقيقتين تاريخيتين استندت إليهما السلطة وشكلتا الأساس الفكري والقانوني لملاحقة الإبداع والتنكيل بالأدباء على النحو المروع الذي جرى.

الحقيقة الأولى خاصة بصدور قانون المطبوعات الذي نشرته الحكومة عقب الثورة في ٢٧ أكتوبر ١٩١٧، وأقرت به وقف نشاط الصحف والمطبوعات «المعادية»، وبناء عليه أغلقت في الشهرين الأولين من عمر الثورة أكثر من مائة وخمسين صحيفة، وفي حينه وعد لينين زعيم

الثورة أن ذلك القانون «قانون مؤقت تفرضه الظروف»، وأنه ما أن تستقر أوضاع الثورة حتى ينال الشعب «أكثر القوانين تقدمية». لكن القانون «المؤقت» تحول إلى قانون دائم، وظل يحكم الحياة الثقافية في روسيا والاتحاد السوفيتي لثلاثة وسبعين عامًا كاملة إلى أن صدر قانون جديد للصحافة والمطبوعات في ٢٠ يونيو ١٩٩٠! هذا على مستوى الثقافة والإعلام إجمالًا، أما في المجال الأدبي فتبرز حقيقة أخرى تم ترسيخها في المؤتمر الأول للأدباء السوفيت عام ١٩٣٤، وفيه قام المؤتمر بزعامة مكسيم جوركي وأندريه جدانوف بتدشين نظرية ومصطلح «الواقعية الاشتراكية» مذهبًا أدبيًا رسميًا للإبداع، ومع أن تاريخ الأدب يشير دومًا إلى انحياز النظم السياسية للمدارس والاتجاهات الأدبية التي تخدم النظام الحاكم، إلا أنه لم يحدث على امتداد ذلك التاريخ كله أن اتخذت دولة لنفسها مذهبًا أدبيًا رسميًا إلا في الحالة السوفيتية! وكان ذلك يعني فعليًا أن فتح أي مسارات جديدة للخيال والأدب -خارج نطاق عقيدة الدولة الأدبية- خروجٌ على الدولة والنظام السياسي! هكذا قضى قانون الصحافة بشكل عام على حرية التعبير، وقضى تبني مذهب أدبي على حرية الأدب وتنوعه، وتمت مصادرة حرية التعبير وحرية الأدب مع احتكار حزب واحد للسلطة، وما بين مطرقة قانون الصحافة وسندان «المذهب الأدبي للدولة» طارت رءوس الأدباء وصودرت أعمال، ونُفي كتابٌ إلى

معسكرات الاعتقال، وراحت الدولة تلاحق كل من يفكر أو يشعر خارج إطار السياسة الرسمية المعتمدة، وأغلقت الجمعيات والروابط الأدبية وطرد المبدعون من اتحاد الكتاب وتم التضييق عليهم في أرزاقهم وفيما يكتبون، وفي ثنايا تلك الصورة القاتمة لاحت غارقة في ظلال الموت والأسى أسماءُ شعراء عظماء وأرواحُهم مثل أنَّـا أخماتوفا وزوجها الشاعر نيقولاي جوميليوف الذي أعدم بتهمة ملفقة بعد محاكمة صورية، والقاص العبقري أندريه بلاتونوف، والروائي المذهل ميخائيل بلجاكوف صاحب الرواية العبقرية «المعلم ومرجريتا» انتهاءً بالكاتب الساخر ميخائيل زوشنكا، الذي كان يسخر دون توقف بكل المظاهر السلبية، فأجبرته الدولة على الصمت والعزلة. وتأرجحت في سماء روسيا وطوايا ضميرها أنشوطة الانتحار ملتفة حول أعناق الأدباء، وكان في مقدمتهم الشاعر العظيم سيرجي يسنين الذي عثروا عليه في ديسمبر ١٩٢٥ معلقًا بأنشوطة في حجرة بفندق «إنترناشيونال» وقد ترك بيتين من الشعر على قصاصة يقول فيهما: «ليس ابتكارًا أن تموت، وأن تحيا ليس أكثر ابتكارًا». الأوضح دلالة أن يجدوا بعد ذلك فلاديمير مايكافوفسكي الذي حسبوه «شاعر الثورة والطبقة العاملة» منتحرًا برصاصة في أبريل ١٩٣٠! وتقطر الأجواء بمآسي الأدباء العزَّل الذين واجهوا فرادى كل ذلك الطغيان، فتدخل الشاعرة الروسية العظيمة مارينا تسفيتايفا إلى حجرة

منعزلة في بيتها لتنهي حياتها بأنشوطة في ٣١ أغسطس ١٩٤١وهي في التاسعة والأربعين شاعرة ملء السمع والبصر، مخلفة وراءها قصائدها اللاهبة ومغزى مصيرها الفاجع. أما دواوين الشعر والروايات والقصص غير المرضي عنها فقد ظلت دفاترها حبيسة خزائن حديدية لأكثر من ثلاثين عامًا في مقرات اتحاد الكتاب! ولم ينج سوى الأعمال التي تمكن أصحابها من تهريبها إلى خارج روسيا بمعجزة فطبعت ونشرت هناك.

بعد موت الزعيم السوفيتي ستالين وصل زعيم جديد إلى الحكم عام ١٩٥٥ هو نيكيتا خروتشوف ومعه ظهرت بوادر انفراجة صغيرة عرفت بمرحلة «ذوبان الثلوج» نظرًا لسماح الرقابة بنشر رواية إيليا إهرنبورج «ذوبان الثلوج»، لكن سرعان ما سدت تلك الانفراجة لتتجمد الثلوج في الصقيع ثانية بعد أن نشر ألكسندر سولجينتسين روايته الشهيرة «يوم في حياة إيفان دينيسوفيتش» عام ١٩٦٢ راصدًا فيها بشاعة معسكرات الاعتقال، ثم أعقبها بعمله الكبير «أرخبيل جولاج» في ١٩٦٥ (جزر المعتقلات)، وسجل فيه من واقع رسائل المعتقلين إليه عمليات التنكيل البشعة من ١٩١٨ حتى ١٩٥٦، وتمكن من تهريب الرواية إلى باريس؛ حيث تم نشرها كما حدث مع رواية «دكتور زيفاجو» تأليف باسترناك وغيرها. ولا يستنكف الزعيم السوفيتي ليونيد بريجنيف من التصريح في ٧ يناير ١٩٧٤ داخل اجتماع رسمي وعلنًا بأن روايات سولجينتسين تمثل: «هجاء

فظًا للسوفيت ... ومن ثم فإن لدينا كل المسوغات الكافية لوضعه في السجن»! وتظل البيروقراطية الحزبية تحكم وتنفي وتشيع الخوف إلى أن ظهرت البيرسترويكا (سياسة إعادة البناء) في يونيو ١٩٨٧، فتشرع الكلمة في فك قيودها وسلاسلها وتتقدم الحقيقة لتعلن عن نفسها سياسيًا وأدبيًا.

«مرحلة التحول» الأدبي إذن هي مرحلة الانتقال من استبداد النظام السياسي وفرضه رؤية خاصة للأدب إلى التعددية السياسية، وإلى إبداع بلا ضفاف على مستوى الشكل والمضمون؛ لهذا يصبح مفهومًا تمامًا أن يحدث في النصف الأول من تسعينيات القرن العشرين بعد وقف الرقابة على الأدب ما أسماه أحد الكتاب «انفجارًا أدبيًا في كل الاتجاهات»، وقد اتخذ ذلك الانفجار أشكالًا شتى، كان في مقدمتها في ظل التحول التاريخي بروز تيار أدبي كامل يتقدم حاملًا رايات (الرواية التاريخية) لمراجعة الماضي القاتم، وإعادة قراءته على ضوء جديد، ليتلمس الحقيقة بين ركام الأكاذيب؛ لهذا يرصد النقاد أن ١٢ رواية من أصل ٢٠ تم تداولها في روسيا عام ٢٠١٦ هي روايات تاريخية، إلى جانب أربع روايات شبه تاريخية منها «يوم من أوبرشنيك» تأليف فلاديمير سوروكين، وأيضًا رواية «حلم حياة سوخانوف» لأولجا جروشين وتتناول وضع المرأة في العهد السوفييتي، ورواية «التاريخ السري لموسكو» تأليف يكاترينا سديا، وفيها تستعرض الكاتبة

حياة موسكو في تسعينيات القرن العشرين، وأخيرًا رواية «سانيكا» لزاخار بريلبين عن شخص عالق بين عهدين؛ الماضي الشيوعي والحاضر الرأسمالي، كما فازت رواية الكاتبة يلينا كوليادينا المسماة «الصليب المزهر» بجائزة البوكر الروسية في ٢٠١٠، وفيها تعتمد الكاتبة مباشرة على مواد أرشيفية من القرن السابع عشر تسجل أحداث إحراق فتاة شابة بتهمة مزاولة السحر. الاتجاه التاريخي ظهر أيضًا في رواية الكاتب المعروف فيكتور أستافييف «الملعونون والقتلى» التي تعري جوهر الحروب من الداخل وتعيد النظر في كل ما جرى، وقد تم تحويل الرواية إلى مسرحية عرضت في ٢٠١٠ على مسرح موسكو الفني، ولاقت رواجًا كبيرًا، ولعل أبرز ما يشير إلى اتجاه الرواية الروسية الحديثة إلى التاريخ بقوة هو منح جائزة نوبل للكاتبة سفيتلانا ألكسيفتش عام ٢٠١٦، ورغم الطابع الصحفي لأعمالها، إلا أنها تصب في مراجعة التاريخ السوفييتي، كما فعلت في روايتها «أبناء الزنك»، والمقصود بالزنك هو المادة التي تصنع منها توابيت جثث الجنود الروس العائدة من أفغانستان خلال الحرب السوفيتية هناك ما بين ١٩٧٩-١٩٨٩. إذن تلوح الرواية التاريخية كأحد أهم التيارات الأدبية الروسية الحديثة، وأعتقد أن ذلك مفهوم ومبرر حينما يجد الإنسان أن عليه أن يعيد بناء تاريخه من منظور آخر أدبيًا وفكريًا وسياسيًا، وقد مرت مصر بلحظة مشابهة بعد رحيل الزعيم جمال عبد

الناصر وظهور كتاب توفيق الحكيم «عودة الوعي» الذي كان دعوة لمراجعة التاريخ وقراءته على ضوء حرية الكلمة.

على صعيد آخر، لا يمكن تجاهل حقيقة أن التيار الأدبي الأكثر رواجًا هو تيار أدب التسلية الجماهيري؛ أي الروايات البوليسية وروايات الغرائز الجنسية والخيال العلمي، ويعود ذلك الرواج الهائل إلى النظرة السوفيتية السابقة إلى مثل ذلك النوع من الأدب التي حظرته على أساس أنه «غير هادف»، ومن ثم فإنه لم يكن عمليًا متاحًا للقراء على مدى أكثر من سبعين عامًا، وهي النظرة التي تجاهلت أن ذلك الأدب الجماهيري بأنواعه خاطب ويخاطب دومًا حاجة الإنسان الملحة إلى التخفف من أعبائه بدرجة من الفن وليس بكل أعماق الفن؛ لهذا غرق القارئ الروسي مع الانفتاح الفكري في قراءة روايات أجاثا كريستي، وشرلوك هولمز، وجيمس تشيس، ودارت بقوة عجلة الترجمة في ذلك الاتجاه المربح، على الرغم من أن ذلك النوع ليس جديدًا على الأدب الروسي، فقد سبق أن كتبه في الأربعينيات أدباء مثل ليونوف، ودانييل كاريتسكي في السبعينيات، وغيرهما. أما في السنوات الأخيرة فقد ظهرت كاتبة مثل ألكساندرا مارينينا منذ عام ١٩٩٥ بروايتها «الفصيح»، والكاتبة بولينا داشكوفا التي وصلت مبيعات إحدى رواياتها إلى عشرة ملايين نسخة! ومن أشهر أعمالها رواية «خطوات الجنون الخفيفة»، وهناك

أيضًا بوريس أكونين ومن أشهر رواياته «مهمات خاصة» و«عشيقة الموت» وغيرها. وفي مجال الخيال العلمي برز نيك بيروموف صاحب روايتي «وحدة الساحر» و«حارس السيوف»، وغيره.

وإذا نحينا جانبًا تياري «الرواية التاريخية» و«أدب التسلية الجماهيري» وهما الأكثر انتشارًا وتحددًا شكلًا ومضمونًا، فإن العنوان العريض الذي يجمع التيارات الأدبية الأخرى هو «ما بعد الواقعية»، وفي مقدمتها الواقعية السحرية، والسريالية، والفانتازيا، والعودة إلى الأساطير مادة للعمل الروائي، وأيضًا التيار المعروف باسم «Nonfiction» (ضد القصة أو اللاقصصي)؛ حيث يختلق الكاتب سيرًا ذاتية لشخصية من العظماء، ولعل أبرز نموذج على ذلك النوع هي رواية الكاتب بافل باسينسكي المسماة «ليف تولستوي، الهروب من الجنة» وفيها يتخيل الكاتب وفق قصة هروب الكاتب العملاق تولستوي منذ مائة عام من بيته في ضيعته «ياسنايا بوليانا» ليلًا، وهي من الأحداث العائلية القليلة جدًّا التي أصبحت جزءًا من تاريخ واهتمامات الأدب العالمي، وقد أصبحت هذه الرواية أفضل كتاب تم بيعه في معرض الكتاب الدولي الروسي بموسكو عام ٢٠١٠.

وتشارك أجيال مختلفة في خلق «أدب ما بعد الواقعية» من بينها أدباء جيل الستينيات الذين عاصروا الحقبة السوفيتية مثل فاضل إسكندر، وفالنتين راسبوتين، وفاسيلي أكسيونوف، وغيرهم، وأدباء جيل

السبعينيات مثل فيكتوريا تاكورييفا، وأندريه بيتوف، وغيرهما. أما الجيل الثالث فهو جيل الأدباء الذين ظهروا بعد زوال الاتحاد السوفيتي، مع سياسة إعادة البناء (بيرسترويكا) وفي مقدمتهم تاتيانا تولستايا بمجموعاتها القصصية «الجدران البيضاء» ومجموعة «الدائرة» وأيضًا الكاتب فيكتور بيليفن، وفلاديمير سوروكين، وغيرهم. وهو الجيل الذي بدأ يكتب في عصر لا يعرف الرقابة على الأدب، فاستهواه ما يسمى بتحطيم الطواطم المقدسة؛ أي الخوض في كل ما كان محظورًا بشأن الجنس والعقيدة والسياسة. أما عند نهايات القرن الماضي فقد تألق أدباء من جيل آخر تمامًا، مثل سيرجي شارجونوف، والروائي كوتشيرجين، وأيضًا الكاتب المبدع زاخار بريليبين ولعلهم أكثر أبناء الجيل الحديث موهبة واقتدارًا، وقد فازت روايته «الخطيئة» بجائزة «البوكر الروسي» التي تأسست عام ١٩٩١ في روسيا وفقًا لنموذج جائزة البوكر البريطانية بصفتها أول جائزة أدبية ضخمة في روسيا منذ عام ١٩١٧، وقد لاحظ النقاد أن الجائزة تولي اهتمامًا خاصًا لأولئك الذين خرجوا عن طوع النظرة التقليدية. عند أبناء ذلك الجيل الذي بدأ الإبداع من دون رقابة، وفيما يكتبونه، سنشهد بقوة تلك المرتكزات الفكرية التي تتقاسمها حركات أدبية عديدة في العالم، وفي مقدمة تلك المرتكزات الإيمان بأن عهد الأيديولوجيا والقضايا الكبرى قد ولًى منذ زمن، وأن معنى الوطن قد اهتز

وتبدل، ولم يعد من الممكن التعلق بنموذج أو مثال يحتذى، ولا الحلم بعالم فاضل، فقد سقطت كل المثل، وأن معركة الأدب الوحيدة تدور ما بين الإنسان وداخله، وفي عالم من ذكرياته الحميمة، وهواجسه، ولهذا كثيرًا ما يتم التركيز على الشكل في تلك الأعمال، والأنا، والدوران المنهك حول الذات كنقطة انطلاق لأي شيء، مع إدارة الظهر للعالم الواقعي بمعناه القديم الاعتيادي، فإن كان ثمت صراع قد تبقى فإنه الصراع بين حرية الذات الإنسانية والنظم الشمولية التي تسحق الإنسان أينما كانت، ولعل أبرز ممثلي ذلك الاتجاه هو فيكتور بيليفين رغم انتمائه لجيل أسبق. وسينتبه من يتابع إلى أن الرؤى الفكرية والفلسفية العامة التي امتاز بها الأدب الروسي الكلاسيكي قد غربت تماما في أدب «مرحلة التحول»، فلم يعد يلوح أديب مثل ليف تولستوي صاحب الحرب والسلام ونظرته الأخلاقية والفلسفية للعالم، وكيف ينبغي أن يكون، ولا دوستويفسكي الذي حسب أن «الجمال سينقذ العالم» وأن «الشفقة» وحدها هي القانون الذي يحكم الكون. لن نرى في أدب «مرحلة التحول» نظرة شاملة للإنسان والكون لكن مجرد السير المنهك بحثًا عن نور وأمل، وبحثًا عن هوية في عالم تتداعى فيه الهويات القومية والفكرية، ويبقى التحدى الأكبر أمام الجيل الجديد من الكتاب متمثلًا في العثور على الطريق الذي يمتد من إنجازات الأدب الروسي الكلاسيكية العظيمة مفضيًا في الوقت ذاته إلى

مسارات جديدة وآفاق أرحب، تضيف الجديد إلى دفتر التفاعل الثقافي العربي الروسي الذي كُتبث أول سطوره مع دخول الإسلام إلى آسيا الوسطى المتاخمة لروسيا في القرن السابع الميلادي، وإلى جنوب روسيا نفسها في داغستان والشيشان بالقوقاز، ثم جاءت بعد ذلك رحلة ابن فضلان إلى روسيا مطلع القرن العاشر (٩٢٢) حين وصلها مبعوثًا من بغداد لنشر الإسلام، وكتب كتابه المسمى «رحلة ابن فضلان إلى الفولجا»، وقدم فيه صورة الشعب الروسي للمرة الأولى إلى العرب، وفي المقابل قدم الرحالة الروس صورة العرب إلى روسيا لأول مرة بكتاب «رحلة إيجومين دانييل إلى الأراضي المقدسة في القرن ١٢»، وكان ذلك هو التعارف الأول بين الثقافتين، ومع نشأة الأدب الروسي ظهر أثر الثقافة العربية بقوة لدى أمير الشعراء الروس ألكسندر بوشكين (١٧٩٩- ١٨٣٧) مؤسس الأدب الروسي مسرحًا وشعرًا ورواية وقصة، فقد قرأ بوشكين القرآن الكريم مترجمًا باللغة الفرنسية واللغة الروسية، وبلغ من تأثره به أنه طلب الاستماع إليه مرتلًا حين كان منفيًا بين شعوب آسيا المسلمة، ثم كتب قصيدته «قبسات من القرآن الكريم» في تسعة مقاطع عام ١٨٢٤، وكتب لاحقًا «ليال مصرية» عام ١٨٣٥، وفي ذلك الوقت تحديدًا يطلب محمد علي باشا مؤسس نهضة مصر الحديثة من روسيا أن تساعده في تعليم المصريين «التعدين» لاستخراج الذهب من رمال السودان، ويتصل ذلك التفاعل في

القرن ١٩ فيعكف الروائي العملاق ليف تولستوي على ترجمة بعض أحاديث الرسول -صلى الله عليه وسلم- من الإنجليزية إلى الروسية ويصدرها عام ١٩٠٩في كتاب بعنوان «حكم النبي محمد» مقدمًا لها بدفاع حارٍّ عن الإسلام. وعندما حرمت الكنيسة تولستوي من حقوقه يكتب له الإمام محمد عبده رسالة بالفرنسية يهون فيها عليه قائلًا له: «وإن أكبر جزاء نلته على متاعبك في النصح والإرشاد هو هذا الذي يسميه الغافلون بالحرمان والإبعاد، فليس ما حصل لك من رؤساء الدين سوى اعتراف منهم أعلنوه للناس أنك لست من القوم الضالين». ويرد تولستوي برسالة على خطاب الإمام. ومع بدايات تبلور الثقافة المصرية القومية في ظل ثورة ١٩١٩ يقول الأديب الكبير يحيى حقي: إن القصة القصيرة ولدت بين جناحي موباسان الفرنسي وأنطون تشيخوف الروسي، حتى أن أدباء تلك السنوات كانوا يجلسون في المقاهي فريقين: أنصار تشيخوف، وأنصار موباسان. ولا تخلو قصص الأخوين عيسى عبيد وشحاتة عبيد (١٩٢٠) من الإشارة إلى المرأة الروسية ودورها ودعوة المصريات للاقتداء بها. وعندما بلغ نجيب محفوظ عامه التسعين وكان نظره وسمعه قد ضعف، سألته إحدى الصحف عن الرواية التي ما زال يذكرها في هذه السن المتأخرة، فأجاب: «الحرب والسلام لتولستوي». كما تأثر نعمان عاشور في مسرحيته «الناس اللي تحت» بمسرحية مكسيم

جوركي «الحضيض»، ويوسف إدريس بتشيخوف، واستمر ذلك التفاعل إلى يومنا أحيانًا بقوة وأحيانًا بضعف لكن من دون انقطاع. وما زالت هناك صفحات كثيرة مجهولة لنا في الأدب الروسي، بعضها كتبها رحالة إلى منطقة الخليج في القرن ١٧، و١٨، وصفحات أخرى جديرة بالاكتشاف والتعرف، مثلما أن روسيا ما زالت حتى اليوم تكتشف الدنانير والدراهم العربية الذهبية في المناطق الشمالية بها، ولا شك أن حركة الترجمة قد قامت بدور كبير في التفاعل الثقافي ورسخت العلاقات التاريخية السابقة على الترجمة، وقد بدأت تلك الحركة في روسيا فعليًا في القرن ١٨ عندما أمر القيصر بطرس الأكبر (١٦٧٢-١٧٢٥) في خضم بناء دولة حديثة بنسخ بقايا الكتابات العربية المحفوظة في مدينة بلقار ذات الغالبية المسلمة وترجمة تلك الكتابات، ثم إنشاء أولى مدارس المستعربين، ودخول اللغة العربية في مناهج التعليم الثانوي عهد يكاترينا الثانية في بعض المدن الروسية مثل أستراخان وغيرها. وفي عام ١٨٠٤ بدأ تدريس اللغات الشرقية في الجامعات الروسية وأنشئت أولى أقسام اللغة العربية، وبدأت تتسع حركة ترجمة الفكر والأدب من العربية، وشهدت تلك الحركة وثبة على يدي المستشرق الكبير إجناتيوس كراتشكوفسكي (١٨٨٣- ١٩٥١) الذي غُدت ترجمته للقرآن الكريم أدق ترجمة أكاديمية مقارنة بما سبقها من محاولات، كما ترجم أعدادًا كبيرة من الأعمال العربية وأشرف على

إصدار «ألف ليلة» ونشر العديد من الدراسات والأبحاث المهمة قبل ثورة أكتوبر ١٩١٧، منها «تشيخوف في الأدب العربي»، و«الأدباء الروس في العالم العربي» وغيرها، وساعده في ذلك أنه قضى عامين في البلدان العربية والتقى خلالهما بطه حسين ومحمود تيمور وجورجي زيدان وآخرين من رواد النهضة الثقافية، ويمكن التأريخ لحركة الترجمة الحقيقية بأعمال كراتشكوفسكي، ومع ثورة ١٩١٧ وظهور الدولة السوفيتية بثقل مصالحها الاقتصادية والعسكرية تأسست عدة دور نشر في روسيا عكفت على ترجمة الآداب العربية وفي مقدمتها «دار التقدم»، و«دار رادوجا» (قوس قزح)، و«دار مير» (السلام) والقسم العربي في «دار ناءوكا» (العلم)، وقدمت تلك الدور ترجمات ممتازة لأعمال عمالقة الأدب الروسي: تورجنيف وتشيخوف، قام بها الأديب العراقي المعروف غائب طعمة فرمان، ود. أبو بكر يوسف، وغيرهما، وعلى صعيد آخر استطاع المستعربون الروس أن يقدموا للقارئ الروسي معظم الأعمال العربية المهمة بالروسية: رواية «زينب» لهيكل، قصص محمد ومحمود تيمور، وعبد الرحمن الشرقاوي، ونجيب محفوظ، وبهاء طاهر، وتوفيق الحكيم، ويوسف إدريس، وطه حسين، بل واستطاعت المستشرقة الكبيرة فاليريا كيربتشنكو أن تترجم حتى كتاب «تخليص الإبريز في رحلة باريس» لرفاعة الطهطاوي وأن تنشره منذ عامين. لكن حركة

الترجمة تلك توقفت تقريبًا مع زوال الاتحاد السوفيتي وتراجع المصالح الروسية في العالم العربي بسبب توقف دعم الدولة للمؤسسات الثقافية نهائيًا، فوجد معظم المستعربين أنفسهم مرغمين على العمل في مؤسسات تجارية خارج نطاق العلم واللغة. هذا بينما بدأت حركة الترجمة عندنا من الروسية إلى العربية في وقت متأخر، مطلع القرن العشرين، ولكن الترجمات كلها كانت نقلًا عن لغة وسيطة فرنسية أو إنجليزية، إلى أن ظهر في منتصف الستينات عدد ممن الأساتذة العرب الذين أنهوا تعليمهم في روسيا فأخذت تظهر للمرة الأولى ترجمات أدبية عربية مباشرة عن الروسية تفادت كل أخطاء الترجمة من لغات وسيطة. إلا أن حركة الترجمة عندنا من الروسية إلى العربية قد توقفت عندنا هي الأخرى تقريبًا؛ وهذا لأن سلسلة الدارسين العرب في روسيا قد انقطعت منذ نحو عشرين عاما، بعد أن توقفت روسيا عن تقديم المنح الدراسية المجانية، مع هزال البعثات العلمية العربية إلى روسيا، بحيث لم يبق على الساحة الثقافية إلا عدد قليل من المترجمين العرب الكفء ممن تعلموا في الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي. من ناحية أخرى فإن أجور الترجمة الزهيدة نسبيًا مع مشقة الترجمة أجبرت الكثيرين على تغيير مسارهم، ومع ذلك يظل الأمل أن يعثر التفاعل الثقافي الروسي العربي على طريقه لتستمر الثقافة والأدب في القيام بما قال عنه تولستوي «التعارف الروحي بين البشر»،

ويتزايد هذا الأمل بعد أن تحرر الأدب الروسي من أقدام الرقابة والاستبداد التي داسته طويلًا.

ذات يوم قال الشاعر الداغستاني الكبير أبو طالب غفوروف: «لا تطلق رصاص مسدسك على الماضي لكي لا يفتح المستقبل عليك نيران مدافعه»، وقد داست المرحلة السوفيتية بعنف على زهور كثيرة، وآمال كبيرة، وسحقتها، فأخذ الأدب الروسي الحديث يفتح عليها نيرانه وهو يجول بعينيه بحثًا لنفسه عن درب يبدع فيه ويتفاعل مع الحضارات الأخرى.

***

عند الوداع

لمن عاش في روسيا وقتًا فإنها تشبه «النداهة»، ساحرة، فاتنة، ذات جمال طاغ، عليك وأنت ترحل عنها ألا تلتفت خلفك؛ لأن نظرة واحدة إلى عينيها قد تقيدك إلى مكانك إلى الأبد، هذه الأغنيات الشعبية الروسية بمقاطعها الممتدة، المستقيمة، التي تضرب في سماء كل غرفة وكوخ، بحزن وقوة ووحشة الجماعات القديمة في الكهوف، كل أولئك البنات بديعات الجمال السائرات كأنهن إعلان عن الحياة، عن سحرها وأملها، الأشجار العالية التي تختفي قممها بعيدًا في الفضاء بكبرياء وسكينة.

ودعتُ روسيا ونجوتُ بنفسي من هذا الجمال الذي غمرني بدون توقف، شيء ما في روسيا يشبه قلبًا كبيرًا يتنفس طيلة الوقت، يزفر أنفاسه الدافئة في الضباب، في الطقس المشمس، في الليل، شيء تشعره طيلة الوقت يتنهد، منزلقًا إليك من فوق قباب الكنائس المذهبة، سفرة الطعام الروسية التي لا مثيل لها في العالم، في كل مكان يأكل الناس ثم ينفضون من حول السفرة ليواصلوا الجلسة إلا عند الروس، يغطون مائدة كبيرة بكل أنواع السلطات واللحوم والمشروبات، ويجلسون لا يفارقون المائدة. يأكلون يثرثرون يضحكون، تبدأ الجلسة من المائدة وتنتهي عندها. إذا لم تستطع النداهة أن تجعلك تلتفت إلى نظرة عينيها فسوف تجذبك إليها بنكاتها اللاذعة التي تغوص أبعد

من سطح الحياة الظاهرة، فإذا لم تأسرك بالنكات الحادة والطبيعة التي تمتد بلا نهاية في بلد هو الأكبر مساحة في العالم، فسيشدك إليه الوجدان الفريد للشعب الروسي الخشن من الخارج الطيب جدًا من الداخل، الذي يشرب الفودكا كثيرًا، ليس بسبب البرد كما يعتقد معظم الناس، ولا بسبب الإدمان، لكن لأن ذلك الشعب يعشق الصراحة، وهو شعب متحفظ يلجأ إلى الكحول ليطلق لسانه بالتعبير عما تجيش به نفسه.

إنه الوجدان الروسي الذي اخترع عبارة «ما من ألم غريب». أي إن كل فاجعة في العالم هي فاجعة الإنسان الروسي. شعب يظل يبحث عن الحقيقة والعدالة كأنه مفطور على ذلك، نشأ الأدب لديه منذ بداياته مع جوجول ومسرحياته مرتبطًا بدوره الاجتماعي، حتى دوستويفسكي الذي قال: «كل أدب هو عظيم بمقدار ما هو عصري، وممتع، ومفيد».

إذا لم تشدك النداهة بجمالها، وأغنياتها المديدة المقاطع، وأشجارها، وقلبها الذي يتنهد ساخنًا في كل الفصول، فسوف تناديك بأمطارها وحزنها الغامض الذي يشيع في ضباب خفيف بلون الطباشير. تقف في مدخل محطة مترو لتحتمي من المطر، فيهبط من سماء الشارع الحمام منزلقًا إلى داخل المحطة، ينفض عن ريشه رذاذ الماء، ثم يعاود الرحلة. ترى من مكانك امرأة روسية عجوزًا واقفة محنية الظهر شبه عمياء، تمد كفًا وتمسك بيدها الأخرى ورقة صغيرة كُتب عليها بحروف

كبيرة «ساعدوني لأجل المسيح»! تفكر في سمة أخرى من سمات هذا الشعب ألا وهي التطرف، والانتقال الحاد من جانب إلى آخر، من الدعوة لتغيير العالم بالمحبة عند تولستوي، إلى المدافع واغتيال القياصرة، من المسيح إلى كارل ماركس، من الشيوعية إلى الابتهالات الدينية.

في حديث مع مواطن بسيط قال لي وهو يضرب فخذه بيده: «لم تعطني الشيوعية أكثر من سروال واحد، يا لها من مأساة! لكن الأكثر إيلامًا أن الديمقراطيين حين جاءوا إلى السلطة انتزعوا مني ذلك السروال»!.

حاول أن تنجو من كل ذلك، لكنك لن تنجو أبدًا من ثقافة روسيا وقصائدها، من بوشكين وتشيخوف وأندريه بلاتونوف وبلجاكوف، من جوجول الذي مات ملتاثًا؛ لأنه كلما أراد أن يصور مجتمعًا مثاليًا ليرضي القيصر والكنيسة خرجت روسيا الحقيقية من بين يديه، فقال عنه تولستوي متأسفا: «لم يستطع عقله الخجول أن يرتقي إلى عبقريته الفنية الحدسية المذهلة».

ودعت كل هذا الجمال الطاغي الفاتن، وسرت في أرض المطار، وهي تناديني. لا ألتفت خلفي؛ لأن نظرة واحدة إلى عينيها قد تجمدك أمام جمالها، فتتبعها مأخوذًا، إلى كهفها الغريب المتوهج المشبع بالأساطير والبحث عن معنى لكل شيء.

***

الكاتب د. أحمد الخميسي

قاصٌ وكاتبٌ صحفي، مواليد القاهرة ١٩٤٨. دكتوراه في الأدب الروسي جامعة موسكو عام ١٩٩٢. عضو نقابة الصحفيين واتحاد كتاب مصر. عمل في الصحافة بدءًا من عام ١٩٦٤. ظهرت قصصه القصيرة في العام ذاته في المجلات المصرية. قدمه الكاتب الكبير يوسف إدريس لمجلة الكاتب المصرية عام ١٩٦٧.

ـ عمل أثناء وجوده للدراسة في روسيا مراسلًا صحفيًا لجريدة الاتحاد الإماراتية وإذاعة دولة الإمارات من ١٩٨٩ حتى ١٩٩٨، ثم من القاهرة مراسلًا لمجلة الآداب البيروتية ثلاث سنوات من ٢٠٠٦ حتى ٢٠٠٩.

ـ كرمه اتحاد الأدباء العرب لدوره في ترجمة الأدب الروسي إلى اللغة العربية. كرمه اتحاد الكتاب الروس، ومجلة ديوان العرب.

ـ حاز جائزة «نبيل طعمة» السورية عن مسرحيته «الجبل» عام ٢٠١١

ـ جائزة ساويرس عن مجموعته القصصية «كناري» كأفضل مجموعة بين كبار الأدباء لعام ٢٠١١، وعن مجموعته «أنا وأنت» ٢٠١٧.

ـ يكتب في الصحافة المصرية والعربية بانتظام.

أعماله:

القصصية:

١ـ «الأحلام، الطيور، الكرنفال» مجموعة قصصية ـ الهيئة المصرية ـ ١٩٦٧ مجموعة بالاشتراك مع أحمد هاشم الشريف ومحمود يونس.

٢ – «قطعة ليل» مجموعة قصصية ـ دار ميريت بالقاهرة ـ يوليو ٢٠٠٤ـ وصدرت منه طبعة ثانية عن كتب خان.

٣ – «كناري» مجموعة قصصية مؤلفة ـكتاب اليوم أخبار اليومـ ديسمبر ٢٠١٠ ـ حازت على جائزة ساويرس فرع كبار الكتاب كأفضل مجموعة قصصية لعام ٢٠١١.

٤ـ «رأس الديك الأحمر» ـ مجموعة قصصية مؤلفة ـ كتب خان ـ القاهرة ـ ديسمبر ـ ٢٠١٢.

٥ـ «الأجيال الثلاثة» مجموعة قصصية آنا أحمد الخميسى ـ أحمد الخميسي عبد الرحمن الخميسي ـ دار كيان ـ القاهرة ـ يناير ٢٠١٥.

٦- مجموعة قصصية «أنا وأنت» دار كيان القاهرة ٢٠١٥ فازت بجائزة ساويرس كأفضل مجموعة قصصية بين كبار الأدباء في ٢٠١٧.

الترجمة:

١ـ «معجم المصطلحات الأدبية» ترجمة عن الروسية عام ١٩٨٤.

٢ـ «المسألة اليهودية» للأديب العالمي دوستويفسكي ـ مجلة أدب ونقد ـ العدد رقم ٦٩ ـ مايو ١٩٩١، وأعادت مجلة «زرقاء اليمامة» عام ١٩٩٦ نشر نفس الترجمة، ثم تضمنها كتابه «أوراق روسية».

٣ـ «كان بكاؤك في الحلم مريرًا» قصص مترجمة عن الروسية ـ دار المستقبل ـ ١٩٨٥.

٤ـ «قصص وقصائد للأطفال» ترجمة ـ اتحاد الكتاب العرب دمشق عام ١٩٩٨.

٥ـ «نجيب محفوظ في مرايا الاستشراق» ترجمة وإعداد ـ دار الثقافة ـ ١٩٨٩ ـ وصدرت منه طبعة ثانية عن المجلس الأعلى للثقافة.

٦ـ «أسرار المباحثات العراقية السوفيتية في أزمة الخليج» ـ تقديم وترجمةـ ١٩٩١ ـ مكتبة مدبولي.

٧ـ «نساء الكرملين» ـ مكتبة مدبولي ـ ١٩٩٧.

٨ـ «رائحة الخبز» ـ قصص مترجمة ـ هيئة قصور الثقافة ـ ١٩٩٩.

٩ـ «لقاء عابر» قصص روسية مترجمة ـ كتاب اليوم الأخبار ـ فبراير ٢٠١٤.

مسرحية:

١ـ «الجبل» مسرحية ـ هيئة قصور الثقافة ـ ٢٠١١ـ فازت بجائزة نبيل طعمة السورية عام ٢٠١١.

سينمائية:

١ـ حوار فيلم «عائلات محترمة» عام ١٩٦٨.

٢- حوار فيلم «زهرة البنفسج» ١٩٧٢.

دراسات:

١ـ «موسكو تعرف الدموع» دراسات ـ كتاب الأهالي ـ القاهرة ١٩٩١.

٢ـ «الصعود إلى الجبال الشيشانية» ـ كتاب الاتحاد ـ دولة الإمارات ١٩٩٥.

٣ـ «الباب المغلق بين الأقباط والمسلمين» ـ دار الهلالي القاهرة ـ ٢٠٠٨ .

٤ـ «عيون التحرير في الأدب والسياسة» ـ ٢٠١١ ـ دار كيان ـ القاهرة.

٥ـ «أوراق روسية» ـ مقالات ـ كتاب اليوم الأخبار ـ مايو ٢٠١٣.

ـ إيميل:

gmail.com@ahmadalkhamisi٢٠١٢